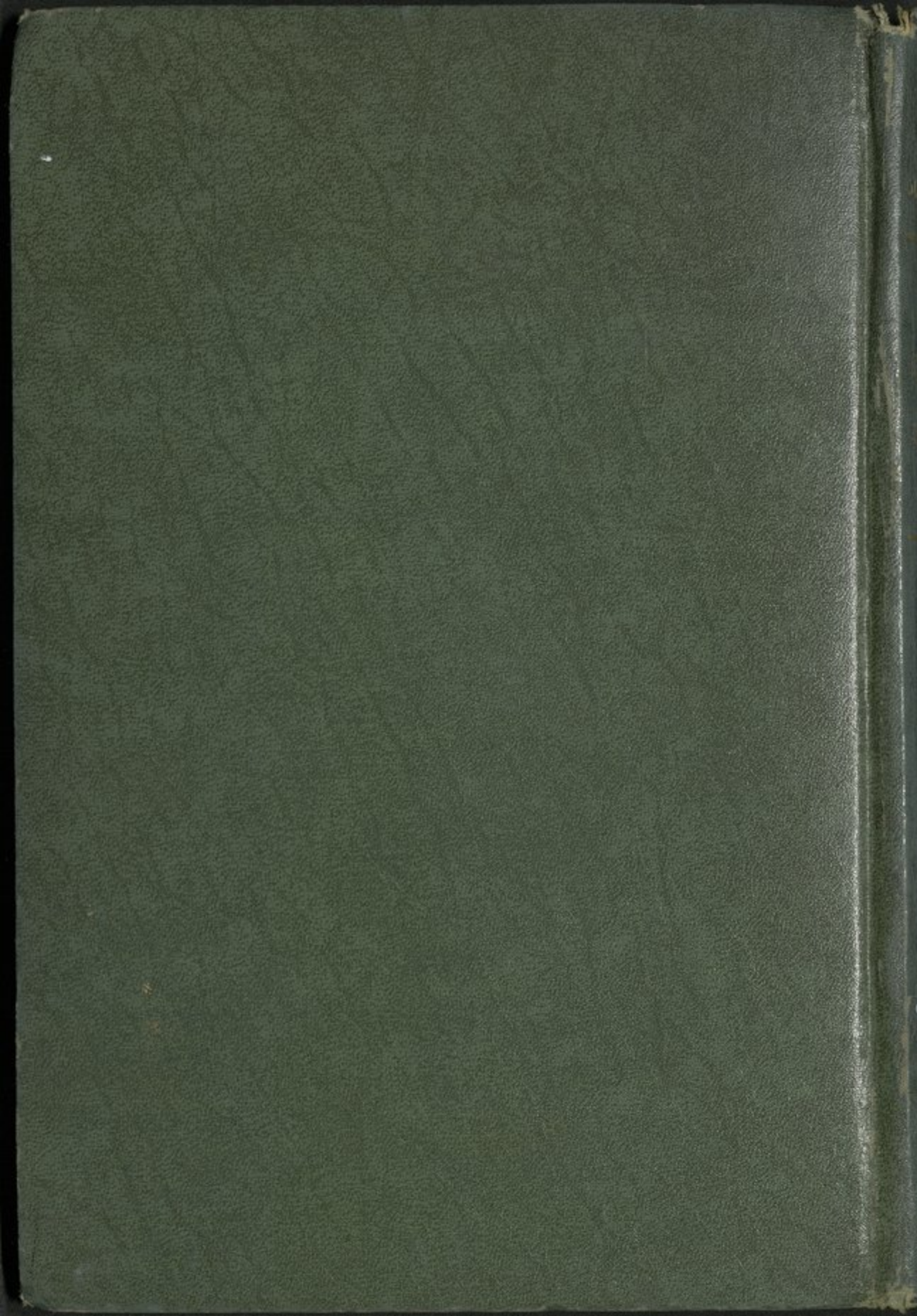
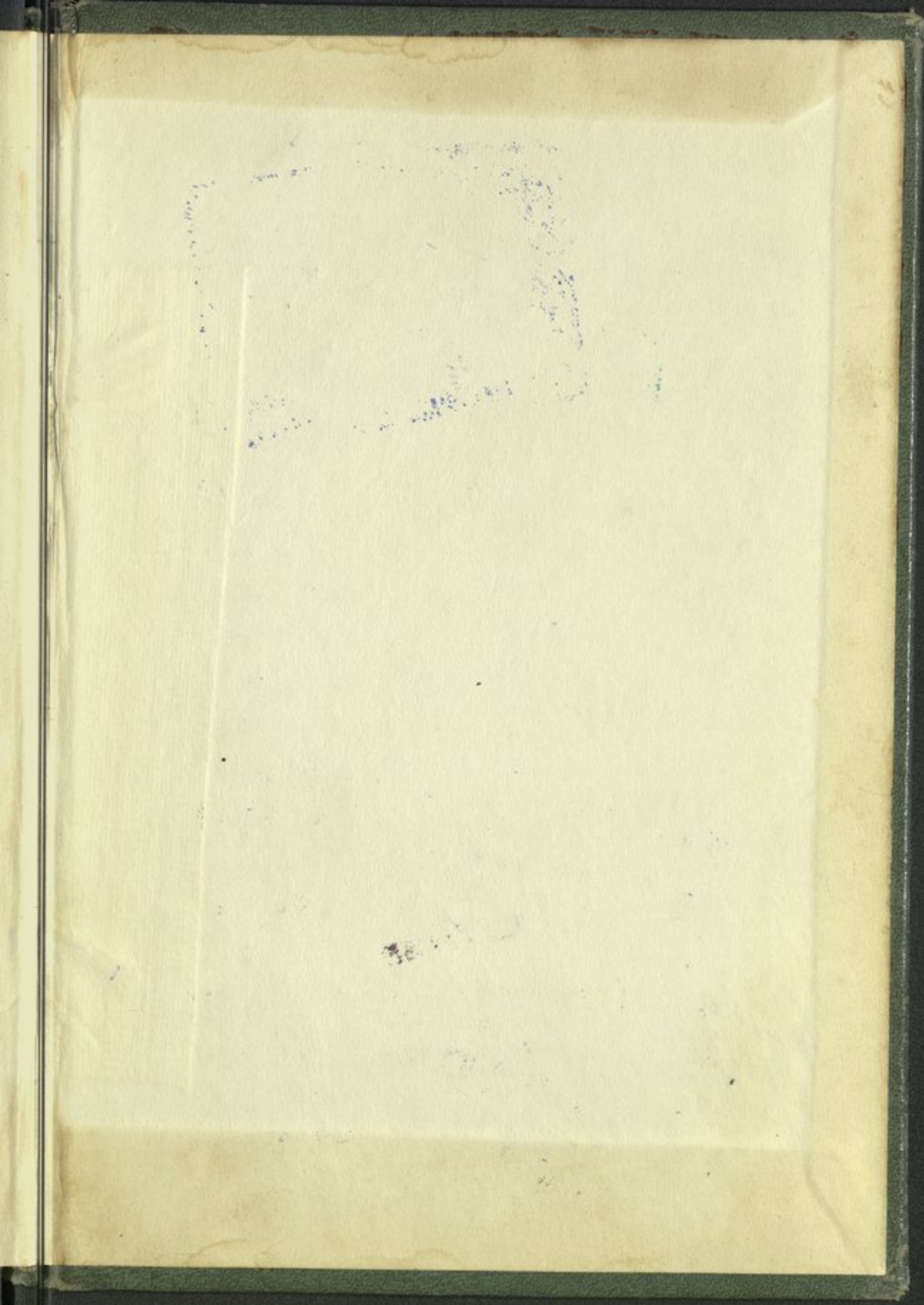
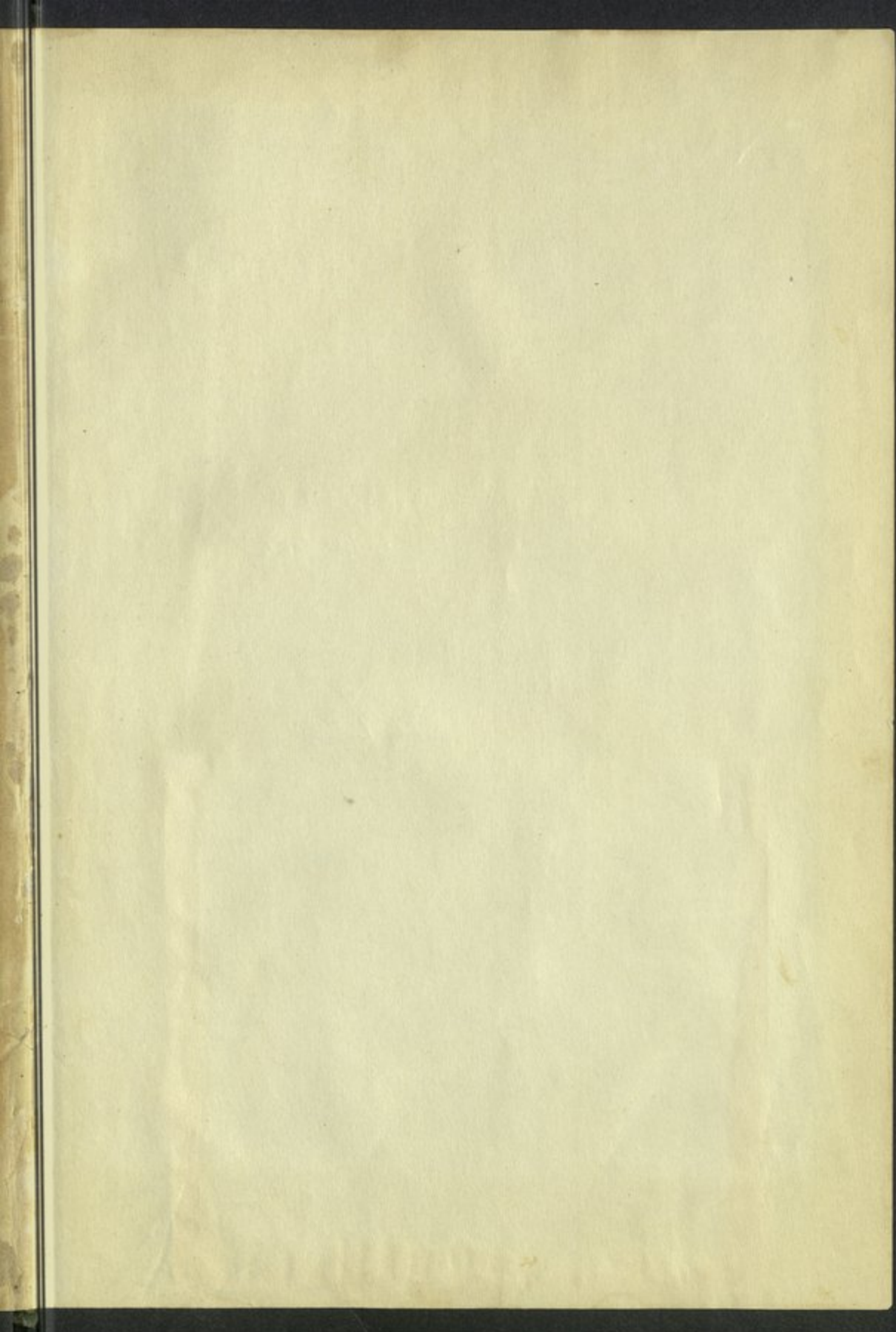






JAFET LIB.



دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية



چي ده موپايتان

حياة قاص خبيرة

تقريب

ابراهيم الحلو

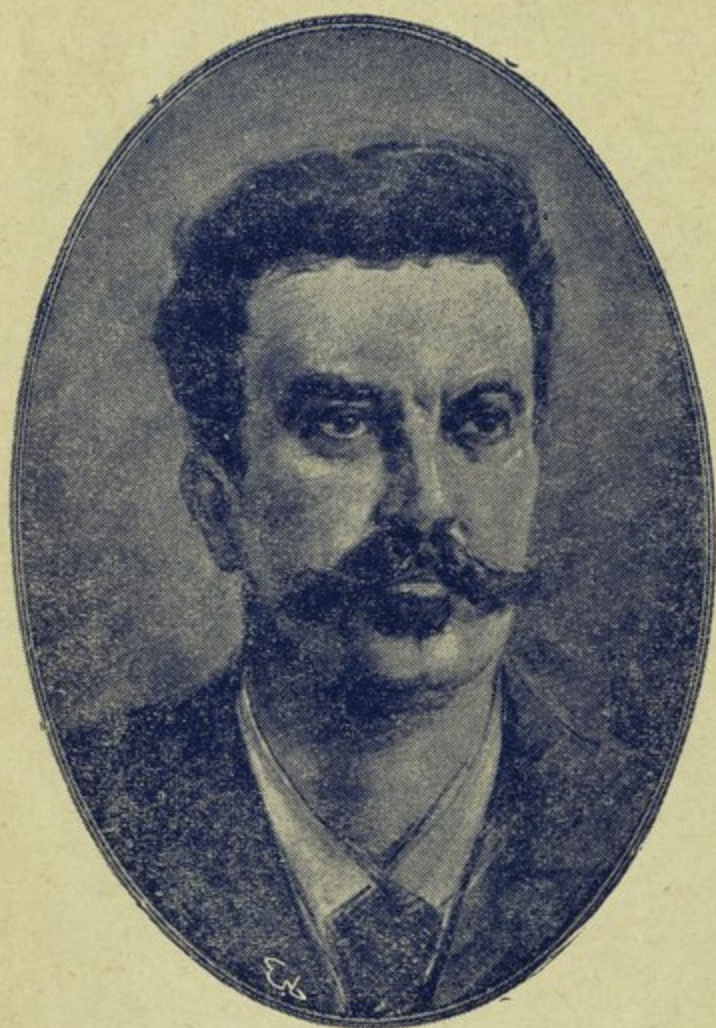
سلسلة عميون الأدب العالمي

١٢

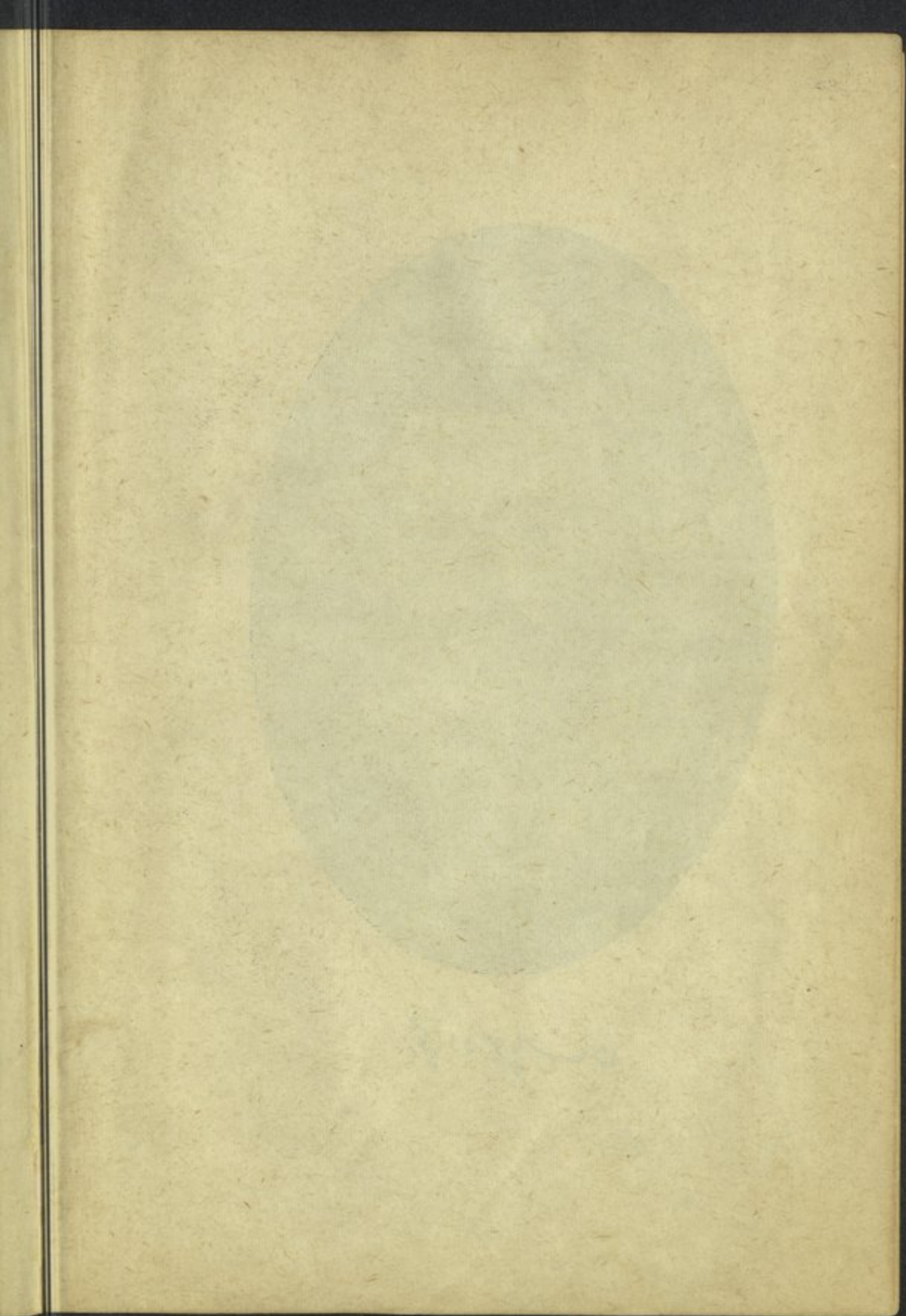
Oct. 16. 1954



مقوق الذرجمة والطبع والنشر والاقباس
محفوظة
لدار الیقظة العربیة للتألیف والترجمة والنشر
دمشق - سوریه

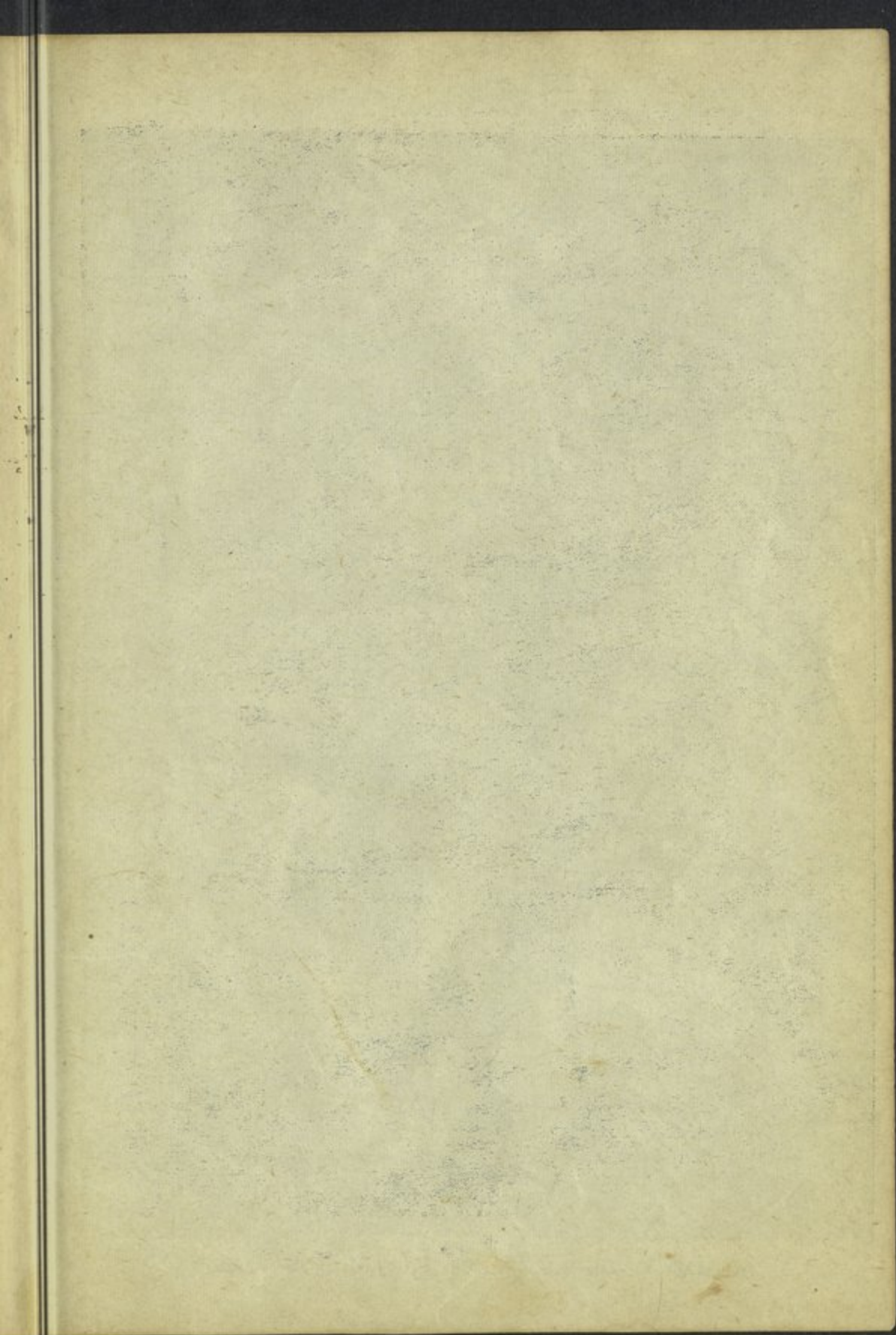


چي ده موپاڻان





انطلقت جان تعدو فوق الثلج ... حافية القدمين



المقدمة

أجملنا في مقدمة كتاب «قوي كالموت» (١)، أحداث حياة الكاتب الكبير موباسان وألمعنا الى صفات أدبه وخصائص فنه الرفيع، بيد أننا وجدنا ان تلك العجالة لم تف كاتبتنا حقاً ولم تشبع في قارئنا همه الى معرفة المزيد عن هذا المشعل الوضاء والشهاب الثاقب الذي التمع في سماء الادب الغربي رشحاً من الزمن فكانت رسولا للفن أميناً وسراطاً للادباء مستقيماً.

* * *

وثب موباسان، وهو الموظف المغمور في وزارة البحرية، بغتة الى القمة السامقة من التأليف الأدبي. وقدم، خلال عشر من السنين، انتاجاً قيمياً في كميته كبيراً في كميته. فأدرك النجاح وانقادت اليه الثروة..

وكما كان مبالغاً في التمتع بنجمه كذلك غاص فجأة في دنيا اللاوعي وعالم الجنون.. فكان بحق نجماً التمتع زاهياً وضاء ومرعاً ما خبا واضمحل وغداً اثاراً بعد عين!

١ - قسمته من الحياة

ولد جي دي موباسان Guy de Maupassant في قصر

الموظف «ميرومسنبيل» بنواحي (ديب) Dieppe ولكنه نشأ

(١٨٥٠ - ١٨٨٠) وترعرع في (اتريتتا) (٢) (Etreta) القريبة من

القصر، حيث اعتكفت أمه بعد افتراقها عن زوجها، عاش ثمة موباسان حياة طليقة من

(١) صدر عن دار اليقظة العربية في سلسلة «عيون الادب العالمي»

(٢) في هذه البلدة وضواحيها، وفي قصر شبيه بمسقط رأسه تدور حوادث «حياة صاحبة» وقد

استوحاها، ولا جرم، من مرابع صباه، وبحالي طفولته.

كل قيد منفلة من كل غل كأنه المهر العريبد في الملعب .

وانبع في المدرسة الكهنوتية في (ايفيتو Yvetot) دراسة صارمة جدية ثم انتقل ، لاستكمال دواسته ، الى كلية (روان Rouen) فكان له من وليه (لويس بويلهيت Louis Bouilhet) نعم المرشد النصح كاشرع يمرسه بقرض الشعر وكتابة النثر فكان المعلم الأول .

وجاءت حرب ١٨٧٠ فكان على موباسان ان يخوض غماره - فانخرط في « الحرس السيار » ولم يترك هذه الفرصة تفوته فكان يسجل ملاحظات قيمة كونت له ، فيما بعد ، زاداً ثراً غرّف منه فصور فأبدع .

ونزل باريس سنة ١٨٧١ فشغل وظيفة صغيرة في وزارة البحرية بيد انه لم يلبث ان تركها ليعمل في وزارة المعارف سنة ١٨٧٨ . وكان ، خلال وجوده في هذه الوظائف الحكومية ، يتأمل ، بكثير من السخرية ، زملاءه فيدرس طباعهم ويسجل نماذج بشرية متباينة شتى .

وشرع ، تحت اشراف غوستاف فلوبير (١) ، صديق امه منذ الطفولة ، شرع بأولى محاولاته ككاتب ادب . ولقد خطط له « مؤلف مدام بوفاري » سبيلاً بسيطاً واضح المعالم ليكون له منه هدى في مغاوزه الحياة الادبية الوعرة المسالك . فكان لا يفتأ يردد على مسمعيه :

« اعمل دائماً على السمو بطرفتك باحتسكاكك المباشر بالواقع الذي هو ، دون سواء ، منبع كل جميل رائع طريف . احتقر الدعوى ، تجنب الحكم الاعتباطي كفعل انصاف المثقفين ، فلتعلم ، قبل كل شيء ، ان الفن لا ينقاد الا لاصابر جلد لا يعرف الوهن قلبه والمستحيل عزمه »

ومضى موباسان ، خلال سنوات سبع ، يقرض الشعر وينظم الملاحم (الجدار LeMur ، على شاطئ الماء Au Bord De L'Eau) او قطعاً تمثيلية قصيرة (حكايات

(١) روائي فرنسي ولد في روان ، دقيق الملاحظة ، واقفي . رائحة ديباجته خلاب أسلوبه
متلف انشاؤه . كتب « مدام بوفاري » و « سالبو » ١٨٣٢ - ١٨٨١ .

الزمن الغابر (Histoires De vieux Temps) ثم عاف كل ذلك وانصرف الى كتابة
 قصص قصار ابرزت مواهبه في الخلق والابداع . كان فلوبير يسدد له خطاه فيصحح له كتاباته ويتحفظ بملاحظات كاتبه بحرب
 بلا الفن فأصاب منه الشهرة وضرب بمكنوناته بسهم واخر . اما كاتبنا الناشئ فكان يخلط بين جد الحياة ولهوها فلا ينفك يحلم ، هو
 القوي البنيان المتين العضل ، بنزهات في الهواء الطلق والتطواف والتشرد .. كان
 به الى الحياة ، في شتى مظاهرها ، عطش لاغب ، وشوق مقيم ..
 ودهمته آلام القاب عام ١٨٧٦ فأورثته هزلا شديداً أدى به الى الوغول في
 كآبة وسوداوية بعيدتي القرار .

* * *

الشهاب
 ولج موباسان سماء الادب كالشهاب الثاقب . فما ان
 (١٨٨٠ - ١٨٩١) ظهرت القصة اللثيمة الجارحة « بول دي سوف Boul
 De Suif » حتى ارتفعت اسمهم مؤلفها دفعة واحدة فبلغت السماء الأعزل .. وكان
 بدء الاشرار والتوهج (١٨٨٠) وبدأ ، بعد هذا التاريخ ، سيل دافق من روائع
 المؤلفات بلغت حوالى ثلاثمائة قصة وست روايات .
 ١ - موباسان القصص : كان لنجاح « بول دي سوف » اليد الطولى في حمل
 موباسان على الاندفاع في كتابة القصص القصير فبلغ بهذا الفن مرتبة تداني الكمال
 وكان ينشر قصصه في الصحف اليومية قبل جمعها في كتب : « بيت قبلية » La maison
 « ١٨٨١ » Tellier ، « الأئمة فيفي » Mdemoiselle Fifi « ١٨٨٢ » قصص
 بيكاسيا Les Contes de la Becasse « ١٨٨٣ » الأخوات رندولي Les Sœurs
 Rondoli « ١٨٨٤ » .

ولافت هذه القصص نجاحاً عز له نظير فكان منها للقراء متعة بالغة وحياة ذائخة
 بالرغاب المتوثبة والعنف الشديد الا ان تأثير اميل زولا وغوستاف فلوبير كان
 ظاهراً في بعضها .

وكتب « Yvette » و « Miss Harlette » سنة ١٨٨٤ فكان لها الوقع المدوي في الاوساط الادبية الرفيعة . وفي « قصص الليل والنهار Comtes Du Jour et De la Nuit » و « Le Horla » أبرز موباسان الى العيان طرافة فنه وتخلص من كل تأثير خارجي فكان يستعين بكرويات طفولته لتصوير اهل الريف كما عرفهم في مسقط رأسه .

٣ - الروائي : آت موباسان الثروة في ركاب المجد فقام برحلات عديدة واختلط بالمجتمع الراقي فاتسع خياله واكتسبت ملاحظاته قوة ونفاذاً . وشرع منذ ١٨٨٥ بانتاج الطويل من الروايات دون ان ينصرف عن القصص القصيرة فكتب عام ١٨٨٣ الكتاب الذي نضعه الآن بين يديك « حياة صاخبة (١) Une Vie Emouvante » فكان قبلة شديدة الدوي ، خاطفة اللمعان ، وقف النقاد منها مشدوهين لا يعرفون من اين ينفذون الى نقاط الضعف فيها وما افلها !

رواية قوية في كل ما فيها : فكانت صورة مثالية لحب مثالي حمله قلب شاب فصصفت به زعازع الحياة فصوحت واحة آماله وانهارت صروح امانيه وتبعثرت رغائبه في مهب كل ريح ! وكانت بجالاته اقلم بليغ وفكر ثاقب يصور فيها طبائع البشر بلوؤها وخسرتها وكرمها وتسامحها وحبها وبغضها وخيانتها وتمسكها بأذيال العفاف .. انها حياة ! حياة مصغرة لكل ما في الكون من بدوات وتزوات ! انها حياة ماثرة ماثجة . وما أصدقها من صورة للواقع الحلي لا زيف فيها ولا تمويه !

وفي الفترة عينها انحف كاتبنا الأدب برواية ثانية لا تقل عن الاولى روعة وجمالاً : « الصديق الجليل Bel Ami » ثم « مونت أوربول Mont Oriol » سنة ١٨٨٧ وتلا ذلك رواية ذات شهرة عالمية « بيير وجان Pierre et Jean » وجاءت اخيراً رواية انغمس فيها كاتبنا الكبير في عالم التحليل النفسي العميق فصور لنا قلباً ولا كالقلوب قلباً مخلصاً في حبه سامياً في تفكيره رفيعاً مترفعاً .. وأوقعه في حب بل حنين : بين الأم والبنت فكان بين حجرى رحى ... فمر كسبه بشقاها حتى سمعته سحفاً .. انها رواية « قوي كاللوت Fort comme La Mort » .. وختم موباسان هذه (١) نشرت هذا الكتاب بمس دور النشر تحت عنوان « حياة .. Une Vie » فاقطع التنويه .

المجموعة الرائعة برواية « قلبنا Notre Cœur » سنة ١٩٨٠ فكانت مسك الحمام لهذه الروايات التي أوضحت تطوره الفكري وأظهرت للتور موهبته الكبرى في التصوير والتحليل .

ثم انطوى الكاتب الكبير على نفسه فتعاشى جهد طاقته الاحتكاك بالعالم الخارجي ليخلو الى دراساته ويستكمل توضح أفكاره .

وخلال فترة الانطواء هذه نشر موباسان ثلاثة كتب صور فيها انطباعاته أثناء رحلته : « في الشمس Au Soleil » ١٨٨٤ و « فوق الماء Sur L'Eau » ١٨٨٨ و « الحياة الشاردة La Vie Errante » .

* * *

الكاتب الملتاث بدأت صحة موباسان بالتدهور فهي تسير من ميه الى أسوأ فبالإضافة الى مرضه العصبي دمه اختلال في النظر واضطراب في الدورة الدموية الامر الذي ضاعف حالته المرضية وزادها خطورة ، وبلغت اللوثة من كاتبنا غايتها حوالي سنة ١٨٩١ فقد أصيب باضطراب قواء العقلية ثم تفاقم امره حتى غرق في جنون مطبق [١] استمر ثمانية عشر شهراً قضى في نهايتها في مصحة الدكتور بلانش .

* * *

٣ - طرافة موباسان

١ - التشاؤم

لقد هجر موباسان في ما كتب عن ذلك التشاؤم الملحاح الذي كان يلزمه فيبدو له في كل مظهر من مظاهر الوجود .

[١] تزعم بعض المراجع الادبية ان جنون موباسان كان بتأثير مرض الزهري الذي أصيب به في فجر شبابه بينما تنفي مراجع أخرى هذا الزعم وترجع سبب لوثته الى مرض وراثي بدليل ان اخاه « هيرفي » قد أصيب بالداء ايضاً .

لارجاء

انكر مو باسان كل ما يمكن ان يوحى للانسان بالامل والرجاء
وقد فات ، في هذا المضمار ، استاذة فلوبيير الذي كان يؤمن
بالن ، على الأقل ، معزياً وملاذآ . ومو باسان اشبه في وجهة نظره هذه ، بشوبنهاور
Schopenhauer (١) الذي قال عنه : انه اكبر غازل للفكر عرفته الكرة الارضية !
ومو باسان ينفي عن الانسان كل عبقرية لأن الانسان ليس سوى حيوان
لا يكاد يفوق غيره من السوائم الا قليلا . فنحن لانعرف شيئاً ، ولا نخدس بشيء .
ولا يتسع خيالنا لشيء ! . ومو باسان ينفي العناية الالهية لان « الله يجمل ما يعمل ! »
وهو لا يؤمن بالفلسفة تحل المشاكل وتخرج من الأزمات لأنها « تفسر الاشياء التي
يستعصي علينا حلها تفسيراً غريباً في سخرته نافهاً في قيمته » ولا يؤمن كاتبنا بالعلم !
« فالعلم يتحطم دائماً على صخرة الجهول ويتناثر تحت كل كوكب ! » ومن لا يعتقد
« بعناية الالهية » لا يرى في الدين سوى « مغالطة وأكذوبة كبرى » اما الحياة
الاجتماعية فما هي الا « ركام مشاهد مربعة سداها حماقات خالدة ولحمتها دماء متناهية
في بشاعتها وانانية لثيمة في اثرتها » وينتج عن كل ذلك ان « الصلات التي تشد بعض
البشر الى بعضهم الآخر » ليست سوى « نفاق محبب وتمويه مغر » .

* * *

التعبير عن اليأس

لقد أضفت هذه الفلسفة الواضحة الخطوط على مؤلفات
مو باسان صفة لا تخلو من نصب من التناقض الظاهري
الا اننا نلمس فيها صلة وثيقة بحالته الصحية والعقلية فلانراها اصيلة في نفسه الجميلة المحبة الجمال .

• • •

الكاتب الساخر

لقد عبر مو باسان عن تشاؤمه في « بيت تيليه » و « الأنسة
فيقي » بلهجة ساخرة مما يذكر كاستاذة فلوبيير . ونحن نجد
مو باسان يجهد في سبر اغوار دماء النفوس وحطتها بروح انتقامية ساخرة يضم منها
الخطوط فيخرجها كاريكاتورية بارزة فكانه موتور يتلذذ بالتشهير .

• • •

« ١ » فيلسوف ألماني ولد في دتريغ صاحب نظريات شهيرة عن الارادة والتشاؤم « ١٧٨٨ - ١٨٦٠ »

الكاتب العطوف ... فاذا ما ساءت صحته مال الى الابتعاد عن السخرية
ليجنبوا على الشقاء الانساني عطوفاً فيأسوا الجراح ويقل
العترات فهو يقدم لنا ، في مثل هذه الفترات القانطة ، صور بورجوازيين سذج سريبي
الايمان الا انه لا يتسلى على حسابهم « السيد باران » وكذلك قل عن شديد اشفاقه
على العوانس وحياتهن المريرة فهو لا ينفك يبرز لنا صوراً واضحة المعالم عنهن « مس
هاريت » كما انه لم يهمل المرضى والشيوخ والمشردين .

* * *

الكاتب السوداوي ولقد سبب له استفحال علته وإكثاره من تناول الادوية
والعقاقير حالات سوداوية مستمرة تهبج فيه آلاماً نفسية
وجسدية ممزقة . وكثيرة هي قصصه التي صورت حالات من خوف هائل فكانت
يحلل الاوهام الخرفاء التي تستبد أحياناً بالنفوس المضطربة فترتعش كما لو كان ثمة ما
يهددها « الخوف » فكان يخرج لنا صور أشخاص عصبيي المزاج يرهبون الضجيج
ويفرقون من الوحدة ويخشون الليل « الرؤى » او شخصيات مدخولة مقتنعة بأن
مخلوقاً غير مرئي يسكن منازلها ويشند في ايذائه لها « الهورلا » .
ان في كل قصصه ، ما خلا أفلها ، ما يعبر بصورة فاجعة عن الهلع القلق الذي
كان يخاطب نفس موباسان امام الآتي المجهول .

* * *

٣ - فنه

ان موباسان مدين بخلوده لمواهبه الفنية الرفيعة . وعلو كعبه في مضمار الفن
راجع لمراس طويل وجلد لا يهن وصبر عظيم في معالجة الكتابة والتأليف :

...

بالرغم من عداوة موباسان لكل طريقة موضوعية فقد عرف
الافكار الجمالية كيف يحدد نظرتة الى الجمال في مقدمة « بيير وجان » .
ان التعلق بالجمال نزعة طبيعية أصيلة في مظاهرها وبدوانها عند كاتبنا ، ونتيجة

ز -

لذوق شديد الثقة بالغ الارهاف الامر الذي كان ، قبل موباسان ، شديد الشكوب في المدرسة الواقعية .

« قالواقع (١) ، Réalisme ، يقدم لنا مظاهر شئ يدها الكثير من الفث فيأتي الفن ليتدخل فيقدم لنا خلاصة الواقع . ولا يقدم لنا سوى « الحقيقة المصطفاة » القوة التعبير . ومن هنا يترتب على الروائي والقاص استبعاد كل ما لا جدوى منه فلا يخرج الى النور الا ما انسم بسمة الجمال ولا يتأتى ذلك الا للكاتب البارع اللبق ذي الذوق المرفه والاحساس الدقيق » .

اما الواقعي Réaliste « اذا كان فناناً أخرج لنا مشاهد وناذج بشرية على قبح وتقافة لا جدوى منها ولا غناء فيها » ومن البديهي ان لكل كاتب نظريته الخاصة فيرى الحياة من زاوية لا يشاركه فيها سواه ومن هنا نخلص الى استنتاج القيمة العظمى لشخصية الكاتب وقيمة نظريته الى الجمال والكون والفن .

وممة ما أخذ آخر يأخذه موباسان على المدرسة الواقعية وقد نحاشى هو الوقوع في هذا الشطط : « قال الكاتب الواقعي يعطي للقراء صوراً شديدة الوضوح ، بارزة الخطوط بيئة المعالم فيوفر عليهم كل جهد يبذل فلا يمكنهم من ادراك ذلك الرضى العميق والارتياح البعيد الغور الذي أحسه الكاتب لدى تبلور الصور في ذهنه فيقدم ، من جراء ذلك مشاركة المؤلف رضاء وارتياحه ويحرمهم ، بالتالي ، من المتعة الحقيقية والرياضة العقلية . »

صحيح ان موباسان قد أحدث هذا الانقلاب في المدرسة الواقعية الا انه ظل محافظاً ، وباصرار ، على بعض الأنس التي قامت على دعائنها « الواقعية الكلاسيكية Réalisme Classique » .

...

(١) مدرسة فلسفية ظهرت في القرون الوسطى وتناخص في النظر الى الحياة نظرية واقعية فخرها بكل ما فيها من دعامه وعدم النجم ، او بهاء او رواء وجمال . اشتهر اتباعها : سكوت ، فلوير ، زولا ، موباسان .

موهبة كفاف
ان في قصص مو باسان القصيرة تبلور لنظرة الجمالية الى الحياة
أوضح مما في رواياته الطويلة بفضل انتقاء الاسلوب دقيق واختيار
للمواضيع بارع . ففينا نأثّر بالغ للتوازن الفكري والتركيز التصويري .

فأول ما يعيد مو باسان الى وصف الاطار الذي تدور فيه حوادث قصصه
وصفا موجزا مركزا : باحة المزرعة . ساحة السوق . الحدائق العامة . حافلات القطار .
ثم ينتقل الى لم شعث أبطاله فيصور بخطوط سريعة ملحة ما يبرز من صفاتهم
الجسدية . ويتأتى له ذلك ببعض الاشارات العادية او من كلمات عامية فاقعة اللون
تعطي للصورة صبغة خاصة تصدم العين بما فيها من رقة وجلافة . ثم يبدأ عرض حوادث
بسيطة تافهة عن عمد وربما سخيفة عن تصميم : رحلات صيد طيور أو أسماك . اعمال
مختلفة من الحياة الريفية او الباريسية وسرعان ما تبرز ، من بين هذه التوافه ،
مفاجأة غير منتظرة تغمضي بعقدة القصة الى حل لم تكن لتصوره فيأتي ، اغلب
الاحايين ، فاجعا دون ان يبدو على الكاتب انه ابتعد عن هدوئه الطبيعي .

ولقد كان لمو باسان من أسلوبه الطبع المرن ما سهل له ابراز صوره على أكمل
وجه وأصدق وصف . فلما تعمد كاتبنا زج الفاظ رثانة في كلامه فهو ينهج أبسط
نهج فلا تخطيء عين بساطته الطبيعية وصفاء أسلوبه الخالي من كل شائبة وهو وراء
ذلك يخفي وثوقا بنفسه وقلمه ندعو الى العجب العجيب !

...

أما بعد ... فستوغل يا قارئ العزيز في « حياة صاحبة » وقد عرفت عن مؤلفها
الكبير الشيء الكثير . وستلمس فيها الصفات التي حاولنا ابرازها لك في هذه المقدمة
ليكون لك منها توطئة وتمهيدا لتذوق هذا الفن الرفيع واستجلاء هذا الادب العالي .

المترجم

دمشق - تشرين ثان ١٩٥٣

الكتاب الاول

الفصل الأول

مشت جان الى النافذة بعد ان فرغت من اعداد حقائبها . لم يكن المطر قد كف عن المطول بعد ان استمر طوال الليل تفرع قطراته المتلاحقة زجاج النوافذ وتجدد السطح . فكان السماء المنخفضة قد فتحت ميازيبها فغمرت الارض بسيل احالها وحلا لزجاً ذاب تحته كأنه قطع السكر .

كانت زخات المطر تعبر مثقلة بحرارة خانقة . وفاضت الشوارع بالجداول فبدت البيوت كقطع ضخمة من اسفنج تمتص الماء فتزشج به الجدر رطوبة تنفذ حتى الاقبية ومستودعات المؤونة .

لقد غادرت جان الدير عشية امس فظفرت بالحرية نهائياً ، ان بها لشوقاً الى اللعب من مسرات الحياة التي طالما داعبت مخيلتها منذ امد بعيد . وهي الآن تخشى تردد أبيها بالسفر في مثل هذا الجو ان لم يتحسن .

وللمرة المائة سرحت ناظرها تستجلي غوامض الافق الممغن في التجهيم . ولاحظت انها نسبت اخذ التقويم في حقيبتها ، فانتزعت من فوق الجدار تلك الكرتونية الصغيرة المقسمة الصفحة اقساءاً بعدد اشهر السنة وقد ظهر في وسطها بخط

ذهبي مزخرف الرقم ١٨١٩ . ثم ضربت بقلمها الاعمدة الاربعة حتى بلغت تاريخ ٢
ايار يوم مغادرتها الدير .

وعلا صوت من وراء الباب : - جانيت !

فاجابت الفتاة : - ادخل يا ابتاه . ودخل ابوها

كان البارون (سيمون جاك لبارتويس دي فود) نبيلًا من نبلاء القرن الماضي ، به
حمق وطيبة . يعتبر نفسه احد مريدي جان جاك روسو المتحمسين . فهو يحمل بين
جنيبه للطبيعة والحقول والغابات والحيوان حياءً يسكاد يكون كلفاً .

كان ارستقراطي المولد ، به ميل الى الفلسفة ، ربي تربية متحررة جعلته
يحمل للاستبداد في شتى مظاهره كرهاً صريحاً عنيداً . لقد تعانقت نقطتا الضعف
والقوة في نفسه في منطق واحد هو طبيته . انه طيب .. طيب حتي ليضيق هو
ذرعاً بطيبته اللامتناهية : معطاء ، متلاف ، عنيد ، منصرف يجاع قواه الى طبيته
التي نلت به ، وهي فضيلة ، الى ان تصبح نقیصة .

لقد حلم ، وهو الرجل النظري ، بمنهج لتربية ابنته كيما يجعل منها فتاة سعيدة
مستقيمة دمثة طيبة .

عاشت جان حتى سنتها الثانية عشرة في كنف البيت الابوي ثم بعث بها
ابوها ، رغم دموع امها الى معهد « القلب الأقدس » وتركها تسجن بقوة بين جدران
الدير القائمة قدشب جاهلة بالحياة مجهولة من الحياة . ودان يتسلمها ناصعة الصفعة نقية
الضمير في ربيعها السابع عشر كيما يتاح له غمسها بنفسه في مستنقع الحياة فيرميها الى
ما في الدنيا من حب وجمال وخير . انه يبتغي ان يهيئ لها الفرص ويمهد السبل لنفسها
الطرية فتنتفتح بين الحماثل ، فوق الارض الخيرة الطيبة وتحت السماء الفسيحة الزرقاء ،
إن جل ما يبتغيه هو اشباع عواطف فتاته من ذلك الحب والحنو الذي لا صنعة
فيه ولا تكلف ، من تلك القوانين الازلية التي تهيمن على الكون وتسيره بدقتها

المبدعة . يريد منها حباً للطبيعة كحب الحيوان لها ...

غادرت جان الدير بارعة الحسن ، بضج في عروقها دم الشباب الحار المتعطش الى منع الحياة ومناهل العيش الصرفة ، لقد ولدت في نفسها تلك الرغبة في ركوب متن المغامرات المشوقة التي طالما اهدت خيالها في فراغ ايامها وطول لياليها ووجدتها مع آمالها وخيالاتها .

كانت كأنها لوحة (الفيرونيز) بشعرها الاشقر المتوهج كأنه رسم فوق رأسها بالاصبغة والالوان . اما بشرتها فيها رقة الارستقراطيات المنعمات نوردها حمرة خفيفة ويظللها زغب لطيف فيحيلها ضرباً من المحمل الشاحب اذا ما داعبته اشعة الشمس .. اما زرقة عينيها فعميقة داكنة كعين تلك التماثيل الخزفية الهولندية . واستقر فوق منخرها الاليسر خال صغير كما زين ذقنها ثان في الجهة اليمنى تعلمهما شعيرات صغيرة شقراء بلون بشرتها حتى ليصعب على العين تمييزها منها .

وجان مديدة القامة هيفاء القد ، ناهدة الصدر ، متاوجة الردف . واضحة نبرة الصوت ، صريحة الضحكة تشيع فيما حولها جواً مرحاً طروباً ... وقد اعتادت حركة لازمتها وهي رفع راحتها الى شعرها عند الصغين فكانتها تسويه .

وخفت الى ابيها فالقت بنفسها فوق صدره وعانقته قائلة : - حسناً ألسنا

ذاهبين ؟

فابتسم لها هازأ رأسه ذا اللمة الطويلة الناصعة وأشار بيده نحو النافذة قائلاً :

- كيف تريدان السفر في مثل هذا الطقس ؟

فانثنت تستعطفه بدلال ورقة :

- لنذهب يا ابتاه ! ارجوك ! ستقتشع الغيوم بعد الظهيرة .

- ولكن امك ان توافق مطلقاً .

- بلى . اعدك بذلك بل اتعهد .

— اذا تمكنت من افناع والدتك فلا مانع لدي

وانطلقت بخفة الفراشة الى غرفة البارونة فهي تنتظر بفارغ صبر متفاقم يوم السفر هذا وهي ، منذ التحاقها بمدرسة « القلب الاقدس » لم تغادر « روان » ابداً . فقد شدد أبوها عليها فلم يسمح لها باي ترويح عن النفس او تزجية لاوقات الفراغ قبل بلوغها سنّاً حددها لها . غير انهم استصحبوها الى باريس مرتين . وما باريس سوى مدينة هي الاخرى . . . وجان لانحل بغير الريف . . الريف الطلق ذي الظلال الحضر الوارفات . . .

والعائلة الآن هم بالذهاب الى املاكهم في « بوبل » لقضاء الصيف ، ولهم ثمة قصر عائلي مرفوع الدعائم فوق رابية صخرية مشرفة على شاطيء « إلبور » وجان تهدد احلاماً عراضاً بحياة طليقة على الشاطيء . المرمل وبين احضان الامواج الصواخب .

وكان من المتفق عليه ان يهدي القصر الى جان فيكون لها منه سكناً إذا ماتت زوجة . كان المطر المنهم منذ مساء امس دون فترة شغلها الشاغل والمعكر لصفوف اوقاتها . ما انقضت دقائق ثلاث حتى كانت تلج غرفة امها وقدملات البيت صراخاً . . ولم يمض طويل وقت عندما خرجت هائفة مستطارة اللب جيوراً :

— ابتاه ! ابتاه ! لقد وافقت امي ! لقد وافقت ! مر باعداد العربة !

ولم يكن دق السماء قد انقطع انهاره بل بدا للناظر وكأنه يتضاعف . وبالرغم من ذلك فقد درجت المركبة امام الباب .

وكانت جان اول من صعد الى المركبة بينما كانت البارونة تهبط السلم يسندها زوجها من ناحية ووصيفة طويلة القامة ، متينة البنيان ، مقتولة العضل كالغلمان ، من ناحية ثانية .

ان هذه الوصيفة فتاة نور مندية من مقاطعة « كو » وقد بسدت في العشرين بالرغم من انها لم تتجاوز الثامنة عشرة .

و (روزالي) هذه اخت جان بالرضاع ولذا فهم يعاملونها في البيت معاملتهم لابنتهم تقريباً ووظيفتها الاساسية قيادة سيدتها التي غدت منذ بضع سنوات على ضخامة هائلة سببها لها مرض القلب الذي طالما شكت منه .

وبلغت البارونة العتبة لاهثة الانفاس ونظرت الى الساحة المغمورة بالمياه وتمتمت :
- حقاً انه شيء غير معقول !

فاجابها زوجها وهو دائم الابتسام : - انك انت التي وافقت على المشروع يا سيده « اديليد » وكان يحلوه ان يسبق اسمها الضخم بكلمة سيده بلهجة احترام يشوبها شيء من هزء .

وسارت تموج باردافها الهائلة حتى بلغت المركبة فاعتلت درجتها فاحدثت صريراً لم تعف منه قطعة في المركبة المسكينة . وصعد البارون فجلس الى قربها بينما اقتعدت الفتاتان جان وروزالي المقعد المقابل .

وحملت الطاهية « لوديفين » كومة الاغطية والمعاطف فنشرت فوق ركبهم ، كما جاءت باكثر من سلتين دفعت بهما بين اقدامهم ثم تسلفت المقعد الامامي فاستوت بالقرب من « الاب سيمون » وتجلبت برداء فضفاض كساها حتى اخصبها . ودنا البواب وزوجته فاغلقا الباب وحيا سادتهما بعد ان اصغيا الى التعليمات الاخيرة حول ارسال الحقائق في عربة نقل . وانطلقت المركبة ...

كان الاب سيمون الحوذني غارقاً في معطفه الواقي محي الظهر تحت شاييب المطر بينما اندفعت المركبة ذات الجوادين تنهب الارض في محازاة الارصفة ثم عبرت بالقرب من المرفأ حيث السفن الكبيرة مرفوعة السواري مشرعة الجبال في السماء القائمة فكانها اغصان شجر عاريت تد في الفضاء ... ثم انعطفت في شارع (ريبودية) الطويل ، وسرعان ما اجتازت المدينة وانطلقت عبر السهول القساح حيث كانت انظارهم تصافح ، بين الفينة والفينة ، اشجار الصفصاف الغارقة السوق في الماء وقد انقصفت منها اغصان طفت فوق سطح الماء الاكد كأنها الحثث الكثيرة

العدد ترسم في تمددها مهيبه خلال ضباب الماء . .
كانت سنايك الحيل تحب خبياً . وعجلات المركبة الاربع تنثر الوحل اللزج
كما تنثر الشمس ذوابات اشعتها الدقيقة المتفرقة في كل اتجاه .
كان الصمت مخيماً على الجميع فكان أذهانهم قد دأغرت هي الاخرى كما
الارض في ذلك اليوم المطير . . .

واستلقت الام الى الخلف واطبقت اجفانها بينما استغرق البارون في تأمل
الطبيعة الحزينة البليدة بعين كثيفة حيرى . اما روزالي فكانت ، وصرتها فوق ركبتيها ،
غارقة هي الاخرى في احلام قافية شأن بنات الشعب . وسيطر على جان شعور
كشعور نبتة حية في ظلال الجدر الجملة وقد اعيدت بغتة الى النور والهواء . الا
ان كثافة سرورها تحت هذا الفيض الدافق من الاحلام العذاب ، كانت تحمي قلبها
فلا تنطرق اليه الكتابة كما تظلل الاوراق الوارفة ماتحتها بظلمة الارزق العريض .
كانت صامته ، تمور في صدرها رغبة ملحة بالغناء ، باخراج يديها من النافذة فتتمتلتا
ماء فتعب منها . . ولشدها استخفها السرور بسرعة الجياد ، ومنظر الطبيعة المقبض ،
واحساسها بانها في منجاة من هذا السيل العارم .

ورنت الى الجوادين وقد لفت نظرها بخار حار يتصاعد من عنقها تحت المطر
المنهمر انهاراً وزحف النوم الى عيني البارونة شيئاً فشيئاً فاسترخى وجهها المحاط
بست غدائر متساوية من شعرها ، المرتكز على تموجات عنقها الضائع في بحر صدرها
الزاهر المتهدل . كانت انفاسها الفاجية تتردد خلال شفتيها نصف المفتوحتين وقد
تهدل خذاها وانتفخا . وانحنى زوجها فوقها ووضع بين راحتيها المتعالبتين فوق
بطنها الهائل محفظة جلدية . وقد فعل ذلك بتؤدة واحتراس . وكانت اللسة كافية
لايقاظها ففتحت جفنيها المكسري الاهداب ونظرت الى المحفظة نظرة شاردة كنظرة

من نفخ عنه لتوه غبار السبات .

وسقطت المحفظة فانفتحت وتناثرت منها قطع ذهبية واوراق نقدية في جوف المركبة . وانطلق كل مرشح ابنتها في عاصفة من الضحك كانت كافية لاعادة وعي الام اليها تماماً .

وانحنى البارون فوق النقود المتناثرة فالتقطها واعادها الى زوجته قائلاً :

- هوذا يا صديقتي كل ماتبقى من ثمن حقل « إلبشو » فقد بعناه لنتمكن من اصلاح املاكنا في « بوبل » كما تعلمين . ففي هذه الاملاك سنقيم ، من الآن فصاعداً ، معظم سنتنا .

وعدت البارونة ستة آلاف واربعمائة فرنكاً وادعتها جيها بهدوء .

انها المزرعة التاسعة التي يعمدون الي بيعها من المزارع الواحدة والثلاثين التي آلت اليهم من آبائهم . ولهم ، فضلاً عن ذلك ، دخل يناهز العشرين ألفاً من الفرنك يدره عليهم رهن املاك لواجيد استغلالها لدورت ثلاثين ألفاً على اقل تقدير .

انهم يعيشون ببساطة ، ولولا طبيبتهم ، هذه الثغرة الفاغرة ابدأ ، لكانوا على يسر عظيم وحسن حال . فكما يتبخر الماء تحت وهج الهاجرة هكذا يذوب المال في ايديهم تحت ارجيحيتهم وكرمهم الذين لاحدود لها .

وكثيراً ماتسمع احدهم يقول : - لست ادري كيف حدث ذلك ! لقد انفقت مائة فرنك دون ان ابتاع شيئاً ذا قيمة .

ان هذه السهولة في العطاء هي ، فوق ذلك ، احدى لذات حياتهم الكبرى . وهم مجمعون على ذلك بشكل رائع مؤثر .

وسألت جان : - اتراه جميلاً قصري الآت ؟

فاجاب البارون مرحاً : ستزين ذلك بنفسك يا فتاة .

وخف نطال المطر شيئاً شيئاً حتى غدا ضباباً خفيفاً من ماء مطاير . وبدت
قبة الغيوم كأنها ترتفع وينصع لونها .. وسرعان ما سطع شعاع عمودي من الشمس
فوق المروج من ثقب غير مرئي .. ولم تلبث زرقة السماء ان بدت من خلال
الغيوم التي انفرجت كأنها نقاب تمزق وانزاح واطلت سماء صافية الاديمة عيقة الزرقة
فوق الكون المبتل . وعبرت بالهواء نفحة لطيفة كأنها تنهدة سعيدة ندت عن صدر
وطرقت آذانهم اغرودة عصفور خرج من ايكنه يحفف ريشه المبتل فوق اغصان
الغابات والحوائل المجاورة الطريق .

وهبط المساء . واستسلم كل من بالعربة للسبات ما خلا جان . وتوقفوا مرتين
في بعض الفنادق تاركين للجوادين فرصة الاستراحة وتناول شيء من العلف والماء .
كانت الشمس قد توارت وراء الآكام الغائرة في الافق البعيد واصوات
اجراس سحيفة تصل الى آذانهم فتشنعها . وتراءت لهم اضواء القرى المتناثرة على
جانبي الطريق كما ازينت القبة الزرقاء بنجوم كعديد النمل . وكانت الراكب يعبر
احياناً بمسكن يمزق ألقها حلك الظلام ... واطل عليهم بغتة ، من وراء الاغصان
المتشابكة ، قر أحمر هائل الحجم ... فأتى اللاحظ كأنه قد هب للتو من رقاد .
كان الجو لطيفاً لم يشعروا معه بحاجتهم الى رفع زجاج النوافذ .

واثقلت الاحلام رأس جان فاستسلمت للنوم وقد اشبع روحها من
الرؤى السعيدة وخدرا حساسها بالآمال المذهبة الحواسي

لم تكن مستقرة . فكثيراً ما تعاود فتح عينها لتغير شيئاً من وضع طالت
استكانتها فيه فازعجها .. فكانت تسرح ناظرها خارجاً متأملة الليل المنير والمزارع
ذات الشجر العاري وطائفة من بقرات جامئة في الحقول ترفع رؤوسها الضخمة وقد
ازعجها عبور المركبة بها في قلب هذا الليل المغمر ..

ثم تعمد الى إراحة أعضائها محاولة استعادة حلم فر من بين جفنها الا ان ضجيج
حركة العجلات الذي يملأ آذانها كان يرهق افكارها فتعاود اغلاق عينها وكان النصب

قد انتقل من جسدها الى عقلها .

ولم يطل بهم الامر حتى توقفوا . وبرز لهم رجال ونساء يحملون المصابيح
ويطولون من ابواب بيوتهم ونوافذها . لقد بلغوا غاية رحلتهم .

واستفاقت جان من تهويمها وقفزت الى الارض خفيفة عجلي . واعان الحوزي
والوصيفة روزالي البارونة فاحتملوهما حتى ترجلت . كانت كل قوة فيها قد استهلكت .
وراحت تردد وهي تنقل بثقال ساقيها الضخمتين : - آه ! يا الهي ! يا اولادي
المساكين !

ولم تشأ ان تطعم شيئاً او تخرج شراباً بل آوت الى فراشها سريعاً واستغرقت
لنوها في سبات بعيد القرار .

وجلس البارون وجان الى المائدة بمفردهما . كانا لا ينفكان يتبادلان الابتسام
كلما التقت منهما الاعين عبر المائدة . وبعد فراغها من الطعام انصرفوا الى تفحص القصر
وما آلت اليه حاله بعد اصلاحه .

ان قصر (بوبل) من تلك المساكن النور مندية العالية السقوف الفسيحة
الحجرات المتعددة الشرفات . وهو يجمع بين صفات القصور وطابع البيوت الريفية
العريقة . وهو مشاد بالحجر الابيض غير ان لونه قد استحال غبرة داكنة . وانه في
اتساعه ليكفي عشيرة كاملة تقيم فيه ... يخترقه بمشى طويل يقسمه قسمين متساويين
وعلى هذا الممشى تفتح ابواب جميع الغرف من التاحيتين . واذا صعدت اليه
فعلى درج مزدوج يلتقي فرعاه في الاعلى مشكلين جسراً مقنطراً .

وتقوم في الطابق الارضي ردهة كبرى مكسوة الارض بالسجاد المزدهان
برسوم اغصان تلعب فوقها ضروب الطير . وقد انتشرت فوق كل قطع الاثاث
طنافس منقوشة نقشاً دقيقاً يمثل (خرافات لافونتين) في جمال وبراعة .

وقفزت جان افراط ما اعتراها من ابتهاج لدى وقوع عينها على مقعد قديم طالما
لمت فوقه وهي بعد طفلة تحبو ... كانت نقوش هذا المقعد العزيز تمثل قصة

« الثعلب والقلق » .

وبجذاء الردهة الكبرى تقوم المكتبة وقد عمرت بالقديم من الاسفار ثم
غرفتان مهجورتان . والى اليسار غرفة المائدة برياضها الحديث . ثم المنتفعات
المتنفة . . .

كان المشى الطويل يقسم هذا الطابق ، كما ذكرنا ، قسمين تطل على جانبيه
الابواب العشرة للغرف العشر . وفي اقصاه تقوم غرفة جان . ودخلها .

كان كل ما فيها جديداً . فقد امر البارون باعادة طلائها ثم استجلب لها رياضاً
كان مخزنأ لم يستعمل قط وقد كسيت ارضها بالسجاد الفلامندي القديم الثمين .
ويدرك المرء فوراً ان هذه الغرفة قد اعدت ليقيم فيها شخص عزيز .

واطلقت الصبية صرخات حبور عندما شاهدت سريرها : كانت زواياه الاربع
مزينة باربعة عصافير من خشب السنديان سوداء لماعة فكانها تقف لنجس السرير
وكذلك كانت جوانبه مزدانة بنقوش تمثل ازهاراً وفواكه مزدوجة . اما لونه
فكان جهماً فقد طال به العهد وهو ، افخامة جرمه ، يرتفع مهيئاً رائعاً كأنه
البناء المشيد !

اما غطاؤه فمن لون الفراش ازرق سماوي يلتصع التمتع افق لاذوردي منور .
وهو من نسيج حريري قديم ذي زرقعة عميقة وقد رصعته نجوم ذهبية كبيرة تبوق
في ارتعاش كارتعاش نجوم القبة الزرقاء ! . .

ورفعت جان انظارها ، بعد ان طال بها تأمل السرير ، الى البسط الكاسية
الجدران . كانت كلها منقوشة برسوم مناظر واشخاص في ثياب غريبة الاشكال برفافة
الالوان . ولفت انظارها ، من بينها ، بساط مثلث فوقه مأساة : فبالقرب من ارنب
يرعى الكلا كان يتمدد شاب وفتاة قد علت وجههما صفرة الموت . اما الفتاة فقد
أعمد في صدرها سيف وعيناها علقان ابدأ بفتاها . وادركت جان مرمى الاسطورة :

انها قصة (بيرام ونهيزي) ، وبالرغم من ان سذاجة التصوير قد حملت الابتسام الى شفتيها ، فقد سرها بالغ السرور ان تعيش في مثل هذا الجو المقعم بهذه الاسطورة الغرامية التي لن تفك تخاطب خيالها . شيرة في احساسات خيمة ، مشيعة ، كل مساء ، جواً اسطورياً لطيفاً عابقاً بالرؤى العذاب . اما بقية الرياش فمن اطرزة مختلفة . . ان كل ما تقع عليه الاعين من تلك القطع التي يتركها السلف للخلف فتيجل هذه المساكن القديمة شبه متاحف عائلية ذات صلة وطيدة بالحياة والاشخاص والاحداث . وتجاوبت في احناء القصر دقائق الساعة الاحدى عشر ، فهم البارون بابنته وقبلها وانسحب الى حجرته فأوت جان الى فراشها وفي صدرها غصه وفي جوانب نفسها تضطرب عواطف عطشى ! وجالت بانظارها في غرفتها للمرة الاخيرة قبل ان تطفىء النور . كانت النافذة اليسرى تفصح لنور القمر فيتسرب الى الغرفة فينير شعاعه الفضفي الحالم الارض بقبض من ألقه الوضاء . . .

ولمحت جان ، عبر النافذة الاخرى ، شجرة باسقة يغمرها النور اللطيف . وانقلبت جان على جنبها وانغضت جفنها محاولة ان تنام . الا انها ما لبثت ان فتحتها من جديد وقد خيل اليها انها ما تزال عرضة لاهتزاز المركبة التي ما انفك صدى ضجيج عجلاتها يدوي في اذنها . ومكثت فترة لا تبدي حراكاً آملّة ان يعجل هذا السكون بالنوم الى عينها . . الا ان فللقها وفراغ صبرها سرعان ما اجتاحا كل كيائها فاستحال النعاس فيهما ارقاً مضنياً .

كانت نحس في ساقها تشنجاً كأنه الحمى الناهشة . ونهضت . وعبرت البقعة المنارة من ارض الغرفة حافية القدمين مكشوفة الذراعين ، وقد بدت ، بقميصها الطويل ، اشبه بالاشباح . وانجبت نحو النافذة ففتحتها وسرحت في الليل المقمر انظاراً انهكها الارق !

كان الليل منوراً حتى لتسهل الرؤية فيه كما في نهار ابلج . . . وراحت جان تستعيد ذكريات هذه المنطقة التي شعفتها حباً في طفولتها الاولى . . .

فهذا هو المرج المترامي الاطراف وقد كسبه يد الربيع رداء اخضر . . .
وهاتان الشجرتان العملاقتان الناشرتان اغصانها نحو القصر . . . واذا ما امتد البصر
حتى طرف المرج وقع على الغابة المسورة بجدر تحميها غائلات العواصف . . . وقد
انتصبت فيها اشجار الدردار العريقة في قدمها ، المتأكدة سوقها ، كأنها خشب سقف
نخر عملت به ربيع البحر انكسالا .

كانت تلك المساحة مرسومة الحدود من يمين ومن يسار بصفين طويلين من
الحور الذي اعتاد النور منديون غرسه لتحديد املاكهم . اما المزارع المجاورة
فلك لآل (كويوار) وآل (مارتان) . . . اما خارج حدود هذه المزارع ، فيمتد
سهل مترامي الجنبات ، اجذب ، وهو منبت للطحلب والاعشاب البرية وبجبال دائم
لاربع تعربد فيه وتصفّر ليل نهار . . . وبلي هذا السهل ساحل صخري مرتفع ابيض
تغمر الامواج قدميه . وسرحت جان ابصارها حتى تلك الامواج البعيدة التي بدت
و كأنها تهوم تحت خفقات النجوم .

أما الارض فقد فاحت منها روائح العطرات بعد ان بلها المطر ولفحتها
الشمس . . . وكانت يasmine تنسلق الجدار فتصل النافذة نافذة في هدوء الليل ريحها
المعطار فيخالط اريجاً آخر يفوح من ازهار اخرى حديثة الميلاد . . .
واستسلمت الفتاة الى هذه النشوة السحرية في جو من هذه الروائح العطرة .
و كأن سكّون الريف وهدوء الطبيعة قد خدرا اعصاب جان وفعلا بها فعل
حمام فاتر . . .

كانت كل الدوبيات التي تسكن في وضع النهار وتنشط خلال الليل في حلقة
الظلام قد شرعت تملأ هذا الظلام المنور حركة وحياة صامتتين . . .
كان كل ما في الطبيعة ساكناً ساجياً ما خلا بعض الصراخير والحشرات التي
راحت تناجي القمر بصفيّر ناعم رتيب كئيب . . .
وخيل الى جان ان صدرها يتفتح وقلوبها يمتلي من هذه الهيئات السحرية كما

يتلي بها هذا الليل الساجي .. فتثور في هذا القلب البكر آلاف الميول العابرة
الشبيهة بهذه الدوبيات الليلة التي خرجت من مكانها تسعى ..
إن شيئاً مجهولاً ، سحرياً جعلها تتحد مع هذه القصيدة الحية : هذا الليل .
وشعرت ، والظلام يغمرها ، برعشات لا بشرية تعبر كيائها فتتحرك اعصابها وتحيي
فيها آمالاً عسيرة المنال ... ما أشبه هذه الانتفاضات بنفحة من نفحات السعادة
الغالية المرتجاة !! ... انها تحلم ... بالحلب ! الحب ! انه ، منذ سنتين يثير فيها قلقاً
كلما جال خياله في خلدها .. اما الان فهي خليفة بالحلب فلم يعد لها من هدف سوى
الظفر بالحبيب المرتجى !

كيف سيكون هذا الحبيب ؟ انها لم تكون لنفسها بعد فكرة واضحة
المعالم عنه . عن هذا الشخص السعري الذي بدأ يغزو منها العقل والخيال والقلب !
انها لا تعرفه ! إلا انها واثقة من انه سيأتي . هو بعينه ! وهذا كل ما في الأمر .
وكل ما تعرفه الآن انها ستعبده ! ستعبده بكل ما فيها من قوى ! وهو ؟ سيحبها هو
الآخر جهد طاقته ! سينتزهان في الامسية الشبيهة بهذا المساء ... تحت الشهب
المتهاوية من بين صفوف النجوم الراحلة ... سينطلقان وايديهما متعانقة ، وقد
التصق احدهما بالآخر فيسمع نبضات قلبه وتنتقل اليه حرارة جسده .. سيمتزج
حبهما بصفاء ليالي الصيف المقمرة الصافية الاديم . سيتحدان بشكل يتيح لهما العبور في
مفاوز حبهما حتى يبلغا اقصى ما فيه من اسرار ومكنونات ..
واستمرت في مثل هذه الرؤى الشيقة وقد احتاج في صدرها وجد مبهم
لا يوصف ولا يحد ...

وشعرت فجأة حبيها الموعود بقربها ، ملتصقاً بها .. وسرعان ما هزتها
ارتعاشة مبهمة فانتفضت من قمة رأسها حتى اخمصها .. وشدت بذراعها فوق
صدرها بجركة لاشعورية كأنها تعتقل حلاًماً يحاول الافلات من بين جفניה .. وعبر
بشقتها الممدودتين نحو المجهول احساس اوشكت معه قواها ان تنحور .. وطبع

نسيم الربيع فوق ثغرها البكر قبة شوق ربا ! ..

وطرق اذنيها بفتة خفق خطى وراء القصر فوق الطريق .

وفكرت ، وقد وثبت بكل قوى روحها الهائلة ، محمولة على اجنحة وجدها المتفان ، المؤمن بالاتفاق والمقدور ، وبتوارد الخواطر الموحى به من عل وبتصرفات الاقدار العجيبة ، فكرت : لو كان هذا حبيبي ! ..

واصاحت السمع ، لاهثة النفس ، الى وقع خطوات العابر الرقيقة .. لا يبد من انه سيتوقف بالقرب من السور ليسأل سكان القصر مأوى وضيافة ..

وما جاز بها حتى غمرتها حسرة حقيقية كأنها فقدت شيئاً كان ملكها تحرص عليه ! وادركت ان هذا الحلم العابر قد يقظ مبوها وحرك كوامن غرائزها .. ورفت فوق ثغرها ابتسامة واثية ! وهذأت من جأشها بعد ان فرحها المفتح الآمال وارخت لحياها العنان في دنيا اقرب الى الواقع وأدنى الى المستطاع .

ستعيش معه في هذا القصر الهادئ المشرف على البحر الازرق الفسيح .. وسترزق طفلين ولا ريب : الصبي له والبنية لها ! وهاهي تراهما يمرحان فوق العشب وبين الحماثل واعين الام والاب المزهوين ترعاهما في حراكهما وسكونهما .. وهاهي تتبادل وزوجها نظرات الوجد والوله من فوق رأسي الصغيرين ! ..

واستمرت ترعى هذا الحلم طويلاً .. طويلاً .. حتى أتم القمر سياحته عبر قبة السماء واوشك ان يستحم في الازرق الزاخر .. وبرد الهواء .. وشحب الافق الشرقي .. وارتفع صياح ديك في الحقل الايمن فاجابته ديكة من الحقل الايسر .. وبدأت النجوم تغور الواحدة تلو الاخرى في كبد السماء الفسيح الآخذ بالنصوع وعلا تغريد عصفور استفاق لتوه في مكان ما .. وما لبث التغريد ان عم مسامع الفجر الوليد .. فكان اول امره ضعيفاً حبيباً ثم راح يقوى ويجرؤ حتى غدا قوياً واضحاً منتشرأ من غصن الى غصن ومن ايكة الى ايكة ...

وادركت جان فجأة ان النور يغمرها فرفعت رأسها من فوق راحتها

واغمضت عينها وقد ازعجها نور الصباح الساطع الواضح !
كانت جبال من غيوم قرمزية قد حجبت صفوف الحور الباسقات وعكست
على السهل ألحاً أحمر كأنه الدم المهرق ..
وبتؤدة بزغت الشمس الرائعة الطلعة فزقت اديم الغيوم وغمرت بنارها
الاشجار والسهول والمحيط وكل الافق ..

واحست جان انها تكاد تحن سعادة .. انها شمستها انه فجرها ! بدء حياتها !
ومدت ذراعها نحو الفراغ المتألق كأنها تسعى إلى عناق الغزالة البازغة ..
وشاءت ان تقول شيئاً .. ان تهف بشيء .. بشيء علوي كأنبلاج هذا الفجر الفتان ..
الا انها لبثت مشلولة القوى ، معطلة التفكير ، مأخوذة بحماستها العاجزة ! ..
وعادت برأسها الواهي الى راحتها وفاضت بدموع حرى مآقها ... ولم تلبث
ان انخرطت في بكاء لذيذ ...

ورفعت رأسها بعد فترة فلمحظت ان اطار الفجر الحلاب قد اضمحل .. وشعرت
في روحها بأشباع .. وبشيء من الانهاك .. فكأن هواء بارداً لفجها .. ودون ان
توصد نافذتها مشت الى سريرها والقت بجسدها المضعف فوقه .. واستمرت تحلم
دقائق قليلة ثم اخذها سبات عميق .. ولم تسمع نداء ابها عندما جاء يوقظها وقد
ازفت الساعة الثامنة ولم تستغث الا عندما ولج غرفتها وهزها مهيباً بها :
ان انمضي ..

كان ينبغي اطلاعها على التجهيلات المحدثه في القصر .. قصرها .
وتأبط ذراعها وسار بها فطوفاً بالبناء الفخم فلم يتركها زاوية الا تفحصها .
ثم راحا يتنزهان في الماشي بين صفوف الحوار . كان العشب قد نبت تحت اقدام
اشجار الحديقة فكسا الارض بساطاً مخضوضر الجنبات . وشى الحواشي .. وقفز
ارنب بغنة من بين الادغال فاجفلت الصبية .. وانطلق يعدو متوثباً حتى اختفى
باتجاه الساحل الصخري ..

وبعد الافطار اعلنت السيدة ادبلاييد انها مآزال منهوكة القوى من رحلة

الامس وستعكف في غرفتها تنشد الراحة . وعرض البارون على ابنته فكرة القيام
بنزهة حتى « لوبور » وسرعان ما اخراجا الفكرة الى حيز التنفيذ فانطلقا فعبرا
دسكرة تدعى « لوتوفان » وكانا يلتقيان بالفلاحين فيحيوهما تحية من يعرف الآخر .
ثم اجتازا طريقاً تنحدر نحو البحر في واد كثير المنعطقات . ولم يلبثا ان اشرفا على
قرية (لوبور)

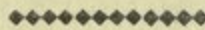
ومرا في الشارع المنحني الجاري في وسطه جدول تكدست على ضفتيه اكوام
من روث المواشي تفوح منها روائح حادة بينما راحت بعض الحماثم تطوف بالقرب
من الجدول باحثه بين الروث عما يمسك عليها رmqها .

كانت جان تتأمل كل ذلك كأنه اطار في مسرح . . .

واطل عليها البحر فجأة ، من وراء احد الجدر ، في زرقته العميقة وصفحته
المنبسطة حتى مدى البصر فاستوقفها هذا المنظر الأخاذ وراحا يتأملان تلك
الاشرعة البيضاء الشبيهة بمواقف الطير وهي تعبر في عرض الم .

ولها ، في احدى فرجات الشاطئ الصخري ، مرفأ صغيراً وبضعة بيوت فوق
رصيفه وقد احتشدت فيه سفن المنطقة فوق منحدر من دقاق الحصى البيضاء وقد
انهك عديد من الصيادين في اعدادها بانتظار المد في المساء المقبل . .

ودنا منها ملاح يعرض سمكاً فابتاعت منه جان واحدة حملتها بنفسها الى القصر
الا انها لم تلبث ان شعرت بتعب ، لكبر السمكة ، فعمدت الى عصي ابيها فانفذتها
في اذني السمكة وامسكت بطرفها وامسك ابوها بالطرف الآخر وانطلقا بحملهما
كأنهما طفلان مرحان ، فصعدا فوق منحني الشاطئ يثرثران بانطلاق الاحداث
وقد اسلما للنسيم الرخي وجهيهما بين راحت السمكة ، وقد اتعبت يديهما ، تكس
العشب والرمل والحصىاء بذيلها الحشن العريض . . .



الفصل الثاني

حياة طلبة مرحلة هي حياة جان. فهي تقرأ وتحلم وتروى ضواحي
انها القصر بمفردها ...

فاذا خرجت فدون وجهة معينة فتسير بخطى وثيدة على طول الطريق ،
وخيالها شارد في مهامه الاحلام ... او تهبط قافزة حفاقي الاودية الملتوية، المتوجة
الجانبيين بتاج ذهبي من ازهار نبات « السمار » النافع عطراً شديداً تثيره الحرارة
فيفوح كأنه نشر خر معطرة ... وكان صخب الامواج المتكسرة فوق صخور
الشاطي يبلغ، من بعد ، اذنها فيهدد خيالها ويطير به في السموات العلى ...

وكثيراً ما كانت تحس استرخاء يسير في اعصابها كأنه الحذر اللذيذ فتلقي
بنفسها فوق اول مرتفع معشوشب تصادفه ... واذا ما وقعت عينها ، من
خلال انفراج الربى ، على مثلث ازرق من ماء اليم ، ادر كما سرور طاغ مفاجي ،
غير متزن ، كأنه الاحساس المهيم بدنو سعادة غامضة لا يدرك لها كنه ...

لشد ما اجتاح كيانها حب الانفراد والوحدة فوق صدر هذه الطبيعة
الكاسية الحالية ...

فكانت تقيم الساعات الطوال جالسة فوق قمة رابية يتوجها النبات والزهر ...
وتغر الارانب قافزة تحت قدمها دون ان تعيرها اي انتباه ...

وكثيراً ما كانت تنطلق تعدو حافية القدمين فوق رمال الشاطي والصهبا تاركة
لهواء البحر البليل مداعبة جسمها ، والتغفل حق اعصابها المتوفزة محرراً فيها
احساساتها النشوى ... لم تكن لتحس تعباً فهي في مرحها العارم كسمكة في الماء

أو سنونو في الهواء !...!

كانت تبذر ذكرياتها هنا وهناك كما يبذر الزارع الحبوب بين الاتلام .. فكان لابد لتلك الذكريات من النمو والازدهار فلا تذبل ولا تجف حتى ينزل الموت بساحة صاحبها .. وكانت يحيل اليها انها تلقى ، في كل فاجية ، فلذة من قلبها وقطعة من روحها ...

ونضت عنها ثيابها والقت بنفسها الى ذراع الماء يحدوها شوق الى الاستسلام لهذا الازرق المائج .. انها قوية وشجاعة .. وهاهي تمضي ساعة متوغلة في عرض البحر حتى تغيب عن اليابسة فهي خالية الذهن من فكرة الخطر .. لشد ما يبهجها هذا الاستسلام للماء المنعش الصافي الزرقة المائز الصفحة الذي يحمل جسدها اللدن العود فيهدهده همدمة ترنج اعطافه الرقاق . وكانت تستلقي على ظهرها ، فوق سرير الموج ، وتصاب ذراعيها فوق صدرها الناهد البليل وتسرح بانظارها في زرقة السماء العميقة يقطعها طيران سنونو سريع او خيال ابيض ماض لاحد طيور الماء .. ثم تنقلب على صدرها ضاربة الماء بذراعيها العبالوين مطلقة صرخات عارمة بفرح موار ..

وكثيراً ما شعروا بخطورة هذه المغامرة الجريئة فكانوا يلحقون بها زورقاً يعود بها الى الشاطئ حيث تتلقى التوبيخ اللطيف ...

وترجع الى القصر ادراجها .. وقد شجبت لونها وشعرت بالجوع .. الا انها رشيقة خفيفة تغتر بالابتسام شفتاها وتضج بالسعادة عيناها ...

اما البارون فكان له من مشاريعه الزراعية شغل شاغل . فهو دائم التفكير بشجيرة آلات جديدة وغرس ضروب من النبات لم يسبقه اليها احد فكان يمضي ساعاته نهاره يباحث الفلاحين ويستأنس بآراء المزارعين فكانوا دائماً يهزون رؤوسهم غير مؤمنين بمشاريعه ولا واثقين بآلاته ... وكثيراً ما كان يرافق بحارة لاهور فيقوم بزيارة الكهوف والينابيع والقمم الدانية او يصطاد معهم السمك كبهار

بسيط . فيسير في الليالي القمراء الى الشاطي . يسحب شباهه الملقاة بالامس . اشدما
كان يغتبط بصوت اصطفاق القلوع واستنشاق هواء الليالي اللين الطري .. ولم كان
ينتشي من الاستلقاء فوق الزورق لدى بزوغ اشعة الشمس الاولى وعيناه معلقتان
بصيده من السمك الملتصع الظهور الزجة تحت الشعاع المبكر ..

وكان اذا ما فرغ من تناول طعامه انطلق يروي بحماسة قصة تلك الزهات ثم
تقاطعه الام لتحديثه عن زهاتها هي الاخرى وعدد المرات التي قطعت فيها بماشي
الحديقة الطويلة تحت ظلال الحور الباسقات .. وكانت شديدة الانهاك بالمشي فقد
اوصوها بالاكتفاء من الحركة ماوسعها ذلك . فما ان يسدل الليل استاره وتنعش
الكون رطوبته حتى تهبط الى الحديقة تستند الى روزالي وقد تلفحت بشالين وتدثرت
بمعطفها وغطت رأسها بقبعة سوداء مطرزة بوشي احمر ، ثم تروح تزرع المشي بخطوها
الوثيد راسمة فوق العشب المعفر خطأ للذهاب وآخر للاياب وكانت قد امرت فوضع
مقعده في طرفي المشي فما تمر خمس دقائق حتى تتوقف وتقول للوصيفة الصبور
التي تسندها : لنستريح قليلاً يا بنيتي

وتعاود البارونة فعلتها هذه بعد الظهيرة ، ثم يدر كها اجهاد فتستلقي فوق
كرسي طويل يأتونها به فتقوم نصف قائمة ..

انها تسمي هذا العمل « تمربي » كما تشير الى حالتها الصحية قائلة : « سميتي ! »
وكثيراً ما كانت تسأل زوجها او جان او روزالي ان يحسوها قلبها فيفعلون
الا انهم لا يشعرون بوجيب هذا القلب المحتبي . تحت اطواق من الثياب وطبقات من
الشحم . وكانت ترفض بشدة وعناد السماح لطبيب جديد يفحصها خشية ان يكتشف
امراضاً لم تكن بالحسبان ..

وهي لا تنفك تتحدث عن « سميتها » كأن السمينة شي خصص بها دون سواها
من الناس !

والف البارون هذا التعبير فكان يقول : « سمينة » زوجتي ! .. كما الفته جان

كذلك فهي تردد « سمنة » امي ! كما يقولان : ثوبها وقبعتها ومظلتها !..

كانت البارونة السيدة اديلايد بارعة الجمال في صباها ، نحيفة هيفاء ، كالقصبه .
وقد اختلطت في عهد الامبراطورية بطبقة الضباط فلم يعدم ذراعان وسيلة لضمها في
حلبات الرقص !

ولعل ما اثر فيها وطبع نفسيته بطابع لا يمحي هي قصة (كورين) التي قرأنا
مراراً وابكتها كثيراً ...

اما روحها فكانت ، خلافاً لجسمها ، على نصيب وافر من الرقة والشاعرية
والمرح ! فهي ، في الوقت الذي تكون فيه مسمرة بكل ثقل جرمها فوق مقعدها
تكون روحها في اجواء مغامرات تخيل اليها انها بطلتها .

وثمة اشخاص خرافية كانت تعتبرها مثلاً لها فهي لا تقتأ تستعيدها في مخيلتها كما
يردد الخاكي قطعة موسيقية بعينها كلما ادير قرصه ...

ولشد ما تميل الى تلك القصص التي تدور حول المآسي واعمال البطولة فتدمع
لذكرها عيناها .

وهي تفضل نوعاً معيناً من الغناء هو غناء « برانجر » لأنه يبعث في نفسها ضرباً
من الاسف على ماضيات الايام !.. وهكذا كانت بمضي الساعات الطوال هامة
فوق كرسيتها ساجدة مع خيالاتها .

كانت تحب قصرهم هذا حباً جماً فهو إطار جذاب لهذه المغامرات المزعومة التي
لا توجد الا في مخيلتها . فهو ، بالغابات المحدقة به ، والاراضي المجدبة القريبة منه ،
والبحر الهادر على مسمع الصوت منه ، يذكرها بما وصف « ولتر سكوت » في
كتاباتهِ التي قرأتها منذ اشهر قليلة العدد .

كانت في الايام المطيرة تعتكف في غرفتها مستغرقة بمراجعة ما تسميه « ذخايرها »
تلك الرسائل القديمة ، رسائل امها وابيها ، رسائل زوجها البارون يوم كانا خطيبين .
وغير ذلك من مختلف الرسائل ..

وهي تحتفظ بها كلها بحرص في درج سري من (الكلجو) مزينة زواياها الاربع
بزخارف نحاسية تمثل اباالمول.

كثيراً ما كانت تخاطب روزالي فائلة : - روزالي . يا بني هات درج
« الذكريات » فتفتح الجارية الخزانة وتحمل الدرج الى سيدتها فتضعه فوق كرسي
قريب منها فتتناول هذه الاخيرة ما ضم من اوراق مصفرة وتفرق في قراءتها رسالة
رسالة بينما تنهمر من مآقيها دموع حارة بين فترة واخرى فتبيل الاوراق ونجري
بمداد الاسطر ...

كثيراً ما كانت جان تقوم بمهمة روزالي فتزده الام وتضعي اليها تروي لها
ذكريات طفولتها . فكانت الصبية تجد في هذه القصص صورة لطفولتها هي فتدهش
لما في الحياتين من شبه في الخلق والتفكير والنزعات والميول . ذلك ان كل قلب
بشري يظن انه اول من عرف مثل هذه العواطف وبلا مثل تلك الخلجات .. التي
ما انفكت قلوب المخلوقات البشرية تنبض بها منذ كانت القلوب .. وستنبض بها
مادام في الدنيا رجل وامرأة حتى انقضاء الدهر ...

فاذا سارتا تتزهران فسيراً بطيئاً منسجماً مع هدوء القصة وبطيء روايتها
والتهنيدات الحري التي لاتنفك تقطع سيقانها اذ تند عن صدر الام الذاوي شابها ..
كانت محيلة حان تقفز واثبة تستبق حوادث قصص امها منذ فمة الى حياتها
العبيدة المشحونة بالامل العذب والارتعاشات السعيدة ..

وبعد ظهر احد الايام كانت الام تستريح فوق مقعدها في الحديقة عندما لمحت
كاهناً ضخماً يظهر فجأة في اقصى الممشى متجهاً نحوها بخطى وثيدة متثاقلة . وحيي
عن بعد ، ثم دنا باسماء وعاود التحية من جديد ووقف على ثلاث خطوات منها وهتف :
- حسناً ياسيدي البارونه . كيف انت ؟

انه كاهن المنطقة .

كانت الام قد نشأت في عصر سادت فيه الفلسفات اللادينية ، وابوها ، وهو

من رجال الثورة ، كان ، واهي الايمان فعمد الى تربيتها بعيدة عن الكنيسة الا انها كانت ، بالرغم من ذلك ، تضر حياً للكهنة مبعثه غريزة نسوية دينية متأصلة .

لشد ما اخجلها انها نسيت الكاهن (بيكو) كل النسيان . وشرعت تعتذر اليه لأنها لم تميز مشيته غير ان الكاهن الطيب لم يبد تأقفاً او انقباضاً . وتأمل جان . ولم يسعه الى الثناء على بها . طلعتها وروثق محاسنها البكر . ثم جلس وخلع قبعته الثلاثية الزوايا والقي بها فوق ركبتيه وراح يحفف عرقاً غديراً نضح به جبينه .

والاب (بيكو) ضغم الجرم ، شديد الاحمرار ، مدرار العرق . فهو لا ينفك ، بين اللحظة والاخرى ، يخرج منديله الكبير ذا المربعات فيجفف به حجاب العرق الناضح به وجهه وعنقه وما ان يعيده الى طيات مسوحه حتى يعود العرق يتفصد من جسمه ثراً غديراً فيتساقط قطرات فوق حزامه العريض محدثاً بقعاً تعلق بها ذرات الغبار المتطايرة من الطريق .

كان ، ككل كهنة الارياك ، مرحاً ، جريئاً ، متساحاً ثثاراً .

واندفع يروي قصصاً ويتحدث عن اهل منطقته حديثاً لاهم سواه .

وجاء البارون .

والبارون ، تبعاً لاعتقاده الخاص ، لا يابه كثيراً لرجال الدين الا انه كان يأنس بهذا الكاهن ويدش له ذلك ان معرفته به قديمة . .

ودعاه لتناول الغداء على مائدتهم .

بما لاريب فيه ان الاب بيكو يعرف كيف يغتصب الاعجاب بفضل تلك الملكة القلب التي تولد في انفه الاشخاص قدرة على السيطرة وكسب اهتمام امثالهم من الناس .

وخاضوا بعد الغداء في حديث عائلي مرح لاثراً لا لكلفة فيه .

وهتف الكاهن بغته كأن فكرة سعيدة قد عبرت خلده :

ان لدي شخصاً قد التحق جديداً بابر شيتي ارى ان اعرفكم به . انه
الفيكونت دي لامار .

وسألته البارونة التي تعرف حق المعرفة كل العائلات النبيلة في المقاطعة :

— أهو من آل « لامار » من منطقة (الاور) ؟

واوما السكاهن مؤكداً : — اجل ياسيدي . وهو ابن الفيكونت جان دي
لامار الذي قضى في السنة الماضية .

ثم راحت السيدة اديلابيد ، التي تحب النبلاء حباً جماً وتهتم بهم اهتماماً خاصاً ،
تلقي على السكاهن سيلاً عريماً من الاسئلة . وعلمت ان الشاب قد اضطر الى بيع
قصرهم العائلي لسداد ديون ابيه ثم جاء يستقر في مزارعه الثلاث في مقاطعة « إينوفان »
فاملاكه هذه تغل له من خمسة الى ستة آلاف فرنك والفيكونت ، وهو الرجل المقتصد
المتزن ، كان قد قرر ان يجيب لمدة سنتين او ثلاث حياة بسيطة في بيت متواضع
كبحا يتاح له وفر يساعده على الظهور بالمظهر اللائق في المجتمع . واذا ماتزوج وجد
لديه مدخراً فلا يضطر الى بيع او رهن عقارات ما .

واضاف السكاهن : — انه فتى محبوب ، ميال الى الترتيب والقص د . وهو
شديد البرم في هذه المنطقة .

وقال البارون : — اصعبه البنا يا ابنتي فقديروح ذلك عنه .

ثم انصرفوا الى الحديث باشياء آخر .

واستأذن السكاهن بعد الغداء بالخروج الى الحديقة فهو معتاد التريض بعد
الطعام ، وسار والبارون يرفقه وراحا يتنزهان بتواخ على موازاة واجهة القصر
البيضاء فاهبين غادين ...

وظلاهما الواحد نحيف والآخر شبه مستدير بقبعة كالقطر ، يسيران معهما تارة
وراءهما واخرى امامهما تبعاً لاتجاههما من القمر ...

وكان الكاهن يحرك بين شفتيه نوع من السكاثر وقد استخرجها من جيبه وشرح
فأثدتها بصراحة اهل الريف :

- انها تساعد على الهضم وانا ثقيل المعدة دائماً .

- والتفت الى القمر السابح في عليائه وقال مشيراً اليه :

- ان المرء لا يمل مثل هذا المنظر الخلاب ابداً .

ثم قفلا واجعين الى الردهة ليستأذن الكاهن السيدتين بالانصراف .



الفصل الثالث

ذهبت البارونة وجان يوم الأحد التالى الى الكنيسة تحدهما عاطفة المحاملة
للكاهن وانتظرتاه بعد الصلاة لدعوته الى تناول الغداء عندهم يوم الخميس المقبل .
وبعد فترة قصيرة خرج من الميكل وبصحبه شاب فارغ القامة انيق المظهر
كان يتأبط ذراع الكاهن دون كلفة . وما وقعت عيننا الكاهن على المرأتين حتى اشار
بيده اشارة فرح ومباغنة وصاح :

- كيف حدث هذا ؟ يا للاتفاق العجيب ! اسمعوا لي ياسيديتي البارونة
ويا آنسة جان ان اقدم لكما جاركا الجديد السيد الفيكونت دي لامار .
وانحنى الفيكونت معربا عن رغبته القديمة بالتعرف بهم ولم يلبث ان انطلق
بحدثها حديث رجل من طبقة اجتماعية عالية المستوى .

كان وجهه من تلك الوجوه الناضجة منها السعادة ، التي طالما شغفت النساء
واثارت كوامن غيرة الرجال . وشعره الاسود الاجعد يظلل جبينه الاسمر الصقيل
اما حاجباه الطويلان المستقيمان فيبدو ان اصطناعيين .. وقد ظللا عينيه فاكسباهما
عمقاً وحنواً وعلى ما بهما من عمق وحنو في لونهما القاتم وبياضهما المائل الى الزرقة ذات
الاهداب الطويلة الغذيرة التي تتم على مبول صريحة بالغة الاثر في نفوس النساء ..
إذ أنها سرعان ماتدير منهن الرؤوس سواء منهن المتعاليات والساذجات ..
ان سحر عينيه لبوحي الى الناظر بعمق تفكيره وتضفي اهمية خاصة على اتفه
ما يتلفظ به من كلمات .

اما لحيتة الكثنة اللامعة السوداء فتخفي حنكه الموحى بقوة الارادة والعناد.
واقترقا بعد فيض من مجاملات تبادلوها كما يتبادل العدو اطلاق النار . . .
وما انقضى يومان حتى كان السيد دي لامار يقوم بزيارته الاولى لهم .
ووجدهم في الحديقة وقد نشب خلاف بين البارون والبارونة حول وضع
مقعد او مقعدين تحت نافذة الردهة .

ثم جلسوا فدار حديثهم حول المقاطعة فاعرب الضيف عن شدة اعجابه بها
وبما فيها من اما كن رائعة في جمالها خلافة في حسنها . وكانت عيناه تلتقيان ، الفينة
بعد الاخرى ، بعيني جان فكان هذا يحدث بمحض الاتماق . . . اما جان فكان
شعور فريد يعبر باحساسها اذ تتعرض لهذه النظرة الحاطفة فتحول انظارها سريعا . . .
كان في نظرتها معاني الاعجاب الصريح والاستلطاف الواضح . .

واكتشفوا ، اثناء الحديث ، ان السيد دي لامار الاب المتوفي في العام المنصرم
كان يعرف احد اصدقاء السيد كوستو ، والسيد كوستو هذا هو والد البارونة .
وقد مهد هذا الاكتشاف السبيل لحديث ودي للغاية ونش توارينغ ووقائع وقرابات
لا يدرك لها آخر . وراحت البارونة تجهد ذاكرتها لتتبع سلسلة الاسلاف والاخلاف
مطوقة ، دون ان تحيد في مفاوز علم الانساب الكثير التعاريج . . .

— قل ايها الفيكونت . اما سمعتم يتحدثون عن آل (سونوا دي فارفلور) ؟
ان ابنهم البكر قد تزوج من آنسة ابنة آل (كورسيل) والابن الثاني تزوج من
ابنة عم لي قدعى الآنسة «دي لاروش اويير» وهي قريبة آل «كريزانج»
والسيد «دي كريزانج» صديق حميم لأبيك واني .

— اجل يا سيدتي . أليس هو ، هذا السيد دي كريزانج ، من هاجر وجمع
ثروة ثم جر عليه ابنه الدمار وقاده الى الاملاق ؟ . . .

— إنه هو بعينه . لقد طلب يد عمتي بعد وفاة زوجها الكونت «دي ريثري»
الا انها رفضته لانه كان يدمن استنشاق «السعوط» ! . او تعرف ، بهذه المناسبة ،

ماذا حل بآل « فيلوا »؟ لقد هجروا « تورين » سنة ١٨١٣ بعد ان خسروا ثروتهم واستقروا في مقاطعة « اوفيري » ولم اسمع عنهم بعد ذلك شيئاً .
 — اعتقد باسيدي ان المراكز الكبير قد قضى متأثراً بسقوطه من على جواده
 تاركاً فتاة متزوجة من سيد انكليزي وأخرى مقترنة بتاجر غني يدعى السيد
 « بارسول » ويقال انه اغواها قبل ان يعقد له عليها ...
 واستمر فترة طويلة يستعبدان مثل هذه الاسماء التي حفظها منذ طفولتها .
 فقد كان لزوج افراد مثل هذه العائلات اهمية ينظرهم تعادل اهمية الاحداث العمومية
 الكبرى . كانوا يتحدثان عن اناس لم يعرفهم ابداً كما لو كانوا لها اصدقاء ...
 وشعرا بتقارب فكانها اصبحا صديقين حميمين قريباً ... لمجرد كونها ينتميان
 الى طبقة اجتماعية واحدة ولان دما متعادلا يجري في عروقها ...
 اما البارون فكان ، تبعاً لطبيعته الاجتماعية ، يجهل كل شيء عن اسر
 المقاطعة فيسأل الفيكونت مستوضحاً بعض النقاط التي بود جلاها ...
 واستخلص السيد دي لامار : — أه . ليس في المقاطعة كثير من الاسر
 النبيلة .

فالها بنفس اللهجة التي يقال بها : — ان الارانب قليلة العدد بالقرب من الشاطيء !
 ثم راح يعطي التفاصيل والابضاحات معدداً الاسر النبيلة المجاورة للمنطقة ثم اشار
 الى ان بعض محدثي النعمة قد تسربوا الى المنطقة وابتاعوا ملاكاً هنا وملاكاً هناك
 ولديه عنهم المعلومات العذيرة .

واستأذن في الذهاب . وكانت نظراته الاخيرة لجان فكانه يخلصها بوداع
 لا يشار كها به احد وداع اشد حرارة واغوى عاطفة !
 وعلقت البارونة بعد ذهابه : انه فتى محبوب .
 فاجاب البارون : — بكل تأكيد . انه فتى كما يجب . حسن التربية مهذب .
 ودعوه الى الغداء في الاسبوع التالي . ثم بدأ يزورهم في اوقات معينة .

كان يأتي ، اغلب الاحايين ، في الساعة الرابعة فيلحق بالام في «نزهتها» فيقدم لها ذراعه كي تقوم «بتمريرها» واذا كانت جان حاضرة اسندت امها من الناحية الثانية ويسير الثلاثة بخطى وثيدة من طرف الممشى الى طرفه ثم يعودون الى مثل ذلك مراراً وتكراراً .

وكثيراً ما التقت عيناها السوداء وان المحملتان بعني جان العقيقيتي الزرقاء .

وقصد (لاور) مراراً برفقة البارون .

وذات مساء جاءهم الاب (لستيك) وكانوا فوق (البلاج) يتمشون وقال دون ان يرفع من بين شذقيه غليونه الذي يلزم وجهه كملازمه انقه له :

— نستطيع ، في مثل هذه الرياح ، ان نذهب غداً الى (اتويتا) ونعود دون عناء .

وضمت جان راحتها بضراعة وقالت : — آه .. يا ابنتي ! الا تريد ؟! ..

واستدار البارون نحو السيد دي لامار وقال :

— اتوافق ايها الفيكونت ؟ نذهب ونتغدى هناك ؟

وسرعان ماتم قرارهم على ذلك .

واستفاقت جان مع انبلاج الفجر واقامت تنتظر اباه وقد خيل اليها انه اطلال بارتداه ثيابه ...

ومشيا في ندى الفجر فاجتازا السهل ثم توغلا في الغابة المهترئة الاعطاف باناشيد آلاف الطيور .

ووجدا الفيكونت والاب لستيك جالسين بانتظارهما فوق آلة جر الاتقال . وكان ثمة رجلان ساعدا البحار على الافلاع . فدفعوا الزورق باكتافهم من المسطح الرملي فسمع له صوت كأنه تمزيق اشعة سمكة .. واستقرا اخيراً فوق زبد الامواج واتخذ كل مجلسه فيه بينما بقي البحاران الآخران على اليابسة .

كان نسيم رخوي متواصل الهبوب يأتي من عرض البحر فيجهد سطح الماء

فاتنفخ به الشراع قليلاً وانذاق الزورق فوق سطح الماء وثبداً متهادياً ...

كانت السماء تنخفض عند الاقتراف فتزج زرقنها بزرقه المحيط والشاطئ الصخري يرسم فوق سطح الماء الصقيل ظلاً عريضاً متباجاً تبعاً لتجمعات اللجة الصافية .. والمنحنيات المعشوشبة فيه تبقع هذا الظل هنا وهناك ببقع خضراء قائمة ... وكانت اشعة سمراء لا تفتأ تخرج من ورائهم من مرفأ « فيكامب » .. وامامهم كانت ترتفع صخور ناصعة اللون غريبة الاشكال ذات فجوات عراض يتسرب منها نور النهار . وهي تشبه الى حد ما فيلا هائل الحجم يغمر الماء خرطوم الطويل .. انه مرفأ « اترينا » الصغير .

اما جان فقد استعوذت على مشاعرها هدهدة النسيم وارحجة الامواج وكانت متشبثة بجانب الزورق شاردة بانظارها الى حيث ينتهي بها البصر .. وفكرت ان اشياء ثلاثة في الكون حرة ان توسم بالجمال : النور الابليج والفضاء الازرق الفسبح والماء الصافي الرجراج .

وهينم الصمت على الجميع . كان الاب لسنيك يدير الدفة ومن حين لآخر يخرج من تحت مقعده زجاجة يجرع منها جرعات ثم ينصرف الى عب الدخان من غليون اسود له ثم ينفث من فيه ضبابه زرقاء من دخان ثم يرفع الغليون من بين شففيه ويبصق من زاوية فمه مع الدخان سيلاً من لعابه الاسود ، الى البحر ...

اما البارون فقد جلس في المقدمة وراح يتأمل الاشعة الخافقة تحت هبات النسيم . وجلست جان والفيكونت الواحد بجانب الآخر وبها شيء من اضطراب . ان قوة مجهولة كانت تحدوهما الى رفع اعينها الفينة بعد الفينة فتلتقي انظارهما كأن ثمة هاتفاً غير منظور يدفعهما الى هذا العمل في اللحظة الواحدة . لقد ولد بينهما هذا التعاطف الحار الذي لا يلبث ان يظهر بين شابين اذا كان الفتى غير قبيح والفتاة جميلة ... انها سعيدان هكذا ! ولعل هذا يعود الى ان احدهما يفكر بالآخر ولا يفكر بسواه !

وارتفعت الشمس كأنها تصبو الى تأمل البحر المنبسط تحتها وهي في عليائها
ساجدة .. وكأن البحر شاء ان يمعن في الصد والدلال فتعجب بنقاب خفيف من
ضباب حال دون نفاذ اشعتها اليه .. انه ضباب خفيض شاف ذهبي لا يكاد يحجب
شيئاً ولكنه يضغي على الابعاد روتةً وبها ... وكأن هذا الحجاب الفاتن لم يرق
للشمس فرشقته بسيل من لهيبها فما لبث ان تبخر واضمحل وغدا البحر صقيلاً كالمراة
تلتمع تحت دفق النور الساطع !

وهز هذا المنظر الخلاب جان حتى اعماق مشاعرها فهتفت :
— حقاً انه لسحر حلال !

فاجابها الشاب : بل اروع من السحر واسنى !
لقد ايقظ صفاء هذه الصبيحية الندية في قلب الشابين فيضاً من الاحاسيس ذات
الصدى المتجاوب .

ولم يطل بهم الامر حتى شاهدوا اعمدة (اتريتا) وكأنها ساقا الشاطي الصخري
نخوضان عباب اليم . ورسوا بقرب الشاطي .

وكان البارون اول من وطىء اليابسة . وبينما كان يجذب جبلا ليدنو بالزورق
من الشاطي . حمل الفيكونت جان بين ذراعيه ووثب بها الى الارض كيلا تبتل
بالماء قدماها ... ثم انطلقوا يصعدون في المرتفع الصخري سائرين جنباً الى جنب .
وحرك نخاس جسمها الوف الرغبات والبدوات فيها ..

وطرق اسماعهم صوت الاب لستيك فجأة وهو يخاطب البارون قائلاً ؟ !

— الا ترى انها يشكلا « زوجاً » جميلاً على اي حال ؟ !

وتناولوا فطوراً شهيماً في فندق صغير قائم فوق رمال الشاطي . وقد اعادت
المائدة الدسمة اليهم شوقهم الى الثروة بعد ان كان المحيط قد أستغرق كل مشاعرهم
فلزموا الصمت وهم محمولون على متن امواجه ... واندفعوا يلغطون كأنهم التلاميذ

اطلق سراهم من المدرسة .. فان اتفه الاشياء لتوحي الهم بمرح بعيد المدى
مقهقه الضحكات ...

وكانت حركات الالب استيك من اشد واعي ضحكهم ومرحهم فهو تارة يخفي
غليونه في قبعته وطوراً يعلنها حرباً لا هوادة فيها على ذبابة عنيدة مانفكت تحاول
ان تحط فوق انفه الضخم وقد جذبتها اليه حرته فخالته قطعة حلوى ...

لقد ضحكوا كثيراً .. ملء اشداهم وملء قلوبهم !

وقالت جان بعد تناول التهوية : - لو خرجنا نترى قليلاً ...

ونفض الفيكونت مظهر استعداده . اما البارون ففضل اخذ حمام شمس فوق
ارض الشاطيء الحصباء وقال : - اذهب يا ولدي على بركة الله وستجداني هنا
بعد ساعة ...

واجتاز بعض اكواخ القرية سائرين لطينتها . وبعد ان عبرا بقصر صغير اسبه
بالمزارع وجدا نفسيهما في واد مكشوف يمتد امامهما طويلاً متعرجاً اشجر الجانبين .
كانت ارجعة البحر قد اثرت في اعصابها فافقدتها اثرانها العادي كما فعل فيهما
الهواء الملح فاشعرهما بالجوع ثم كانت المائدة الشهية فادارت منها الرأس كما استخف
المرح والضحك اعصابها وارهقها .. وانها الآن ليشعران بشيء من الخفة والنزق
فيودان لو ير كضمان مندفعين في الحقول حتى يخفيا عن البصر ... وشعرت جان
باذنها تطنان وقد تبلورت فيها احساسات جديدة وامضة لم يكن لها بها
عهد من قبل ...

كانت الشمس تصلحها بفيض من اشعتها الشديدة الوطأة .. وعلى حوافي الطريق
تكدمت كور المحاصيل الناضجة وقد اثقلتها الحرارة فاحنت منها الرؤوس المثمرة .
والجناد بينها تبالغ في طينتها وهي كالرمل عدآ .. ففر من امام خطواتهم متواثبة

مندفعة في كل اتجاه بين حقول القمح والشعير والنبات البحري القريب مائلة الجو
بصغيرها الضئيل الحاد المصم للأذان ...

ولم يكن يسمع ، عدا طنين الحشرات ، نأمة أخرى تحت السماء المشتعلة فيها
الشمس المتكبدة قهتها الزرقاء المائلة الى الاصفرار كما لو كانت توشك ان تصطبغ
بلون قان شأن المعدن الداني من حجر متقد الجدوة ...

ولمحا ؛ الى يمينها ، غابة صغيرة على بعد قليل فانطلقا اليها ..

وسارا في مفازة ضيقة تحترق الغابة وتفضي الى ظلال اشجار هرمة تحجب عنها
اشعة الشمس .

واحست جان برطوبة لطيفة تغمرها فتدغدغ بشرتها وتنفذ حتى رئيتها . وكانت
الارض عارية من كل نبت لانعدام نور الشمس والهواء الطلق ماخلا طحلياً كثيفاً
كان يغطي بقعاً هنا وبقعاً هناك

وقالت جان : - نستطيع اخذ قسط من راحة هناك !

واشارت الى مكان تقوم فيه شجرتان ضخمتان وارفتا الظلال الا انهما تنفر جان
قليلا تاركين لنور الشمس طريقه الى الارض فيجيب فيهما مرات النبات الذي ابنىغ وازدهر
وابتسمت فيه اكمام بيض رقيقة الاهداب كأنها غلائل من ضباب ، وقد هومت فوقه
حشرات تطن من نخل وفراش وغيرها من الدويبات الملونة الاجنحة بالفلون بهيج .
وجلسا ورأساهما في الظل واقدامهما تحت وهج الشمس .. وتأملا بعجب كل
هذه الدنيا الصغيرة الناشطة ومردها شعاع من الشمس !

ورددت جان وقد اخذت بالمنظر الفريد : - بالجمال ! بالروعة الريف ! كم
اود لو اكون نخلة او فراشة تختفي في كأس زهرة معطار ...

وانتقلا الى الحديث عن شخصيهما : وصفا عاداتهما واذواقهما بلهجة هادئة حميمة
كما تسر النفس الى حديثها ماذق من اسرارها الخاصة . وخلاصة رأييهما ان القرف

من المجتمع قد ادر كمها وعملت الحياة المتكلفة الملوثة بها ارهاقاً . تلك الحياة الرتيبة
السائرة على وتيرة واحدة من النفاق والدعوى فلا يجد المرء فيها بدوة مخلصه او
اشارة صادقة .

المجتمع ! انها ، في الواقع لم تجربها ! الا انها واثقة من انه لن يجاري الريف
جمالاً وصفاء ...

وبمقدار ما كانت نفسهما تتدانيان بقدر ما تشبها باستعمال الصيغة الرسمية في
تخاطبها : سيدي ! آنستي !..

وكما التقت انظارهما تبادلا الابتسام فاحسا بروحهما متترجان من خلال الاعين !
حتى خيل اليهما ان روحاً جديدة اشد وضاء وحسناً قد تسربت الى صدرها فولدت
فيها شعوراً نحو اشياء لم يكونا ، قبل ذلك ، ليا بهان بها او يعيرانها اهتماماً . .

وقفلا راجعين . ولم يجد البارون حيث تواعدوا . وعلم انه ذهب ماشياً الى
(قاعة الانسات) وهي كهف طبيعي بالغ الروعة معلق فوق احدى قمم
صخور الشاطي .

ومكثا ينتظرانه في الفندق . الا انه لم يعد حتى الخامسة مساءً بعد جولة واسعة
على الشاطي .

وركبوا الزورق وسار بهم سيراً رخيماً . وكانت الريح تهب باتجاه سيره فتدفعه
بسلطف فلا يهتز ولا يضطرب حتى ليخيل للركب انه جامد في مكانه لا يتقدم . ثم
كانت الريح تتراخى فتترك الشراع يسقط ، بعد انتفاخه بها ، متهاكاً على طول
السارية . . وبدا اليم القاتم اللون خامداً لانفاس ، والشمس ، وقد افرغت على الارض
كل حيويتهما ، اخذت تنحدر في سيرها المنحني نحو الافق وبئدة متناقلة ...

واخذ الجميع بروعة الطبيعة في ساعة الاصيل تلك فخيّم عليهم صمت لا يعكروه معكرو . .
وتكلمت جان اخيراً : - كم اتوق الى السفر !

فاجاب الفيكونت : - لا بأس . الا انه ابن دواحي المال والفجر ان يسافر
المرء منفرداً والرفيق في الرحيل ضروري للمرء كيما يبادل له اراءه وانطباعاته ..
وفكرت : - بالصواب نطقت .. وبالرغم من ذلك .. فانا احب ان
اسافر منفردة .. فما اروع ان يحلم الانسان وحده ! ..

ورنا اليها طويلاً وقال : - ويستطيع كذلك اثنان ان يحلما سوية !
وغضت من ناظرها : اتراه يقصد معنى خاصاً رمز اليه ؟ ربما ...
وعادت تجول بعينها في الافق البعيد كأنها تبحث عن اكتشاف مادي فيه وسحق .
وعادت تقول بصوت متهدج : - كم اود لو اذهب الى ايطاليا ... الى اليونان ..
آه . اجل الى اليونان ! والى كورسيكا ! . فلا بد ان تكون هذه البلدان على قسط
من الجمال والفطنة يفوق كل تصور ..

اما هو فاعرب عن تفضيله لسويسرا ببحيراتها الساكنة وشلالاتها الصاخبة ...
اما جان فاصرت : - كلا .. كلا .. افضل بلاداً عذراء ككورسيكا .. او
عريقة مفعمة بالذكريات كالليونان . انه لمن اجل الاشياء ان يجد المرء نفسه وجهاً لوجه
امام تلك الآثار التي تركتها عبقرية اقوام درسنا تاريخهم منذ نعومة اظفارنا .. ان
يشاهد الامكنة التي رتموا بين ظهرائنها والاشياء العظيمة التي خلفوها ...
وتكلم البارون بحماسة اقل : - اما انا فافضل ان نكترا لانها وسط ثقافي
لا يضاهي ...

ثم انطلقوا يطوفون في آفاق العالم وهم لا يبرحون مقاعدهم ... ناقشوا كل
ما في الاصقاع النائية من متع للعقل والقلب .. من القطب حتى خط الاستواء مرددين
ما علموه عن عادات غريبة وتقاليد اسطورية لبعض الشعوب المجهولة كالصينيين
واليابانيين ... وانتهوا الى القول ان اجل ظن وفي العالم هو وطنهم فرانس باقليمها

المعتدل ، الرطب صيفاً واللطيف شتاء ، يريفها الغني وغاباتها الخضراء ، بانهارها اللثة
الهادئة الجريان ، بفنونها الجميلة التي لم تنبثها ارض قط منذ عصر ائبنا المجيد ...

وعاد الصمت فخيم عليهم بعد ذلك .. وبدت الشمس الدانية من الماء كأنها
تشخب دماً ... كانت تسحب وراءها ذيلًا من نورقان يمتد فوق صفحة المحيط لا معاً
رجراجاً حتى يلامس زورقهم المنزلق فوق الصفحة البنفسجية اللون ...

وسكنت آخر هبة من ربيع .. فغدت تجعدات سطح الماء صفحة صقيلة لامعة .
وطفى على الشراع الساكن لون كأنه الارجوان الزاهي . وخيمت سكينه عميقة
على الكون بأسره ... وبدأ البحر كأنه العاشق العملاق يقيم صابراً بانتظار معشوقته
النارية التي لم تلبث ان انحدرت الى لقائه وقد احمر وجهها وجداً وحياءً لدنو ساعة
العناق ... وغلفها شفق احمر عريض وتم بينها الوصال ! .. الا انه ، وهو العاشق
الاناني ، لم يلبث ان افترسها وغيبها في العالم المجهول ...

وهبت نفحة منعشة من الافق الغربي كأنها تنهدات المعشوقة تطلقها على الكون
دلالة على الرضى والارتياح ! ... ولم يطل الامر بالشفق . فسرعان ما رضى الليل
سدوله راعش الصدر بالنجوم الخوافق ... وتناول الاب لستيك المجذافين وضرب
بهما سطح الماء الذي كان في تلك الساعة يلتصق كأنه من فسفور .

كانت جان والفيكونت جالسين الواحد بقرب الاخر وقد أخذتا ينظران الانوار
المتلعة لا يلبث الزورق ان يخلفها وراءه . ولم يكونا في تلك الساعة مستغرقين
باحلامها المجنحة كمعادتها بل راحا يتذوقان بلذة جمال ذلك المساء المنعش .. والقت
جان براحتها فوق حافة الزورق وشعرت باصبع جارها تزحف حتى تمس ظاهر كفا
حدث ذلك كأنه مجرد الصدفة .. لم تبد حراكاً .. فقد وفرت لها هذه اللمة
المباغتة سعادة عميقة واختلاجاً لذيقاً ...

ولما اوت ذلك المساء الى فراشها شعرت باضطراب غريب يمر به صدرها ..
هي نائرة الاعصاب

الدعوة يخرجها ادنى شيء عن طورها ...

هي تآثره الاعصاب حاضرة الدمة يخرجها ادنى شيء عن طورها ...
ونظرت الى ساعتها .. انها تدق كما يدق قلب عاشق .. وتأمّلت هذه الساعة
مفكرة : ستكون شاهداً في اتراحها وافراحها .. ورفعتم الى شفيتها وطبعت فوقها
قبلة حانية .. انها لعل استعداد لتقبيل اي شيء تجده في طريقها !
وعادت تفكر : اتراه الزوج المقدري بكتاب مكنون ؟ اي قدر خير قد
التى به في طريقها ؟ اتراه الكائن الذي ابراه الله خصيصاً من اجلها ؟ أهو الانسان
الذي ينبغي لها ان تكسر له وجودها ؟ اتراها المخلوقين المقدر لهما ان يتحددا منذ
الازل ويمتزجا الى الابد ؟ .. والحب ؟ سيصيرهما في بوتقته ويجعلهما شخصاً واحداً ،
روحاً واحداً وجسداً واحداً ؟ ولم تكن تلك الرعشات العنيفة قد عرفت طريقها الى
اعصابها حتى تلك الساعة .. الوجد والوله والهيام ؟ كلمات جمعت بها الا انها لم تبلاها
قبل الآن قط !

لقد خيل اليها انها شرعت تحبه .. فهي تشعر ، اذ يراود طيفه احلامها ،
باستسلام واسترخاء ! ... ولشد ما كانت تحلم به ! اما لقاءه فكان يزينها بقلبها هزاً ..
فما ان تجد نفسها تحت وهج عينيه العميقتين حتى يعتورها احمرار يتلوه شعوب ..
وما يطرق صوته اذنيها حتى تسري في جوارحها رعدة تهدهد اعصابها برفق
ولين ودغدة ...

لم تذق طعم الكرى ليلتها تلك الا غراراً ..
ان رغبته العارمة في ان تحبه تتفاقم يوماً بعد يوم . وكثيراً ما لجأت الى سبر
اغوار نفسها واستكناه خوالج فؤادها .. وكانت تعمد الى الازهار تستشيرها ، او
الى الغيوم تسائلها او الى قطع النقد تلقي بها في الفضاء ...

وقال لها ابوها ذات مساء : - تجلي في غد اذا اصبح جهد طاقتك .

وسألته : - ولماذا يا ابتاه ؟

فاجابها : - هذا سر لن اطلعك عليه الآن !

وعندما نزلت في الصباح ربا مفاة الاعطاف في هندام خلاص رأيت المائدة
مقلقة بعلب الحلوى وفوق احد المقاعد اضمامة زهر ضخمة رفاة .

ولم يطل بها الامر حتى لمحت عربة تدخل الباحة مثقلة بالطعمة والفاكهة والأفاويه .
وظهر الفيكونت دي لامار . كان يرفل في فاخر الثياب وقد بالغ في تأنقه
حتى بدا كالرجال ذوي السمات والشارة . كانت طلعتة رائعة وجمالها ابدع مما اعتادت
ان ترى . ومرد هذا الاختلاف تغيير الهندام وهذه ظاهرة نلحظها في اكثر الناس
دنوا منا . وشرعت جان نحدق به دهشة كأنها لم تره قبل ذلك قط . والفقة رائعا
في حياء الرقيق الفياض الحليوية . انه سيد من قمة رأسه حتى اخصيه !

وانحنى باسماء وقال : حسنا أنت متأهبة يا (اشبيني) ؟

وتتمت مستغربة كل ما يدور حولها : — ولكن ماذا هناك ؟ اي شي سيحدث ؟
ورد ابوها موضعا : — ستعلمين توأكل كل شي .

ونزلت مدام اديلايد في هندام فخيم هي الاخرى ، تستدهاروز الي التي ابدت
اعجابها بهندام السيد دي لامار . ونحركات بهم مركبة مشدودة الجياد ...
وقال الاب مازحاً : — قل ايها الفيكونت . يبدوان وصيفتنا قد اعجبت
بك ووجدتك موافقا لذوقها ! ..

واضرج الفيكونت حتى اذنيه الا انه تظاهر بعدم الاصغاء وتناول اضمامة الزهر
الكبيرة وقدمها لجان فتناولتها وقد استبدت بها الدهشة . وقبل ان تسير المركبة
حملت الطاعية (لوديفين) الى سيدتها حساء بارداً تستعين به على الجوع وقالت :

— لقد خيل الي ياسيدي ، في الواقع ، ان نمة عرساً ! ..

وهبطوا بانجماء (إبور) .. وكانوا كلما تقدموا في شوارع القرية يخرج البعازة
في ثيابهم القشبية يحبونهم من على عتبات بيوتهم ثم يسرون ائزهم كما لو كانوا في
حفل ديني .

وسار الفيكوات في الطليعة يتأبط ذراع جان التي لم تدر بما يدور حولها شيئاً .
وبلغوا الكنيسة فتوقفوا . وظهر الصليب الكبير يحمله الطفل خادم الاحتفال
ووراءه طفل آخر يحمل وعاء الماء المقدس غمست فيه مرشته . وتلا هؤلاء المنشدون
ثلاثة ادهم يطلع في مشيته . وظهر الكاهن اخيراً والشعار الذهبي يتأرجح فوق كرسه
المنكور . . . وحيى بابتسامة انبعاثها باحناء رأسه . . ثم سار يحف به واركان حربه !
. طبق الجنين نصف اطباقاً متجهياً نحو الشاطي . متممة شفتاه بصلاة مبهمه الكلمات .
وعلى الشاطي . وقف جمهور غفير ينتظر وقد احرق بسفينة جديدة زانتها
الكابل ضخمة من ضروب الزهر وصفوف الاوراد وقد خفت فوق ساريتيها وحبالها
واشرعتها الاشرطة الملونة تتلاعب بها هبات النسيم . . وبدأ اسمها باحرف مذهبة
تلتصع في مؤخرتها تحت وهج الشمس وتتألق بها . وسنى . وقرأ الناس : « جان » .
كان الاب لستيك ، قائد هذه السفينة التي بنيت على نفقة البارون يسير في
الطليعة . ورفع جميع الرجال قبعاتهم بحركة واحدة . وتقدم الكاهن بواكبه خادما
القداس فصعد الى ظهر السفينة وتبعه المنشدون فوقفوا في الجانب المقابل . وبدأ
الاحتفال وعلا الانشاد .

كان البحر في سبجوه كأنه يشهد هو الآخر الاحتفال بتعميد ابنته الجديدة
ساكناً الاحركة خفيفة عند ملامسته حصى الشاطي . حيث تسد عنه ضجة مخنوقة
مخشجة . . . وكانت الطيور ذوات الاجنحة البيضاء تعبر الجو راسمة فوق زرقة
السماء دوائر ومنحنيات ثم تبعد لتعود من جديد فتخلق فوق رؤوس الجماهير
كأنها تشهد هي الاخرى الاحتفال الفخم . . .

وانقطع الترتيل بعد (آمين) استمروا يذبحون بها خمس دقائق . . وبصوت
دخو النبرات تشدق الكاهن ببضع كلمات لاتينية لم يفهم منها السامعون شيئاً ولم يعوا
سوى نهايتها الزنانة . . ثم طاف مع حاشيته ارجاء السفينة ورش فوقها الماء المقدس .
وبلغ « الاشبين والاشبينة » فتوقف امامها وهما جامدان ويد الواحد بيد الآخر . . .

كان الشاب محافظاً على هدوء وجهه الجميل .. اما الفتاة فقد عصف بها اضطراب
كاد يخمد انفاسها .. وراحت ترتجف حتى اصطكت اسنانها بصوت مسموع ...
ان الحلم الذي طالما راود مخيلتها في يقظتها ومنامها كاد ان ينقلب حقيقة واقعة ..
لقد سمعهم يتحدثون عن عرس .. وما الكاهن ببارك رجالاً في ثياب احتفالية متمماً
صلواته ... اترام يزواجها هي يحتفلون؟!

وانتفضت اناملها بشكل عصبي عنيف وكان هذه الانتفاضة قد انتقلت من
عروقها فبلغت قلب جارها . اتراه فهم؟ ام لعله استنتج؟ ان نشوة الحب قد اجتاحت
هو الآخر كما غمرت منها الفؤاد والجوارح؟! او لعله يثق بفتنته واغرائه الذين لا تثبت
امامها امرأة قط؟!

وانتهت الى انامله تضغط راحتها بلطف باديء بدء ثم ضاعف ضغطه حتى كاد
يلوي كفها ويحيطه .. ودون ان يختليج وجهها سمعته يقول فلا يسمع صوته سواها،
ولكن صوته كان واضحاً لا ريب فيه : - آه يا جان .. لو شئت لكان هذا
العرس عرسنا! ..

وأحنت رأسها بجرعة بطيئة جداً .. ولعلها غنت بها قولها : « نعم ! »
وكان الكاهن ما انفك يرش الماء المقدس وعبر بها فتناثر الماء فاصاب رشاشه
اناملها! ..

وانتهى الاحتفال . ونهضت النساء من جثوهن . وكانت العودة فوضى ..
فقد انطلق المنشدون وحملة الصليب مسرعين وحث الكاهن خطاهم باثرهم .. اما البعارة
والجمهور فخفواهم الآخرون كي يدركوا مكان الوليمة فلا تفوتهم اطايها تلك الوليمة
التي طالما تحلب ريقهم بانتظارها ...

واقامت الوليمة الموعودة بالقصر . ومد الخوان الطويل في الحديقة وجلس
البارون في الجهة المقابلة والى جانبيه المختار وزوجته الريفية الهرمة الهزيلة تنثر تحيات
لأنها لها في جميع الاتجاهات .. كانت هذه المرأة القروية تتناول الطعام بضربات
سريعة متلاحقة كأنها تنقده بانفها كالدجاجة .

اما جان فقد جلست بقرب « الاشبين » وراحت تهيم في سماءات سعادتها البعيدة
الغور كأنها لا ترى بما يدور حولها شيئاً ولا تسمع بما يقال كلمة فهي صامته ساكنة
وقد فعل بها السرور فادار منها الرأس وخدر الحواس ...

والتفتت الى جارها وسألته : — ما اسمك الصغير؟

فاجاب : — جوليان . الا تعرفين ذلك حتي الان ؟

وعادت تلوذ بالصمت تائهة في مهامه افكارها مرددة بينها وبين نفسها : « كم
سأردد هذا الاسم الجميل في آثبات الایام ! »

وما فرغوا من الطعام حتي تركوا الحديقة للمدعوين وانطلقوا الى الناحية
الثانية من القصر .. وشرعت البارونة « بتمرينها » مستندة الى ذراع البارون يواكبها
الساكن . اما جان وجوليان فقصدا الحميلة في اقصى الحديقة متبعين طريقاً مظلمة
تعاقت فوقها الاغصان . وتناول يدها فيجأة :

— قولي . اترضيني زوجاً ؟

واكتفت باحشاءة من رأسها الضاجة فيه افكار من نار ..

وتابع في شبه توسل : — اضرع اليك ... اجيبي !

ورفعت نحوه عينها اللامعتين حبوراً ... وتركته يقرأ فيها الجواب ...



الفصل الرابع

البارون ذات صبيحة غرقة جان ولما تنهض بعد . وقال وهو

دخلى يجلس الى قدمي السرير :

- لقد تقدم الفيكونت دي لامار بطلب يدك ..

وبدرت منها حركة كأنما نود اخفاء وجهها تحت طيات اغطيتها .

وعاد ابوها يقول : - ... وقد ارجأنا اعطاءه الجواب الى وقت آخر .

وشعرت بالتأثر يضغط انفاسها فلهت . و اضاف البارون بعد فترة باسم :

- لم نشأ ان نبت بالامر قبل استمزاك وأهلك . اما امك وانا فلا نجد مانعاً
يجول دون اتمام هذا الزواج وان نكون ضعيفي الامل في انك ستجاري معنا في رأينا
هذا . لا بد من لفت نظرك الى انك تملكين من الثروة ما يفوق ماله منها اضعافاً
مضاعفة .. غير ان المرء الذي يفسد السعادة في الحياة فلما يهتم بالمال وحده . واذا
رضيت به بعلاً فسيدخل هذا الفتى عائلتنا لأن ليس له اقرباء او اهل بينها لو تزوجت
سواه فستفادين بيت ابيك الى قوم غريباء . والخلاصة : ان هذا الفتى يرضينا فهل
تراه يرضيك انت ؟

ونتمتت وقد اعتراها احمرار صبغ وجهها حتى مفرقها : - انه يرضيني انا الاخرى
يا ابتاه ! ..

كان الاب ينظر اليها باعماق عينيه وقد افترت شفتاه في ابتسامة عريضة . قال :

- كنت اشك في ذلك بعض الشك ايها الانسة ! ..

واقامت نهارها سكرى بسعادة قلقة لاندرى معها ما ذاتص
لا تلبث ان تتركه الى غيره بمركة آلية . واحست تعباً في ساقها وهي لم تمش ، وغلاً
في ذراعها وهي لم تقم باي عمل مضن .

وكانت جالسة وامها تحت شجرة الدلب وما ازفت السادسة مساء حتى رأتا
الفيكونت قادمًا . وراح قلب جان يحب وجيباً عالياً جنوبياً ... وتقدم منها
الشاب لم يعره اضطراب . وما بلغها حتى هم بيد البارونة فقبلها ثم عطف الى الفتاة
فناولته راحة راعشة صب عليها قبلة طويلة حارة . فكأنه يقر لها بحسن صنيعها ...

وبدأ عهد خطوبتها السعيد غاصاً بالرؤى والاحلام .. فسكانا بينبذان مكاناً
فضيلاً ينصرفان فيه الى الثروة العذبة الراضية . او يخرجان الى الحقول والجنان
فيجلسان فوق رابية معشوشبة او في روضة فواحة او امام الارض الفسيحة العذراء .
وكثيراً ما تزهوا في « ممشى الام » فيروح يحدثها حديث المستقبل البسام بينما تنصرف
الى الاصغاء اليه بجماع قلبها وقد اخضوضرت الامال في نفسها الفتية العطشى ...
وكانت ، اذ تصغي اليه ، لاترفع ناظرها عن اثار خطوات امها فوق الاعشاب ..

وشاء جوليان تعجيل الفرحة الكبرى ماوسعه ذلك ووافق الجميع على ان
يكون الاحتفال في نهاية ستة اسابيع اي في منتصف شهر آب ثم يسافر العروسان
في « شهر العسل » .

عندما سألوا جان رأيا حول اي الافطار تفضل زيارتها في رحلة عرسها اعلنت
عن رغبتها القديمة في زيارة كور سيكا . ففي هذه البلاد البدائية يتاح للمرء الانفراد
والانصراف الى رفيقه اكثر مما يتاح له ذلك في مدن ايطاليا او غيرها من البلدان
المتعدنة .

ولم يفرغ صبرهما بانتظار اليوم الموعد ، يوم اتحادهما مرة واحدة الى الابد ...
ذلك انها كانا في شغل شاغل بما وفرتة لهما فترة الخطبة . من سعادة فياضة وامل مزدهر
بسام .. ولم يقتصر عهد خطبتهما على التعلل بالارهاق بل تذوقا نشوة القبل الرطبية

وارتعشا لمتعة الدعاب البري، كضبط الاكف وتبادل النظرات المشوقة فتزج فيها
الروحان في صفاء كصفاء تلك النظرات . بينهما كانت الرغبة العارمة ، والتزعات
المهمة تدور رأسيهما دواراً هائلاً لا يجد ان منه منفلاً ولا الى اشباعه سبيلاً ...

وقررا ان تقتصر الحفلة على الحالة (ليزون) التي تعيش كسيدة لاجئة في احد
اديرة فرساي . وليزون هذه هي شقيقة البارونة وقد شامت هذه الاخيرة الاحتفاظ
بها بعد وفاة ابيها غير ان العانس فضلت الانسحاب الى مثل هذا المأجأ محدودها بصورها
انها ثقيلة الظل غير مفيدة لاحد ولا شك في ان الجميع ، وهذه حالها ، يرغبون عنها ..
واقامت في الملجأ الا انها لم تنقطع عن زيارة شقيقتها فتمضي لديها شهراً او شهرين
من كل عام .

والعمة ليزون امرأة ضئيلة الجرم ، قليلة الكلام ، سرعان ما تختفي فلا تعود
الى الظهور الا ساعة يدعوها واجب اوداع . وهي نقضي معظم اوقات اقامتها لدى
شقيقتها معتكفة في غرفتها .

وبالرغم من انها لم تتجاوز الثانية والاربعين بدت هرمة الا ان طبيبتها وسمت
حماها بميسم الجمال فعينها تنضغان حزناً ولطفاً . وهي لم تكن قط ذات موضوع في
العائلة او بين الاتراب . وحق عندما كانت طفلة لم تجد من يهتم بها او يقبلها لأنها
لم تكن على حظ من الجمال موفور . لذا كانت تلزم الزوايا هادئة مسالمة ومنذ ذلك
الوقت لبثت متوازية ، باعثة الشخصية ، منكرة لذاتها ... ولم يزد الاهتمام بها حتى
بعد ان كبوت ونضجت اثوثتها .

انها اشبه بظل يعبر عبوراً خفيفاً لا يلفت اليه الانظار .. بل اشبه باحدى تلك
القطع من الاثاث فلا تثير اي اهتمام لكثرة ما اعتادها النظر والفها . اما اختها ،
البارونة ، فاستمرت تنظر اليها كما كانت تفعل وهما في البيت الابوي : نظرتها الى
مخلوق نافس لا معنى له ابداً !

اما اسمها « فلين » ولشد ما سبب لها هذا الاسم الفتي الرنان متاعب وازعاجاً .

لا انهم ، عندما ادر كوا انها لم تتزوج ولن تتزوج ابداً حرفوا اسمها من ليزالى
« ليزون » ومنذ مولد جان اصبحت « الحالة ليزون » .. وهي بالاختصار : قريبة
متواضعة ، نظيفة ، رائحة في خجلها الذي لم يكن ليفارقها حتى حبال اختها وصهرها .
اما هذان الاخيران فيكتمان لها حباً حقيقياً يشوبه شيء غير قليل من عدم الاكثرات
والتهاون في امرها .

وكثيراً ما كانت البارونة تقول ، لتجدد وقتاً ما من اوقات طفولتها الاولى : .

— حدث ذلك عندما اصاب ليزون لوثتها ...

كانت نكتفي بهذا القدر من القول فلا تعطي ايضاحاً قط . وبقيت قصة هذه
اللثة التي نزلت بليزون مغلفة في ضباب السر المكنون ...

اما كيف حدث ذلك : فغلاصته ان ليزون الفت بنفسها ذات مساء الى البحر .
كانت في ربيعها العشرين ولم يستطع احد معرفة الدوافع الحقيقية لمحاولة الانتحار
تلك . لم يكن ثمة ما يشير الى مثل هذا المصير في حياتها الخاصة او بدواتها الظاهرة
او ما ينم عن هذا الجنون المفاجيء .. وتلقفها الصيادون وهي تكاد تلفظ انفاسها ..
ولم يعرف اهلها الامر كبير اهتمام بل نقضوا ايديهم منه واكتفوا بالاشارة الى جنون
ليزون كما يشيرون الى حادثة الجواد « كوكو » الذي كبا فكسر ساقه فاضطروا
الى اعدامه لينقذوه من آلامه ...

ومنذ ذلك اليوم اخذوا عن ليزون فكرة ضعف العقل .. وسرعان ما سرى
هذا (الاحتقار اللبق) من دائرة العائلة الى كل معارف العانس المسكينة . وحتى
جان الصغيرة قد انسافت بحب التقليد الطبيعي لدى الاطفال ، الى عدم الاكثرات
بالحالة ليزون . فهي لم تكن تذهب اليها قط فتعانقها في سريرها كفعلمها مسع بقية
اهلها . وحتى غرفتها قلما ولجتها . وكأن روزالي الطيبة هي الوحيدة التي كانت
تعرف موقع غرفة الحالة فتدخلها لتهتم بترتيبها وتنظيفها .. وقد اقتضرت علاقة
جان بخالتها على تقديم جبهتها لها لتطبع عليها قبلة عندما يكونون الى المائدة ...

لم تكن ليزون تشغل أي فراغ ، مادبا كن او معنوبا . فهي من ذلك الضرب من البشر الذي يمر فلا يؤبه به . ولومات لما ترك فراغاً ذا بال في المحيط الذي يضطرب بين ظهرائه . . ذلك الضرب الذي لا يوحى بسوى الاسف العابر . . انها ، بالاختصار ، من تلك المخلوقات التي لا نجد ولوج القلوب التي تعيش بينها . فاذا ما قيل « الحالة ليزون » فكان يقال : « ابريق القهوة او وعاء السكر ! » دون ان تترك هاتان الكلمتان اثرأ في النفوس قوياً كان او ضئيلاً . . .

ووصلت ، مثقلة بالهدايا ، وقد شارف تموز منتصفه . وكان اضطرابها متفاقماً بسبب هذا الزواج المباغت . . اما هداياها فلم تستوعب كبير اهتمام لجزئها هي التي حملتها . . .

وكادوا يتناسونها بعد يوم واحد على وصولها .

كانت لانفارق بعينها الخطيبين الشابين ذلك ان شعوراً غريباً بدأ يختمتر في اعماق نفسها المعقدة . واندفعت تهتم « بجهاز » العروس اهتماماً فريداً محمواً . . تمضي جل وقتها سجيئة غرفتاً منصرفه الى الحياطة والتطريز . وفي كل لحظة كانت تحمل للبارونة مناديل فرغت من تطريزها او ثياباً اخرى وشتم وزينتها بحروف مطرزة . وكانت تسأل : - اهو كذلك يا ديلايد ؟

فتفحصها الام باكثر اقليل ونحيب : - لشد ما تعبين نفسك يا ليزون المسكينة ! وذات يوم من اواخر الشهر ، وكان القمر قد بزغ رائعاً بعد يوم لاهب ، والليل نيراً فاتر الانفاس ، انه من تلك الليالي التي تثير في النفس كل ما كنت من مشاعر سرية سحرية . وهبت نفحات الحقول الندية فتخطت النوافذ وافعمت اجواء البيت بشذى معطار . كان البارون وزوجته يلعبان الورق بتراخ تحت الدائرة المنيرة التي يرسمها غطاء المصباح فوق الطاولة وقد جلست بينهما ليزون منهمكة بالتطريز بينما استند الشابان برفقتهما الى حافة النافذة المفتوحة وغرقا في تأمل الليل الساجي والحديقة المعفنة ضياء . . .

كانت خمائل الحديقة ترسم ظلالها فوق العشب شاحبة لامعة متحركة بهبات
نسيم الليل الرخي . . . وجذب سناء الليل الشابين بجاذب لا يقاوم . .
واستدارت جان وخاطبت اباهما قائلة : - سنقوم بنزهة بابتداء امام القصر
فوق العشب الندي . .

فاجاب البارون دون ان تفارق انظاره الورق : - امضيا يا ولدي . .
وعاد الى شأنه . وخرجا فسارا بخطى وثيدة فوق المرج المنور الجنبات حتى
بلغا الخيمة الصغيرة في الطرف الآخر من الحديقة . ومرت الساعات لا يفكران
بالعودة . وادرك البارونة التعب فشأت ان تصعد الى غرفتها الا انها تنهت الى
غياب الخطيبين فقالت :

ينبغي مناداة العاشقين !

وأجال البارون ناظره في ارجاء الحديقة فوقعت عيناه عليهما يمسيان بهدوء متخاصرين .
قال : - دعيهما . ان الجو على غاية من الجمال في الخارج . سنقيم ليزون
بانظارهما . اليس كذلك يا ليزون ؟

ورفعت العانس عينها القلقتين وقالت بصوتها الخففر :

- بكل تأكيد . سأنتظرهما . .

ونفض البارون وزجه وكان هو الآخر يشكو صداغاً اورثه اياه حر النهار
واعلن وهو يخرج عن رغبته في ان يأوى الى فراشه حالاً . وانطلق يزوجه .
وبعد خروجهما نهضت الخالة ليزون تاركة فوق ساعد المقعد شغلها الصوفي
وابرتها الضخمة وجاءت تستند برفقها الى حافة النافذة وتجبل في الليل الخلاب
نظراتها الوجلة . . .

كان الخطيبان يمسيان فوق الحشائش لايدر كهما عنا . او نصب ، ذاهبين جانين
في الممشى الطويل . وكانت راحتاهما متعاقبتين وقد خيم عليهما الصمت وكانت

روحيهما قد انطلقنا الى اجواء علوية فامتزجتا بالنفح السحري المنبثق من الارض .
ولمحت جان بغتة شبح الحالة العانس يرسمه نور المصباح في اطار النافذة المفتوحة المصراعين .

قالت مخاطبة رفيقها : — انظر ! الحالة ليزون تراقبنا ...

ورفع القيكونت رأسه وقال بصوت خارج عن حيز ارادته :

— اجل ! الحالة ليزون تراقبنا ...

كانت رطوبة ناعمة ، منبعثة عن ندى يغمر الاعشاب ، قد تمشت في مشاعرهما
ودغدغت حواسهما ...

وتابعا مشيهما الوثيد .. الهين .. حالمين ...

قالت : — لنعد . لقد طال بنا الغياب ..

وعادا على اعقابهما ...

كانت الحالة ليزون قد رجعت الى ابرتها وصوفها ، عندما دخلت الردهة ، حانية
الجهة مرتجفة الاصابع الهزيلة كأن بها برداً يرعشها .

واقتربت جان وقالت : — سنأوي الى مضاجعنا الآن ايها الحالة .

واستدارت اليها العانس برأسها كانت عينها حمر اوين كأنها قد ذرفت دمعاً
غزيراً . الا ان ذلك لم يستوعق انتباه العاشقين . وتنبه الشاب فجأة الى ان حذائي
حبيبته الدقيقين قد بللها الندى فادر كه لذلك قلق وخاطبها بحنو :

— الانحسين برداً في قدميك الصغيرتين العزيزتين ؟

ولدى سماع هذه الكلمات اهتزت اصابع الحالة اهتزازاً شديداً جعل الفسيح
يفلت منها فتنداح كرة الصوف فوق البلاط بعيداً ... وحملت راحتها بسرعة الى
عينيهما واندفعت في بكاء عصبي مرير ...

وجهد الخطيبان وهما ينظران اليها مندهشين . وخفت اليها جان وركعت

بقرها و تناولت ذراعها وقد استبدىها الاضطراب واندفعت تقول : ايها الحالة
ليزون !.. ماذا دهالك ؟ ماذا دهالك ؟ وجمجت الفتاة المسكينة بصوت غارق
بالشهقات والزفرات :

— لقد سألك : « الا تشعرين بب... ر... د... في... في... قدميك
العزيزتين ؟... » اما انا فان احداً لم يقل لي مثل هذا القول مطلقاً... مطلقاً...
واذكرت جان ، رغم دهشتها وحنوها ، رغبة عنيفة في الفقهمة اذ خيل اليها
انها ترى عاشقاً يغازل ليزون .. اما الفيكونت فقد استدار ليخفي ابتسامة عريضة
هازئة...

ونفضت ليزون فجأة فتركت صوفها فوق المقعد وانطلقت الى غرفتها لاقلوي
على شيء... وبقي الشابان منفردين يتبادلان النظرات وفي صدرهما حب يعتلج
وهيام يفور...

ووجدت جان نفسها تردد : - يا للخالدة المسكينة ! يا للخالدة المسكينة !
وعلق جوليان : بخيل الي ان اللوثة قد عاودتها هذا المساء !
كانا متهاكسين بالا كف دون ان يحزما امرهما على الافتراق... بهدوء... بهدوء...
كلاي .. تبادلنا قبلتها الاولى ... امام مقعد الحالة ليزون الخاوي ... دون ان
تراود دموع العانس المسكينة خاطرها بعد ذلك .
لقد حمل الاسبوعان الاخيران هدوءاً الى نفس جان انساها ثورات عاطفتها فيما
مضى من ايام .

لم يتح لها وقت للتفكير حتى صبيحة اليوم الفاصل ... وشعرت بتخاذل في
قواها وهوار يحتاج رأسها وانحطاط جسدي خيل اليها معه ان لحما وعظامها قد ذابت
فلم يبق منها اثر تحت جلدها ! ولحظت ان اناملها ترتعش وتنفض كلما تمت بتناول شيء...
ولم تعاودها سكنتها الا امام المذبح يوم الاحتفال .

تزوجت ؟ اجل لقد تزوجت ! وهكذا انتهى كل شيء في مثل ايامضة !
لقد بدا لها هذا التداخل والاختلاط في الاحداث منذ الصباح ، والمفاجآت
المتوالية ، كأنها اضغاث احلام . ان الاشياء ، مهما كانت معتادة ، في مثل هذه
المواقف الفاصلة ، ذات لون جديد ومعنى غير معهود . الكلمات والاشارات وكل
شيء .. حتى الوقت لا يظهر لنا سائراً في طريقه المعتاد ...

انها مضغضة الفكر ، ضالة التفكير ، زائغة البصر ...
وهبط المساء لا يحمل اليها اية راحة او اية تخلص من القلق ! .. وكل ما في
الامر ان آمال حياتها الموعودة بدت لها دانية القطوف يانعة الثمرات قريبة المنال !
لقد رقدت امس في فراشها فتاة عذراء ضاح صدرها بالرغاب .. وسترقدها
المساء لتستفيق امرأة ذات بعل ... ياله من تاريخ في حياتها فاصل خطير ...

لقد عبرت اذاً هذا الحاجز الذي يحجب كل ما في المستقبل من متع ومسرات
وسعادة طالما حلت بها الفتيات اذا ما خلين الى مضاجعهن ! لقد فتح امامها الباب
السري .. وهامي توشك ان تاتي العالم الجديد الذي طالما راودها في احلام يقظتها ومنامها !
وانتهى الاحتفال . وعادوا ادراجهم عبر المعبد شبه الفارغ فقد اقتصر الحفل
على عدد ضئيل من المدعوين ...

ما ان ظهر العروسان على باب الكنيسة حتى عكر الفضاء رشق من طلقات
نارية عبر بها الفلاحون عن ابتهاجهم بالحدث السعيد .. وواكبوا الحفل مستمرين
باطلاق النار حتى بلغوا القصر وقد تقاف ذعر البارونة لصوت النار ...

وقدمت وجبة خفيفة للعائلة وكاهني شاتلات وإبورو والشاهدين الذين تم اختيارهما
من فلاحي الجوار . وقبل ان يجلسوا الى المائدة قاموا بجولة في ارجاء الحديقة .

كانت هتافات القرويين المتعالية من الناحية الاخرى للقصر تشق عنان السماء
وتصك الآذان يعبرون بهذا الضجيج المصم عن ابتهاجهم وقد تحلقوا حول اسطحة

الطعام والخمر المدودة تحت اشجار التفاح . لقد عم الفرح كل المنطقة ولم يصر على الكبار بل تعداهم الى الاطفال الذين ثوافدوا متراكضين متلاحقين حتى كادت تفص بهم الحديقة على اتساعها ...

اما جان وجوليان فقد عبرا الحديقة واجتازا الحائل ثم تسلفا الرابية المشرفة على البحر وراحا ، صامتين ، يتأملان المائج الازرق . .

كان الجو ، رغم اننا في منتصف آب ، على شيء من البرودة فريح الشمال تنفخ والشمس تلتصع حادة في كبد سماء صافية الزرقة .

وثناء العروسان اللجوء الى مكان ما هربا من الشمس ، فاجتازا المنبسط الرملي وانعطفا الى اليمين باتجاه الوادي المتعرج المشجر والمابط نحو ما بور

وما ان بلغا الادغال الملتفة على جانبي الوادي وتوغلا فيها حتى شعرا بالهواء يخنق فلا تهب عليهما نسمة ، فعادا عن الطريق ليتخذوا سبيلاً ضيقة عبر الاغصان المتعانقة . كانوا يتقدمان بعناء ومشقة . والتفت ذراع جوليان حول خصر عروسه . كانت صامتة ، لاهثة ، متوثبة القلب متقطعة الانفاس . وداعبت الاغصان الدائبة شعرها ، ولا مست منها الوجه والنعر ... ومدت يدها فقطفت ورقة فاذا بمحشرتين ملتصقتين فوقها ..

قالت بهدوء وبراعة : - هي ذي عائلة !

ومس جوليان في اذنها : - ستكونين هذه الليلة امرأتى ...

صحيح انها كانت قد عرفت اشياء كثيرة عن الحياة الجنسية تعلمتها في الريف ، الا انها لم تكن تحلم من الحب بغير ما فيه من شاعرية وروحانية ... لقد ادهشتها قوله : امرأته ؟!

ولكن الم تصبح امرأته حتى الآن ؟!

وراح يكسو عنقها وصدغها وشعرها الاجعد اللعات قبلاً قصيرة سريعة .

ومالت برأسها محاولة تحاشي هذه القبل ، قبل رجل .. ومع ذلك فقد طغى عليها
تأثير مفاجيء لذيذ .

وما لبثا ان وجدا نفسيهما في اقصى الغابة . فتوقفت دهشة لما قطعاه من مسافة .
ماذا سيقولون عنهما ؟ قالت : لنعد .

وجذب ذراعه التي كانت تلف خصرها وتبصر قوامها اللدن العود ، اللين المحبس ،
واستدار فتواجهها واحسا بانفاسهما تلهب منهما الوجبين .. وتبادلا نظرة ! نظرة ثابتة ،
حاددة نفاذة ، مزجت منها الروح حين .. وراحا يبحثان في اعماق اعينهما ، فيما وراء
سوادها ، في ذلك العالم الانساني المجهول المحتفي . وراء المقل ، محاولين سبر تلك الاعماق
واجتلاء تلك الآفاق باصرار وعناد .. ماذا سيكون الواحد منهما بالنسبة للآخر ؟
كيف ستكون هذه الحياة التي كتب لهما ان يقضياها متلازمين لا يفترقان ؟ هذه
الحياة التي يطلقون عليها « الزوجية » ؟ وادرك الواحد والاخر انه لم يعرف رفيقه
حق المعرفة حتى الآن .

والتي جوليان بذراعيه فجأة الى كتفي زوجته ورشقها بقبلة حارة عميقة كالم
تذوق مثلها قبل الآن .. واحست ، وهو مطبق بثغره فوق ثغرها ، ناراً اكولة
تلهب شفتيها الشهييتين .. وتغلغل هذه القبلة في عروقها وتمشت في اعصابها ...
فادركتها هزة عصبية وانتفاضة مباغتة من العنف بحيث دفعت جوليان عنها بجماح
قواها فالقت به ارضاً .

وارتبكت .. غير انه هب واقفاً .. فتمتمت : — هيا بنا . هيا بنا .

ولم يجبها واكتفى باخذ يديها بيديه واحتفظ بهما مدة ثم قفلا راجعين .

وسارا صامتين حتى بلغا المنزل . ومر بعد الظهر طويلاً مملاً .

وجلسوا الى المائدة عند هبوط الليل . كان العشاء بسيطاً قصيراً على غير
ما جرت عليه العادات النورمندية . وقد خيم شيء من الضيق على المدعوين . اما

السكاهنان والمختار والفلاحون الاربعة فقد كانوا على شيء من الابتهاج الذي يرافق الاعراس عادة غير ان الضحكات لا تلبث ان تموت فوق الشفاه اذ تمزقها احدى نكات المختار السمجة . وحوالي التاسعة قدمت لهم القهوة . واما خارجاً ، تحت اشجار التفاح فقد بدأ الرقص القروي ... كان المشهد يظهر بوضوح من النافذة : عشرات القرويين والقرويات قد انتظموا في حلقة الرقص الربيعي الجميل على ايقاع الاناشيد والاهازيج البلدية المثيرة لكوامن الاحساس .. وكان في الحشد حملة المشاعل ينثرون الحلبة للراقصين والراقصات . وصاح المختار وقد استبد به الطرب : - يا للسماء ! كل شيء على خير صورة ! كأننا نشهد احد اعراس « كاناش » !
وتجاوبت ضحكات مكبوتة .. وعارض الاب بيكو العدو الطبيعي لكل سلطة مدنية :

— تريد ان تقول عرس « قانا » ؟

ولم يرق الاعتراض للمختار فاجاب : — كلا ياسيدي السكاهن . لقد قلت « كاناش » وانا اعني ما اقول .

ونمضوا وعبروا الردهة ثم انصرفوا الى جماهير الشعب الطروب فاختلطوا بها . ولم يطل الامر بالدعوى فانصرفوا .

لودنا احد من البارون والبارونة في تلك الساعة لسمعها يتشاجران بصوت خفيض .. فمدام اديلايد ترفض بشدة وبثورة اعصاب الاستجابة الى ما يطلبه زوجها وانتهت بان رفعت صوتها بعض الشيء وقالت :

— كلا باصديقي . انا لا استطيع . لا اعرف كيف اقوم بمثل هذه المهمة الوعرة المسالك !

وانصرف عنها الاب . ومشى الى جان وخاطبها قائلاً : — تريدان يا بنيتي مرافقتي في تزهة قصيرة ؟

واجابت وهي تنفض متأثرة : — سمعاً وطاعة يا ابي . وخرجتا ..
ولفحها هواء جاف هب عليها من فاحية البحر ، هواء بارد يهب في اواخر

الصيف معلناً ذنو الحريف وكانت الغيوم المكعدة متلاحقة في اعالي السماء تخفي
النجوم تارة وتسفر عنها اخرى ..

وضغط البارون ذراع ابنته فوق صدره وشد على يدها بجنود ورفق عظيمين .
وسار بها بضع دقائق .. وكان على اضطراب وتردد كبيرين .. وحزم امره
قليلاً وقال :

- اسمعي يا جميلتي . سأقوم الآن حيالك بواجب عسير كان الحري بامك القيام
به الا اني ، وقد رفضت امك ، لم اجد مناصاً من اتمام المهمة بنفسي . ثمة اسرار يجهد
الاهل باخفائها عن الاطفال عموماً والفتيات منهم خصوصاً .. ذلك ان الفتيات تقرض
فمن الطهارة والنقاوة وصفاء النفس حتى الساعة التي يأخذهن فيها الاهل ويلقوهن بين
ذراعي الرجل الذي يتوسمون فيه اسعادهن . ان مهمة اماطة اللثام عن اسرار
الحياة الزوجية الجميلة تقع على عاتق الرجل . بيد ان كثيرات من الفتيات يثرن في
وجه الحقيقة الكبرى اذ يصدمن شيء قبل من قسوة تختفي دوماً وراء الاحلام
وتتوارى ابدأ خلف الاماني العذاب .. ذلك انهن ، يا بنيتي ، يكن صفحة ناصعة
لم يחדشها بخدش .. وتأتي ساعة يجردن انفسهن فيها وقد دميت منهن الارواح
والاجساد فينهدن الى رفض حق طبيعي للرجل اقرته قوانين البشر واقرت به
نواميس الطبيعة الحكيمة .. لا استطيع الايضاح يا عزيزتي ولا الاستفاضة بالحديث
غير اني لا أرى مندوحة عن تذكيرك بانك غدوت ملكاً حلالاً لزوجك جسداً
وروحاً يتصرف بكيانك المادي والروحي تصرف المالك المطلق ..

ماذا فهمت من الموضوع ؟ ماذا استخلصت من هذه الاقوال ؟ لقد أحست
رعدة تهز كيانها هزاً عنيفاً غدت معها كريمة في مهب ربيع حار ... وجشت
فوق صدرها كآبة خائفة كأنها حدس ونبؤة عما يجنيها مستقبلها المجهول الذي بدأ
يتكشف لها منذ هذه اللحظة على جهومة وقبح ..

وعادا الى المنزل وسمرتها فوق العتبة مفاجأة : كانت السيدة ادبلايد قد
انخرطت في البكاء المرير فوق صدر جوليان ..

كانت نشيجها صاخباً ضاجاً كأنه يخرج في وقت واحد من أنفها وعينها وفمها
أما الشاب فكان مرتبكاً ، برماً ، يسند حماته الضخمة الجثة بذراعيه .. وكانت
تقطع زفراتها الفينة بعد الأخرى ، لتوصيه بأبنتها المعبودة .. بعزيمتها الوحيدة .. جان ..
وبادرها البارون قائلاً : - دعينا من هذه المشاهد المسرحية ! .. أرجوك ..
هدئي فيضان هذه العواطف الدافقة ! واخذها بذراعها فأجلسها فوق مقعدها بينما
انشغلت هي بمسح الدموع المذرفة فوق وجهها المليء المتروهل . ثم التفت الى جان
واهأب بها قائلاً : - هيا يا صغيرة ! قبلي أمك واهضي الى فراشك .
كانت توشك ان تنفجر باكية .. فأسرعت بتقبيل والديها وانطلقت مسرعة
لاتلوي على شيء ..

أقام البارون وزوجته مع جوليان على انفراد فاحالة ليزون قد أوت هي
الأخرى الى فراشها . كان الثلاثة على شيء من الاضطراب حتى ان احدهم لم يثبت
بينت شقة . كان الرجلان واقفين الواحد ازاء الآخر وهما بلباس السهرة . أما
البارونة فكانت جاثمة فوق مقعدها تجتر من حنجرتها بقايا الشبهات والزفرات ..
وطال بهم الصمت حتى غدا ثقيلاً لا يحتمل ، وأثار البارون موضوع الرحلة
التي ينوي العروسان القيام بها بعد أيام قلائل .

واستسلمت جان الى وصيفتها الباكية روزالي ، فخلعت عنها ثيابها ...
فكانت اصابعها المضطربة تبعث عبثاً عن العرى والازرار والمشابك .. انها ولا
ريب اشد اضطراباً من سيدتها . أما جان فلم تكترث مطلقاً بدموع الفتاة . فقد خيل
اليها انها ولجت عالمًا غير العالم الذي عهدته ، انها حملت الى ارض غير الارض التي
اعتمدتها ، انها فارقت كل ماشغفها في ماضيها واجتبه بجماع فؤادها ، كان كل شيء
يبدو لناظرها ، منقلب الاوضاع .. كل شيء .. حتى افسكارها .. وتساءلت مراراً
وهي تستغرب مثل هذه الفكر : « أتراها تحب زوجها ؟ »

في الواقع انه بدا لها كأنه غريب لم تعرفه قبلاً .. لم تعرفه الا لماماً .. فقيل
ثلاثة اشهر لم تكن تشعر بوجوده لم تكن تعلم انه يعيش ويضطرب في عالم الاحياء ..

وها هي الآن ... زوجته ! .. امرأته ! .. ملكه ! .. لم هذا يا الله ؟ ! لم يسقط
المرء في أحبولة الزواج كما في هوة فاعرة تحت قدميه ؟ !

وما فرغت روزالي من لباسها اودية نومها حتى خفت الى فراشها فانزلت بين
طياتها فشعرت رعشة باردة تمش في اوصالها لملامسة الاغطية الباردة ، فضاهت هذه
الرعدة شعورها بالبرد والوحشة . هذا الشعور المقبض الذي عرف طريقه الى
روحها منذ ساهتين .. منذ ان انفرد بها ابوها ..

واختفت روزالي وهي لانفك تذرِف الدموع ، اما جان فاقامت تنتظر ..
اقامت تنتظر ، متوفزة الاعصاب ، معتصرة الفؤاد ، هذا المجهول المنتظر الذي
اخطرها به ابوها بكلمات مبهمة مقتضبة ، هذا الشيء السعري .. سر الحب الاكبر ..
وسمعت بابها يقرع ثلاثاً .. دون ان يسبق القرع خفق خطي أو وقع
اقدام .. وانتفضت مرتاعة ولم تحب .. وعاد القرع يعلو .. ثم ادير المقبض ...
وسارعت باخفاء رأسها تحت الاغطية كأن سارقاً وليج غرفتها .. ودنت منها خطي
خفيفة الوقع .. واحست يداً تلمس سريرها ..

وتمشت في اعصابها رعدة عنيفة كرعدة المقرور .. ولم تستطع امساك صرخة
قصيرة ندت عنها وازاحت الغطاء عن وجهها فاذا بها وجهها لوجه امام جوليان وهو
يرنو اليها باسماء بشره .. قالت : - آه ! السك اخفني !

فسأل لاتفارق ابتسامته الشهوانية شفتيه : - اذآ انت لاقتظريني ؟
لم تحب فقد اعتراها خجل هائل عقد لسانها اذ وجدت نفسها مضطجعة امام
مثل هذا الرجل المهذب ..

كانت ، في زينتها الليلية السكاملة ، بواقه الحسن فسيمة الوجه ..
ومكثت صامته لم يؤاتها مانقول ، ولم تعرف ماهي فاعلة ، دون ان تجرؤ
على رفع عينيها اليه او خفضها الى نفسها .. بالساعة الجدية الفاصلة ! ان سعادتها في
حياتها المستقبلية مرتبطة بهذه الساعة اشد ارتباطاً !

ولعله ادرك ، هو الآخر ، اي خطر تنطوي عليه مثل هذه المعركة ...

وما تتطلب من سيطرة تامة على نفسه واعصابه ، ونعومة مخالقة في تصرفاته وبدوانه ،
فعلية تجنب خدش خفر عروسه ورقة حاشيتها ومثالية روحها العذراء التي طالما غذتها
الاحلام وهددهتها الاماني .

وبهدوء تناول راحتها فلثم اناملها ثم جثا بالقرب من السرير كأنه امام مذبح
وتتم بصوت خفيض كالهمس :

— اتريدن مبادلتي الحب ؟

اعادت هذه الكلمات اليها هدوء روعها فرفعت اليه رأساً غارقة بالذنتلا وقالت
باسمة الثغر :

— لقد احببتك يا صديقي .

وعاد يرفع الى شفتيه اناملها الرقيقة .. وقابع بصوت غير نبراته غليان دماؤه
في عروقه :

— او تريدن تقديم البرهان على ماتقولين ؟ ..

لم تدرك تمام الادراك مارمى اليه .. الا انها عادت نحس الاضطراب يأخذ
مجامع نفسها . وتذكرت كلمات ابها فاجابت : — اني لك يا صديقي !

وكسا راحتها بقبله الندية ثم استقام قليلا وزحف يدنو من وجهها الذي عادت
تحفيه من جديد ، والقى باحدى ذراعيه فوق الاغطية بينما انزلت ذراعه الاخرى
تحت الوسادة فرفعها والرأس التي فوقها ، وبصوت خفيض مأل عروسه : — اتريدن
إذا ان تفسمي لي مكاناً صغيراً بالقرب منك ؟

وشعرت بالخوف يغزو فؤادها ، خوف غريزي ، وتمتمت :

— آه . ليس الآن .. ارجوك ..

وكانه اخذ بقولتها على حين غرة ، فاعتراه شيء من اضطراب ، وعاد يقول
بصوت مسترحم الا انه قوي النبرة :

— ماجدوى التأخير يا عزيزتي ونحن بالغين ذلك عاجلا او آجلا ؟

وشامت الرد عليه الا انها حزمت امرها على الاستلام .. فعادت تردد :

- اني لك يا صديقي ..

ومرغان ما اختفى في غرفة الزينة ، وكانت تسمع بوضوح حفيف ثياب تنضي ،
ورنين نقود في الجيوب ، واخيراً سقوط الحذاثين المتتابع .. ورأته يجتاز الغرفة
بغثة وهو في مبادله ويضع ساعته فوق المدفأة واستدارت جان وقد اغمضت عينيها
اذ احست به يبلغ السرير . وانزلق فيه الى قريها وغمر عنقها بقبلات نومة ..
واذكرها رعب راعب ورغبة عنيفة بالوثوب من السرير والانطلاق من الغرفة
والاختفاء بعيداً عن هذا الرجل .. واستكان جوليان بقربها لحظة . فافرخروعا ..
ورأت ان ليس امامها الا الاستدارة اليه ومعانقته ..

وقال لها بصوت حزين وكان جام صبره قد فرغ :

- انك لاتودين اذا ان تكوفي امرأتني الصغيرة ؟

واجابت متممة خلال اصابعها : - اولست لك امرأة ؟

فعاد يقول متزعجاً : - كلا يا عزيزتي . انك تهزئين بي !

وحركت نبرة صوته الحزين اعماق نفسها فاستدارت اليه لتستميحه عذراً
فاحتواها بذراعيه وراح يغدق على وجهها وعنقها قبله الالهة العطشى ... وتركت
ذراعيها تسقطان وهي لاتدري ما ينبغي لها ان تفعل فقد كانت افسكارها من الاختلاط
بحيث لم تعد تفقه شيئاً ..

ومزقها بغثة الم حاد .. واعتصرها جوليان بين ذراعيه بقوة فراحت تثن
انيناً موجعاً .. ثم امتلكها بعنف شديد ..

ماذا حدث بعد ذلك ؟ انها لاتذكر شيئاً فقد فقدت ذاكرتها تماماً .. وكل
ما علق في خلدائها انه كانت يطر شفتيها بوابل من قبل قصيرة حانية اعترافاً منه
بجميلها .. ثم كان عليه ان يخاطبها وان تجيبه .. ثم عاود محاولاته فقاومه هذه المرة
بعنف عنيد ..

وفكرت آنثذ وقد تغفل اليأس حتى اعماق نفسها ، فقد تصورت سكرة
الحب الكبرى على غير مارأت من عنف ووحشية ! فكرت : هذا اذا ما بسميه :

ان اصبح امرأته ؟! انه هذا ! انه هذا ! واستمرت على مثل هذه الحال من اليأس
القائل بينما استكان هو فوق ظهره وقد يأس من امتلاكها مجدداً ..
كانت مضغطة الحواس وعينها الزائغتان تهماان فوق الطنافس الكاسية
الحائط .. الحاملة اساطير الحب ... الحب ! ياله من شيء قاس وحشي ! الا انقد
كذبت الاساطير !

واحست جوليان ساكناً هامداً فزنت اليه بهدوء فادركت انه قد استسلم
للرقاد ! كان ينام مفتوح الفم نصف انفتاح .. هاديء التقاطيع كل الهدوء ! ...
انه ينام ! ...

لم تعتقد انه يفرق في سباته بهذه السرعة ! ان في عمله هذا لاهانة لها ! اهانة
آلمها اكثر من وحشيتها بامتلاكها ! او يقوى على الرقاد في مثل هذه الليلة ! افلا
يحمل ما حدث اي معنى مثير في نظره ؟! آه لشد ما كانت تفضل لو هاجمها ، لو
اغتصبها مجدداً ، لو اثخنها بدعا به الكريه حتى تفقد الوعي وتخلو من الشعور .
واستمرت في سكونها ، مستندة الى احد مرفقيها ، منحنية فوقه ، مصغية الى
ترديد انفاسه خلال شفتيه ، هذا التردد الذي كان ينقلب ، حيناً بعد حين ، شخيراً
مرتفعاً منفرأ !

وانبلج الصبح ، شاحباً أول امره ، ثم اسقنار ووضح .. وردياً ثم قانئياً
فساطعاً .. وفتح جوليان عينيه المثقلتي الاجفان ببقية من نعاس .. وتثأب ..
وغطى بذراعيه .. ورنأ الى امرأته وابتنس وسأل : - أنمت جيداً يا حبيبتي ؟
ولحظت انه يخاطبها بصيغة المفرد فاجابته دهشة : - اجل . وانت ؟
قال : - انا ؟ آه ! كأحسن ما ينبغي ...

ودنا منها فعانقها ثم راح يحدثها بهدوء مستفيضاً في وصف مشاريع الحياة
المستقبلية بلهجة رجل اقتصادي .. ولم تخل جان من دهشة لكثرة ما ردد على مسمعها
كلمة : اقتصاد توفير .. وكانت تصغي اليه دون ان تفقه لكلامه معنى .. فهي تنظر
اليه حقاً الا ان عقلها كان شاردأ وراء الوف الافكار التي تعبر به لانسكاد تمسه الا
مسأ رقيقاً ..

ودقت الساعة الثامنة فقال : - هيا . ينبغي لنا ان نهض . ان بقاءنا طويلاً
في السرير مثير للسخرية ولا سيما هذا اليوم بالذات ! ..
وقفز من السرير . وبعد ان فرغ من هندامه الفت الى زوجته وراح يساعدها
بلطف على تسوية شأنها ذلك ان الوضع لا يسمح باستدعاء روزالي ..
وكافا على وشك الخروج عندما استوقفها قائلاً : - اتعلمين اننا نستطيع ،
عندما نكون منفردين ، ان نتخاطب بصيغة المفرد . اما تجاه اهلك فينبغي لنا ان
نستمر فترة اخرى في استعمال صيغة الجمع .. وان يصبح ذلك طبيعياً الا بعد عودتنا
من شهر العسل .
واعتكفت جان نهارها في غرفتها لا تظهر الا اوقات الوجبات . وزوف النهار
كالمعتاد كأن شيئاً لم يكن قد حدث .. وكل ما في الامر ان عدد الرجال قد
ازداد واحداً في ذلك البيت ! ..



الفصل الخامس

وصلت المركبة التي اقلت العروسين الى مرسيليا بعد اربعة ايام ..
وكانت جان ، بعد مفاجآت الليلة الاولى ، قد اعتادت قرب جوليان منها
ودعابه اللذيذ لها بالرغم من ان نفورها من الاستسلام اليه لم يكن قد خف .
لقد وجدتة جميلاً .. فاحبته .. ثم نفرت منه لعنفه في امتلاكها .. الا انه
عاد فحسن في عينها فاستمادت مرحها وسعادتها .
كانت ساعة الوداع مقتضية لأثر فيها للحزن والدموع ، والوحيدة التي اظهرت
نمماً هي البارونة . والقت في راحة فتاتها ، ساعة تحركت المركبة ، كيساً منتفخاً
ثقيلاً كأنه الرصاص ، وقالت :

- هذه لمصاريفك الخاصة ايها الزوجة الشابة .
تناوات جان الكيس ورمت به الى حقيبة يدها .. وانطلقت المركبة
بجل سرعتها ..

وسأل جوليان زوجته : كم اعطتك امك في هذا الكيس ؟
لم تكن قد فكرت بذلك ابدآ . فتناولت الكيس وافرغته فوق ركبتها
فاندهق الذهب في حجرها ميلاً : الفا قطعة . وصفت بيديها قائلة :

- سأعمل بها اشياء جنونية . واعادتها الى كيسها ..
وبعد مضي ثمانية ايام ، ذات يوم قانظ ، بلغا مرسيليا ..
وغداة اليوم الثاني حملهم مركب يدعى « الملك لويس » الى اجا كسيو وهو
بطريقه الى نابولي ماراً بكورسيكا ...

كورسيكا ! الادغال ! الاشقياء ! الجبال ! بالموطن نابليون الساحر !

وخيل الى جان انها تخرج من عالم الواقع ، مستيقظة ، لتوغل في دنيا
الحالات والاحلام !

كانا فوق جسر السفينة جنباً الى جنب واعينها معلقة بالصخور المجددة بالابتعاد
فوق شاطيء « بروفانس » .. كان البحر ساكناً لازوردياً كأن نور الشمس
قد ارهقه وقد استرخى تحت السماء الممتدة حتى لتختلط زرقتها الشاحبة بزرقة اليم
القائمة عند قوس الافق الجنوبي !..

قالت بعد فترة سهوم : - انذكر يا جوليان نزهتنا البحرية في مركب الاب
لستيك ؟ وكان جوابه قبلة رشقها بها فوق اذنها ..

كانت العجلة البخارية للمركب تصفع الماء الراكد فتعكر سباته العميق ..
تاركة وراء المركب ثلماً طويلاً شاحباً من زبد تموج فيه الماء جائشة كأنها الشهبان ..
يمتد الى مدى البصر مستقيماً وراء السفينة الماخرة العباب .. وظهرت بغتة سمكة
ضخمة من نوع الدوفين تتوئب فوق سطح الماء ثم عادت فغطست برأسها واختفت
واعترى جان جزع لرؤية الحيوان البحري الهائل فندت عن صدرها صرخة ثم لقت
بنفسها فوق صدر جوليان .. ثم انفجرت ضاحكة من خوفها الصياني وبعثت بناظرها
يرقبان السمكة التي لم تعد تظهر ... ولم تلبث ان عادت تدرع سطح البحر ورفقتها
اخرى من نوعها .. ثم ثانية فثالثة .. كأنها الحاشية تحف بالامير .. وشرعت
السمكات تتراقص وتتواثب حول المركب في ايقاع طروب ..

كانت جان ، وقد افرخ روعها ، تصفق بيديها مستطارة اللب غبطة لدى ظهور
السباحات الرشيقات وشرع قلبها يتواثب بين حناياها كتواثب تلك الحيوانات
البحرية ، في موجة طاغية من حبور صياني مجنون ..

واختفت السمكات فجأة . وعادة فظهرت في عرض البحر بعيداً .. وادرك
جان حزن حقيقي لابتعادها .

وهبط المساء هادئاً ، ساحراً ، مليئاً بألق اخاذ ، ساكناً سكوناً
سعيداً وانياً ..

كان الهواء راكداً فلا يحرك الماء الساجي ... وغمر هذا السجو المهيمن على
المساء والسماء النفوس فاستغرقها استغراقاً بعيد المدى عميق القرار .. وانزلت
الشمس الهائلة الجرم متاهلة ، وثيدة الخطو ، صوب افريقيا المحتجبة وراء سحيف
الافق .. افريقيا ! يا للأرض الالهية ! كأن وهج سعيها يصل اليهم .. الى عرض
المتوسط الازرق .. وهبت نسمة رطيبة داعبت الوجوه عندما اختفت ملكة النهار
وراء ستائر مخدعها المجهول ..!

لم نجد جان وجوليان رغبة في الايواء الى مقرتهما ذات الرائحة الملحة الخائفة بل
تمددا جنبا الى جنب فوق الجسر والتقا بالاعطية الصوفية . وما اسرع ما استسلم
جوليان للسبات . اما جان فاستمرت مفتوحة الاجفان تمتع روحها بسحر الليل
الزاحف فوق صدر البحر منثداً ..

وعلفت انظارها الحاملة بمواكب النجوم التي شرعت تزين صدر هذه العروس
من الزنجم .. السماء ! وتركت لدوي العجلات هدهدة مسامعها بصوتها الرتيب المبهم ..
بالصفاء هذه الليلة وبالسحر سماء الجنوب !

لم تم جان ليلتها تلك الا لماماً . واستيقظت على جلبة وغناء . انهم بحارة
المركب يبدأون يومهم بتنظيف المركب . وهزت زوجها الفارق في نومه
العميق . ونهضا .

توقفت جان قليلا لتعب من الضباب الملح المحجب الكون مل رثتها .. كان
الماء يحدق بالمركب من جميع جهاته .. ومع ذلك فقد بدا أمامهم فجأة شي رمادي
مبهم العالم ، في الفجر الوليد ..

ما أشبهه باكوام من غيوم متراكمة دقيقة رؤوسها ، مزقة اوصالها ، منحطة
فوق زبد الامواج ..

واخذ المنظر يتماثل للوضوح شيئاً فشيئاً .. واتخذت القمم اشكالاً في السماء
المنورة فبدت سلسلة ضخمة من جبال مدببة القمم غريبة الاشكال : انها كورسيكا .
حسنا . وراء خمار رقيق شفاف !

ولم تلبث الشمس ان برغت خلف ظهورهم فأبانت ما ابهى من خطوط الجبال
وتعرجاتها بما الفت عليها من ظلال قائمة ضاربة الى الزرقة .. ولم يلبث النور ان غمر
تلك القمم بفيضه الذهبي بينما ظلت الاقسام المنخفضة من الجزيرة المنفوقة بنقاب من
ضباب رقيق خلاب ..

وخاطب ربان السفينة جان قائلاً : - انشمين هذه الرائحة القواحة ؟

وكانت في الواقع تشم اريج نبات بري فريد معطار ..
وعاد الربان يقول : - انها كورسيكا المزدهرة دائماً هكذا ياسيدي .. انها
حسناً دائمة التبرج فواحة المطور . واني لأميز هذا الارج ولو غاب عن اني عشرين
سنة انه « هو (١) » هنالك .. في سانت هيلين ، لايمل التحدث عن عطر بلاده
الاريج .. كما يخجل الي .. اوّ تعلين اني امت بصلة قرابة اليه ؟!

ورفع الربان قبعته محبباً كورسيكا .. ثم حسي ، باحترام وتأثر عظيمين ،
عبر الاقيانوس ، الامبراطور الكبير . ابن عائلته .. ذلك النسر المهيض الجناح ،
المكبل بالاغلال وراء الامواج ..

وبلغ التأثير من جان مبلغاً اوشكت معه ان تذرف دموعاً سخينة ..
وبدأت الجبال تدبين معالمها شيئاً فشيئاً .. واستطاعوا ، بمعونه الربان ،
تميز جنباتها ... وبرزت المدينة فجأة ، ناصعة البياض ، في اقصى الخليج ، جائئة على
رمال الشاطي المائج تحت اقدام جبال شامخة شماء ...
وكان في الحوض بعض سفن ايطالية راسية . وخفت الى سفينتهم اربعة او
خمسة زوارق لتقل الركاب .

وسأل جوليان زوجته وهو منهمك في اعداد امتعتها : - الاترين ان عشرين
فرشاً تكفي كمكافأة للخدم ؟

انه منذ ثمانية ايام لا ينفك يحرجها بمثل هذه الاسئلة . واجابته وقد فرغ صبرها :

نابوليون بوناپرت

- عندما لا تكون واثقاً من كفاية ما تدفع ، ادفع مبلغاً اكبر .
كان دون انقطاع يشترك مع خدام الفنادق والحوذيين والبائعين من كل نوع ،
في جدال ونقاش فاذا ظفر ، نتيجة لمساومته العنيدة ، بتنزيل جزء من المبلغ ، قال
لجان وهو يفرك راحتيه اغتباطاً :
لا أحب ان أسرق !

كانت ترتعش عندما يقدم لها حساب ما . فهي واثقة من ان نقاشاً ومساومة
سينشبان على كل نبذة ، فكانت تكاد تذوب خجلاً ويتخرج خدوها تحت نظرات
الاحتقار يرشقها بها الخدم الذين يجدون زوجها بأعينهم شذراً وقد أطبقوا الأكف
على هباته الهزيلة ..

ولم يسلم صاحب الزورق الذي أفلحها الى البر من مثل هذه المساومة .
ووقعت انظارهما ، أول ما وقعت ، على نخيلة من نخيل الشاطئ ...
ونزلا في فندق وطلبا الغداء فوراً ، والفندق واقع في طرف ساحة فسيحة
دانية من الشاطئ . وما فرغوا من تناول الفواكه حتى نهضت جان وبودها لو
تطوف في ارجاء المدينة غير ان جوليان اخذها بين ذراعيه وهمس في اذنها بركة :
- الا ننام يا قطي ؟

وفغرت فاما دهشة وقالت : - ننام ؟ ولكنني لست تعبة مطلقاً ! ..
وتشبث بها وتابع يقول : - ان بي اليك لرغبة . أو تفهمين ؟ منذ يومين لم !!
وتلعثمت وقد غمرت الدماء وجنتها :

- آه ! الآن ؟ ! ولكن ماذا يقولون عنا ؟ ماذا يظنون بنا ؟ كيف ستطلب
اعداد الغرفة في رابعة النهار ؟ آه ! جوليان ! ارجوك !

بيد انه لم يصبر عليها : - لا اهتم بما سيقولون به . سترين كم انا متضايق !
وقرع الجرس .

ولاذت بالصمت وعيناها الى الارض ، كان التمرد في روحها وفي جسدها لا يفتأ
يتحرك امام رغبات هذا الزوج التهم ، ولم تكن لتليبه الا بقرف ، متنازلة عن كل

شيء ، مهانة في انوثتها فهي لا ترى في هذا العمل ، كما يمارسه هو ، الا معنى حيوانياً منحطاً ... نوعاً من القذارة ..

كانت حواس جان ما تزال نائمة ومع ذلك فقد عاملها زوجها كما لو كانت تقاسمه رغبته .

وحضر الخادم فطلب اليه جوليان ان يقودها الى غرفتها ، الا ان الخادم الكورسيكي الغدير الشعر ، الكث اللحية ، لم يفهم مرمى جوليان فاجاب ان الغرفة لن تكون معدة قبل الليل .

وأوضح له جوليان قائلاً : - كلا تريدنا الان ، فقد أورتنا الرحلة تعباً ونود ان نستريح .

وطافت بشفتي الكورسيكي ابتسامة بيناودت جان لو انشقت الارض وابتلعتها .. وعندما هبطا بعد ساعة كانت جان تتعاشى النظر الى من صادفهم واثقة من انهم سيتغامزون ويتهايمسون وراء ظهرها ، ووجدت في قلبها على جوليان لأنه لم يدرك واقع الامر ، لم يقدر ما فيها من خفرو حساسية وغريزة مهذبة ، وشعرت كأن حجاباً انسدل بينها ، كأن حاجزاً قد رفع بين قلبيهما ، لقد ادركت هذه الساعة انها شخصان لم يستطيع احدهما النفاذ الى مكنونات صدر الآخر ولم يتمكن من سبر اغوار روحه ، انها يسيران اغلب الاحيان جنباً الى جنب ، متغاضرين الا انها غير متمازجين .. وان شخصية كل منها ستظل ، طوال الحياة ، مفردة لارفيق لها . أقاما ثلاثة ايام في هذه المدينة المختبئة في زاوية ذلك الخليج ، وقد أسدت الجبال من حولها ستاراً يحول دون هبوب الدسام المملقة لسعيير جوها الخائق ، ومن ثم ربما الحطة لمتابعة رحلتها ، وكيلا يضطرا الى التلصص امام ما يعترضها من عقبات في الطريق قررا استئجار جوادين من جياذ كورسيكا ذات العيون الغضبي ، الضامرة من الشدة والقوة .. واتخذا سبيلهما ذات صباح عند بزوغ النهار يرافقهما دليل يركب بفلاً يحمل لهما زادهما فالغنادق فادرة الوجود في هذه البلاد البدائية . وقطعا ارضاً قاحلة في معظم بقعها ، وكثيراً والتقيا بجبلي راكباً جواداً او

مقتعداً ظهر اتانه يحمل بندقيته المحشوة وقد علاها الصدا الا انها ، في كفه ، سلاح رهيب .

كان الهواء كثيفاً بأريج النباتات البرية الفواحة ، وبدأ الطريق يتسلق بهما جبالا وعرة المسالك والدليل يشير الى القمم ويسميا لهما ، ويرفع العروس انظارهما دون ان يتوصلا الى تمييز شيء مما اشار اليه الدليل ، وبعد لأي تقع منها الانظار على كوم من صخور جرداء معلقة فوق احد المنحنيات ، انها احدى تلك القرى المستقرة في الاعالي كأنها عش طائر ضائع في مغارات الجبل الوعر الشعاب .

وانتدعت بمطيتها دون ان تنتظر جواب زوجها ، بيد انها لم تلبث ان جذبت العنان وتوقفت ذلك انها لم تسمع وقع سنايك جواد زوجها فاستدارت تستطلع جلية امره .. وانفجرت ضاحكة يجتون اذ لمحت محاول عبثاً الر كض بجواده وقد شعب وجهه وتشبث بعرف جواده المتواثب بشكل غريب . وبما ضاعف الصورة الهزلية التي بدا عليها ، جمال طلعتة واستقامة فرعه كالفـسان ..

ولما ادر كها سار الهيدبي في طريق مسطحة تعبر بين غابتين متراميتي الاطراف تمتدان فوق الشاطي ، فتكسوانه كأنهما المعطف السابغ ؛ انها أدغال كورسيكا الشهيرة حيث تغبت جميع ضروب الشجر مشكلة فوق سفوح الجبال معاصياً لا يمكن ولوجها .

وأدر كها السغب فقادهما الدليل الى احد تلك الينابيع الكثيرة في البلاد الجبلية كان التبغ خيطاً دقيقاً من ماء مثلج يخرج من قلب الصخر ويسيل من ميزاب هو ورقة كستناء عريضة ركزت فيه بحيث يتاح للشارب تناول الماء بفعه .
وشعرت جان بسعادة عظمية لم تتوصل معها الا بجهود كبير الى كتات صيحات السرور .

وعاودوا في الاصيل ، سيرهما فاجتازوا قرية « كارجيز » التي بناها جماعة من اللاجئين اليونانيين المبعدين عن وطنهم .

كان العابر ينبع القرية يشاهد عصابة من فتيات حسناوات ممشوقات القوام
أنبيقات الملبس ذوات فتنة خاصة ، والقى عليهن جوليان تحية المساء فأجبنه بنغم
موسيقى بلغة وطنهن الأم .

وبلغا قرية « بيافا » وكان عليهما ان يستضيفا احد السكان كفعل المرء في
العصور القديمة أو في البلاد المجهولة .

وهز السرور جان اذ رأت الباب الذي طرفاه يفتح امامهما ، انها رحلة بكل
ما تحمل الكلمة من معان ، كان البيت لعائلة صغيرة استقبلتهما كما يستقبل رجل الدين
مبعوثاً لهيا ! ووفر لهما مضيفوهما فراشاً من قش الذرة في احدى زوايا بيتهم
العتيق المشاد بالخشب النخر .

ولما اصبحا تابعا رحلتها فعبرا بغابات خلاصة الجمال ، رائعة الجلباب ، تقعم
جوها موسيقى ساحرة تنبعث عن ألوف الاطيار المجهولة .. فكأنها بما هي عليه من
سحر أخاذ ، مسرح للاشباح أبدعه خيال احد الآلهة الافاقين ...

ولزمت جان الصمت المطبق العميق .. ثم تناولت يد جوليان وجذبتة اليها !
انها تبتغي العب من معين الحب امام هذه الطبيعة المتبرجة المزدانة باروع ما ابداع
الحالق من فائن خلاب !

وتابعا سيرهما فاشرفا بعد ساعة على خليج جديد شاطئاه من صخور ظرائية
حمراء تلتصع امام زرقة الماء اللازوردي .

ونمتت جان : - اوه ! جوليان !

ولم ترد وقد اخذت بمشاهد الطبيعة الفاتنة فكأن يداً تضغط عنقها فلا تقوى
على الكلام ..

وتدحرجت دمعان فوق خديها . فنظر اليها جوليان دهشاً وهتف :

- ماذا بك يا قطني الجميلة ؟

وامرعت تمسح خديها وتبسم وتقول بصوت مرنجف النبرات :

- ليس بي شيء .. لقد اثارَت الطبيعة كوامن اشواقى .. لست ادري ..
 في الواقع .. ما بي لشد ما انا سريعة التأثير بانفقه الاشياء ..
 لم يفهم لتأثيرها معنى ، هذا التأثير السريع الذي يدم قلوب هذه المخلوقات
 الحساسة فيحرقها بفتنة ... او يروغها بقسوته . لقد وجد في دموعها سخفاً . وقال
 وقد انصرف بكلية الى الاحتراز من وعودة الطريق :
 - نحسنيين صنعاً لو راقبت جوادك .
 وتابعا سيرهما في طريق تكاد تكون غير مطروقة قبلاً بغية بلوغ الخليج ثم
 انعطفاً يمينا فاجتازا وادي « اوتا » المظلم .
 وبدأت الطريق مخوفة مخوفة بالاحطار ، اقترح جوليان ان يهبطاها ماشيين .
 ولم تكن جان ترجو خيراً من ذلك . فلشد ماسرها ان تمشي ، ان تنفرد
 برجلها بعد ان بلغت اعصابها من التوتر غايته ..
 وتقدمها الدليل ببغلة والجوادين وسارا هما بخطى وثيدة .
 كان الجبل المتهدم القمة بنفتح امامها فيمر به الشريك محاطاً بجدارين هائلين
 ينحدر فوقها سيل عارم .. وقد بدت لها البقعة الزرقاء فوق رأسها مدهشة عجيبة .
 وانتفضت جان اذ صلت مسمعيها حركة فجائية بالقرب منها . انها صادرة عن
 طائر اقلقه وقع الخطى فانطلق من احدى ثغرات الجبل . انه نسر واسع الجناحين
 حتى لكانها موشكان على ضرب جانبي المقازة .. ولم يلبث ان حلق عالياً في الفضاء
 الازرق وغاب عن ابصارهما .
 كانت جان تسير في الطبيعة خفيفة رشيقة تتطاير الحصى تحت قدميها .. وكان
 جوليان يقتفي خطواتها لاهثاً وعيناه الى الارض خشية التعثر .
 وغمرتها الشمس فجأة اثر بروزها من فرجة النفق . واحسا عطشاً . ووقعت
 منها الاعين على نبع قريب فاسرعا اليه . وركعت جان فوق ركبتيها وراحت
 تعب من مائه العذب النير . وفعل جوليان فعلها .
 ودنا جوليان منها ، اذ كانت منصرفة الى ورود الماء ، ولف بذراعه حصرها

اللدن .. وحاول تقبيلها فأبدت مقاومة فكانت شفاهها تلتقي وتتنافر .. ثم
تعمد الى ميزاب النبع فتعضه محاولة للتشبث به لحماية شفثها من فم جوليان النهم
فكان خيط الماء الدقيق يتجاوز به الفم فيتكسر فوق الشفاه ثم يعود الى تماسكه
متناثر القطرات فوق الوجنتين والعنقين والذراعين والشياب ، وغلقت بشعرها
قطرات منه كأنها اللؤلؤ .. وجرعت مع الماء السلسيل قبلات رجلها فوجدتها ،
المرة الاولى ، حلوة المذاق ..

وشعرت جان بغتة بنداء الحب ! وافهمت جوليان ، وثغرها الى ثغره ، انها
تريد منه ان ينقع غليلها ..

والفت برأسها الى الورا متطاولة بعنقها الاتلع تاركة شعرها الساحر ينسدل
فوق منكبيها في استرخاء اخاذ واستسلام مثير .. وباعدت بين ذراعيها .. وخف
اليها جوليان واحتواها بين ذراعيه واحتملها الى رابية معشوشبة .. وعب من
جمالها ماروى غليلها معاً ..

واستندت جان رأسها الى صدره بدل ناعم وفؤادها مسرع في وجيبه ،
ونهداها يرفان وجفناها متكسran كأنما قد بللا ماء .. وتمتم بصوت خفيض :
- جوليان .. اني احبك .

وعاد يجذبها الى صدره فاستلقت وقد اخفت براحتها وجهها المخرج خفراً ..
واحتواها مجدداً بذراعيه بشوق لاهب .. كانت لاهة الانفاس مقيمة بالانتظار ..
وطال بها المسير حتى بلغا القمة فقد كانت جان مأثرال مرتجفة الاوصال راعشة
الاطراف ولم يبلغا « ايفيزا » الا مع المساء الملبط حيث استضافها قريب لدليلها
يدعى « باولي بلايديتي » فادهما مضيفها الى غرفة خصصها لهما ، غرفة حقيرة مشادة
بحجر عار الا انها فريدة بالنسبة لهذه البلاد حيث يقيمون في منجاة من الافة
والرفاهية . وشرع المضيف يحدثها بعاميتها الكورسيكية ، هذا المزيج من الفرنسية
والايطالية وقد فيها من حديثه انه يرحب بها وينزلها على الرحب والسعة . وظهرت
فجأة لهما سيده سمرء ذات عينين سوداوين كبيرتين وبشرة حارة وقامة قصيرة

وضحكتما لانفارق نغرها تاركة لاسنانها سييلا الى الظهور وبشكل دائم ودنت من جان فقبلتها وشدت يد جوليان ثم قالت : - عمي مساء ياسيديتي . عم مساء ياسيديتي
كيف انتما ؟

وتناوات القبعات والمعاطف والشالات وامرت زوجها ان يتقدم الضيفين
فيروهما القرية وصدع الرجل بالامر وسار بهما لايفتك يحدثها بلهجته العامية الغريبة .
وتوقف فجأة وقال : - في هذا المكان قتل « ماتيلوري » ابن عمي جان . كنت
بالقرب منه . وعندما ظهر ماتيو على عشر خطوات منا صاح بجنان : - جان !
لاتذهب الى « اللبراكس » او اقتلك . اقول لك !

وامسكت بذراع جان وقلت : - لاتذهب يا جان . انه خليك بتنفيذ وعيده !
واذا سألتما عن سبب ذلك ففتاة علق بها الشابان .
ولم يقبل جان التهديد فصرع بصرخ : - سأذهب ياماتيو . انك لن تستطيع منعي
وعندئذ خفض ماتيو بندقيته ، قبل ان يتاح لي سبقه الى ذلك ، واطلق النار
وسقط جان واختفى ماتيو بين أشجار الكستناء .. هناك .

وحقق العروسان بشاهد هذه الجريمة النكراء بمزيد من الدهشة .

وبعد لحظة صمت سأله جان : - والقاتل ؟

وسعل المضيف وقال : - لقد لجأ الى الجبال . ولم يستطع اخي قتله الا في
العام المنصرم . لاشك في انكما قد سمعتما باخي : الشقي فيليب بلابريني .
وارتعشت جان وقالت : اخوك ... شقي ؟

وطافت اياما من كبرياء فوق جبين الكورسيكي الرزين وعاد يقول :

- اجل ياسيديتي . انه شهير هذا الشقي . لقد تمكن من صرع ستة من رجال
الامن . وقد قضى هو ونقولا مررالي بعد ان حوصروا ستة ايام في (بنولو)
واستمر في كفاحها حتى اوشكا ان يقضيا جوعاً . ثم اضاف بنبرة طبيعية :

- ان طبيعة البلاد تتطلب مثل هذه الاعمال .

قال هذا بنفس اللهجة التي يقول فيها : - ان هواء الوادي طري منعش كما تران !

ثم عادا لتناول العشاء فاستقبلتهما الكورسيكية الصغيرة كما لو كانت معرفتها
بهما تعود الى عشرين سنة خلت . بيد ان قلقاً عاد يعكر صفو هناة جان : اترأها
ستشعر في مقبلات الايام بتلك الرعشة السحرية التي هزتها هزاً عنيفاً ، وهي بين
ذراعي جوليان ، فوق المنحني المعشوشب قرب النبع ؟!

وارتجفت اذ انفردت به في الغرفة ووجدت ان قبلاته لم تعد تحرك فيها عصباً
ما .. الا انها سرعان ما استعادت رباطة جأشها .. وكانت تلك ليلة غرامها الاولى ..
وودت ، في الصباح ، عندما ازمعا السفر ، لو لم تفارق هذا المنزل المتواضع
الذي عرفت فيه معنى جديداً للحب لاعهد لها به من قبل . وقبل ان تتحرك بها
المطايا دعت مضيفتها وسألتها عما تود ان ترسل اليها من باريس لدى مرورها فيها
بطريق العودة فرفضت المرأة الكورسيكية عرض جان بادى بدء الا انها نزلت
أخيراً عند الحاحها .. وكما كانت دهشة جان عظيمة اذ طلبت اليها الكورسيكية
الشابة اهداءها مسدساً صغيراً تقتل به اخا زوجها .. واوضعت لجان قائمة :

— ان زوجها لا يعرف الغيرة . لأنه مريض وبارد الطباع ، اما اخوه فشديد
الغيرة نيابة عنه .. وبالرغم من انها امرأة لاغبار على سلوكها فان اخ زوجها
يلاحقها بمراقبة صارمة وقد توصل الى طعنها بخنجره في ذراعها فاوشك ان يقطعها .
ولذا فقد قررت الانتقام منه ، ووعدتها جان بارسال السلاح عندما تظا قدمها
أرض باريس .

وتابعها رحلتها .. ولم تكن البقية من هذه الرحلة الا حلماً مذهب الحواشي ،
واستكانة محبة لذيدة ، ونشوة تتمشى كالحلم في الاوهال .. وفقدت جان لاستغراقها
في احلامها ، كل اهتمام بما تصادف من مناظر أو اشخاص أو اشياء .. كانت عينها
معلقين ابدأ بجوليان .

وبدأت كؤوس الهوى المترعة تتبادلها شفاهها .. فكأن قلب جان قد
استفاق بعد ان طال به المبعوع .. فاذا تخاطبا فبتلك الالهام المصغرة المحببة ، بتلك
الكلمات السخيفة اللذيذة .

وكان عليه ، عندما بلغا (باستيا) ، ان يحاسب الدليل لبصره ، فراح يبحث في جيوبه فلا يجد ما هو بحاجة اليه من نقود ، فتوجه الى جان قائلاً :
- بما انك باعزيزتي ليمست بك حاجة الى الالفى فرنك التي اعطتك اياها امك ،
فها هنا فهي في محفظتي اكثر اماناً فضلاً عن انها توفر على البحث عن نقود صغيرة كلما
كنت بحاجة الى ذلك .

وناوثة المبلغ لم تثبت بينت شقة .

وبلغا « ليفورن » وزارا فلورنسا وجنوا وكل الشاطيء .
وذات صباح ذي ربيع شمالية بلغا مرسيليا . وكان قد مضى شهرات على
مغادرتها قصر (بوبل) فنحن الآن في منتصف تشرين الاول .
وشعرت جان بانقباض عندما لفتتها الريح الشمالية الباردة الانية من بعيد ،
من نور منديا ، كما ان جوليان بدا ، منذ مدة ، متغيراً ، تعباً ، بارداً في علاقاتها .
وادركها ما يشبه الخوف دون مبرر منطقي . لقد خيل اليها انها انتهت من
جولة سعادتها .

وواصل سيرهما اخيراً .

وكان عليهما ان يبتاعا من باريس كل ما يحتاجانه من حطام ضروري لسكناهما
نهائياً في القصر . وسر جان ان يتاح لها شراء كل ما ترغب في اقتنائه بفضل هدية
امها . وكان اول ما خطر لها ان تبر بوعدها لمضيفتها الكورسيكية في (افيزا) .
وخاطبت جوليان قائلة :

- تكرم باعزيزي بارجاع النقود التي وهبتي اياها امي اذ ان بودي ابتياع
بعض الحاجيات .

والتفت اليها بوجه علاه الانزعاج وسألها : - الى كم تحتاجين ؟

وجمدت امام لهجته وتمتمت :- ولكن .. اعني .. كما تشاء ..

فتابع : - سأعطيك مائة فرنك شريطة الا تبذريها .

ولم تحر جواباً لما اعتراها من دهشة واستغراب .

وأخيراً توصلت الى ان تقول متلعثمة : - ولكن .. لقد اعطيتك
نقودي .. كي ..

ولم يتركها تسكن : - صحيح تماماً .. لكن مجوزتك او مجوزتي .. شيء
واحد ! فهل ثمة فرق بين جيبك وجيبي .. وانا لا املك منها بدليل اعطائي إياك
مائة فرنك ..

وتناولت القطع الذهبية الخمس دون ان تضيف كلمة واحدة .. الا انه لم
تجرؤ فيها بعد على طاب شيء . واكتفت بشراء المسدس وارسلته الى مضيفتها
الكورسيكية واتخذت طريقها بعد ثمانية ايام متجهين نحو « بوبل » .



الفصل السادس

كانت العائلة بومتها ، والخدم جميعاً ، باستقبال العروسين ، وفوقاً امام السور الابيض ذي العوارض القرميدية الحمراء . وتوقفت عربة البريد . . . وكانت عناق طويل . . . ودموع غذار فاضت بها في مآقي الام . . . اما الأب فكان متجلداً يزرع الارض بخطاه العصبية .

وتحدثت جان ملياً . فجاءت على ذكر كل شيء خلال نصف ساعة ما خلا بعض التفاصيل الصغيرة التي تغرب عن الذاكرة لاحالة في مثل موجات السرور العاجلة هذه .

وانصرفت الزوجة الشابة الى افراغ حقائبها فخفت لمساعدتها الوصيعة روزالي بالغة التأثر . . . وبعد فراغها ذهبت روزالي الى شأنها بينما انحطت جان فوق أحد المقاعد وقد احست تعباً يهدجسها .

وتساءلت عما عمله . انها تبتغي ما يشغل روحها ويدها . . . ولكن عبثاً بحثت ، ولم تشعر رغبة في النزول الى الردهة حيث تهوم امها فوق مقعدها المريح . وفكرت بالقيا بنزهة الا ان الطبيعة كانت من الكآبة بحيث اثارت نظرة واحدة عبر النافذة كوامن اشجان قلب جان الفتي .

وادركت الآن ان ليس لها بعد اليوم ما تعمل . . . صحيح ان صباها المسجون بين جدران الدير قد امتلأ بجهودها لاعداد مستقبلها . . . فكانت احلامها بمحنة خلافة . . . وقد ملأ فواج هذه الاحلام ماضها بالذكريات الغوالي والاماني العذاب . . . الا ان احلامها لم تلبث دفعة واحدة ان تحنقت فور خروجها من اسر تلك الجدر القوائم . لقد التقت برجلها فاحبته وأملته وتزوجته . . . لقد تم كل ذلك بمثل ايامضة

لم تترك لها مجالاً للتفكير او وقتاً للتلذذ بطعم آمانها المحققة ..
وهاهو ، الواقع العذب ، الذي عرفته في ايامها الاولى ، قد غدا عادة يومية
ملازمة فقدت معه كل تلك الآمال العريضة المترامية الابعاد ..

لم يعد لها ماتفعلة اليوم ولا غداً ولا بعد غد .. وعزمت على الخروج بعد ان
تأملت فترة قصيرة السماء حيث تطوف سحجب قائمة جامحة ..

اهذا هو الريف باعشابه واشجاره ؟ اهذه هي البوابة التي عرفتها في شهر ايار
المنصرم ؟ ماذا دهمى الاوراق الرخصة المغمورة بأشعة الشمس البازغة في الاصبح
النديبة ؟ وأين ذلك النفع الشمري الذي كان كامناً في المروج الخضر المنتعمة فيها
أزهار كأنها نجوم السماء ؟ أين الشقيق القاني كالنجيب ؟ الافحوان الأنور ؟ أين تلك
الفراسات الصفر المعلقة في أطراف خيوط سحرية لاترى ؟ أين تلك الارتعاشات التي
تبعثها في الاوصال هبات النسيم المشعونة بنشوة الحياة وسحر الوجود ؟ وأين ..
أين ذلك الارج الفواح المتغلغل حتى أعماق الصدور ؟ .. انها لاتجد لكل ذلك
أثراً .. لقد مضى ذلك العهد الاخضر المغناج ! ..

كانت المماشي مكسوة ببساط أصفر من أوراق الخريف الذاوية وقد بللها
المطر .. مطر تشرين والرياح الصرصر ترعش الحور فتوتقص هياكله العارية المنتصبة
كأنها الاعمدة الفقرية العملاقة ! وكانت بقايا من أوراق الربيع معلقة في أطراف
الأغصان الراءشة وقد جارت عليها يد الخريف فامتصت دماءها الخضراء واستنزفت
حيويتها البليلة .. فكانت لاتنفك تتطاير في الفضاء الرمادي وكأنها ، لصفتها ،
تقود ذهبية كبيرة .. تدور وتدور ثم تنأوى مترافضة كارتقاص الطائر الذبيح ..
اما الجدر الخضر التي كانت بهيجة المنظر فقد تعفرت وقبحت في كل عين .. واذا
هبّت الرياح اصطكت الاغصان العارية كاسنان المقرور .. وتهاوت الاوراق في
خشيش كعشيرة المغالب سكرات النزاع .. وثمة طيور صغيرة مذعورة تقفز من
غصن عار الى آخر مطلقة صرخات قصيرة باحثة عن ملجأ لها يحميها غائلة الخريف الداهم !
وسارت جان بخطى وثيدة عبر الممشى الذي اعتادت الأم التنزه فيه ..

واحسنت شيئاً يحثهم فوق صدرها كأنه حدس عن حياة سأم وملل بدأنها .
وجلست فوق الرابية التي حدثها فوقها جوليان للمرة الاولى حديث الحب . .
ومكثت هكذا مهومة مع أحلامها لا تفكر بشي' معين وقد تغلغل الانقباض حتى
اعماق سويداتها . . ودهمتها فجأة رغبة في الاستسلام للنوم نخاصاً من تعاسة يومها .
ولحمت بغتة طيراً بحرياً حملته الزوبعة فذكرها منظره بالنسر الذي رآته
هناك في كورسيكا يعبر فضاء وادي (اوتا) المظلم . وانتفضت في أعماقها كتلك
الانتفاضات التي تدهمنا اذ نستعيد ذكريات عذاباً قد انقضت .

وعادت الى مخيلتها مشاهد الجزيرة الخلابة وعبت في أنفها نشرها البري المعطار
وغمرها فيض من أشعة شمسها الالهة التي تنضج البرتقال والليمون ، وتوات لها
جبالها الموردة القمم وخلجانها الصافية الزرقاء وانهرها الثروة ومساقط شلالاتها العارمة . .
واستفاقت من هذه الرؤى لتعود الى واقعها المقبض . . وسرعان ما حثت
خطاها الى غرفتها وهي تكبت بجهد دموعاً أوشكت تنسال من مآقيها المقرحة . .
ولم تنتبه اليها امها الغارقة في تهويمها أمام وهج المدفأة وقد اعتادت قضاء مثل
هذه الاوقات الكثيرة .

كان البارون وصهره يتنزهان وقد غرقا في حديث مشاغلهما اليومية .
وهبط الليل فغمر الردهة الواسعة بظلاله الكثيفة المقبضة . . لا يخترقها سوى
ومضات نار الموقد المتراقصة اللسن .

كانت بقية من ضياء لا تزال تنير المناظر الرمادية اللون في الخارج فبدت
المريثيات تحتها كأنها لطمخت بالاحوال . ودخل البارون وجوليان . وقرع هذا
الاخير الجرس ونادى :

عجلوا ، عجلوا بالنور . ما أشد كآبة هذه الحجرة هكذا !
وجلس أمام المدفأة وراح يفرك راحتيه بارتياح . وقرب من النار حذائيته
المبتلين فتصاعد منها بخار خفيف وأخذت قطع الوحل بالنساقط عنها بعد ان
جففها وهج النار .

قال البارون : - اذهب ظني ان السماء مثليج فقد بدأت تنكشف في الشمال ..
والبرد التام في مثل هذه الليالي القرة . انها أدلة على قرب تساقط الثلج .
واستدار الى ابنته وقال : حسناً ابنتي الصغيرة . امسرة انت بعودتك
الى بلادك ومنزلك بالقرب من أبويك الشيخين ؟

كان هذا السؤال العابر كافياً لاثارة أشجان جان فما كان منها الا ان اقلت
بنفسها بين ذراعي ابيها وقد فاضت بالدمع عينها وراحت تعانقه بعصبية ..

انها رغم كل جهد بذلته ، لم تتوصل الى التخلص من أحزانها العميقة وانقباض
صدرها البعيد الغور فكرت بما ينتظرها من مباهج وعدت قلبها بها اذ تعود الى كنف
البيت الابوي .. ولشد ما ادهشها برودها ونحوها وهذا الشلل الذي أصاب عواطفها
كما يحدث للمرء اذا ما فكر كثيراً باغراء شط بهم المزار وطال بهم البعاد حتى فقد
اعتياده على رؤيتهم اليومية فاذا ما عاد اليهم أدركته أول أمره خيبة أمل لا يلبث
ان يتخلص منها عندما يستعيد الفته لهم .

واستمر العشاء طويلاً . وكان الصمت مخملاً فكان جوليان قد تناسى زوجته .
واسامت جان نفسها لما تبعته نار الموقد من دفيء لذيذ . وكانت أمها مستغرقة
كمعادتها في نومها الهنيء بالقرب منها . ودنا البارون من الموقد وعرض راحته للوهج
القوي وقال :

- انها نار طيبة هذه الليلة ! الجو مثليج يا أولادي .. مثليج .

ثم القى بكفه فوق كاهل جان وقال مشيراً الى النار :

- أرين ابنتي الفتاة . ان أجمل ما في الحياة موقد .. موقد تنظم اليه قلبه ..

لا شيء يفوقه جمالاً ... ولكن .. اما أن لكما ان تأويا الى غرفتي كما فانتما ولا ريب
متعبان يا ولدي .

وساءلت المرأة الشابة نفسها وقد خلت في غرفتها : كيف يمكن ان تختلف
اوبتان الى مكان واحد محبوب ؟ ما هو مبعث هذا الشعور المقبض ؟ هذه التعاسة ؟
هذا الهم الذي يحتم فوق صدرها ثقيلاً حتى ليبدو كل شيء مثيراً للأعصاب ؟

والليرة الأولى بعد زواجها اوت وحيدة إلى سريرها فقد اتخذ جوليان لنفسه
غرفة أخرى مدعياً التعب ، فضلاً عن انه كان من المقرر مسبقاً ان يكون لكل
منها غرفته الخاصة .

وجفاها النوم طويلاً . . . ولشد ما استوحشت اذ لم تشعر بجسد يلتصق
بجسدها حقاً لقد فقدت عادة النوم منفردة . . وتعاونت الريح المعولة فوق السطرح
مع استيعاشها على طرد النوم عن جفניה وابعاده عن مضجعها .

وانعما التفكير فاستسلمت للرقاد وقد تصرم من الليل اكثره . . ولم تستغث
الا في الصباح عندما غمر سريرها نور قوي فصبغه بلون الارجوان . . وبدأ زجاج
نوافذها انحر قرمزيًا وقد غطته بلورات الجمد فسكان الأفق كله قد انتقل اليه . .
ووثبت من فراشها وتجليبت بمعطف سابغ وخفت الى النافذة فتفتحها فهبت
نسمة مثليجة نقية لاذعة دخلت الغرفة وصافحت بشرتها فتمشت في أوصالها برودة
حاددة أجرت الدمع من عينها . .

كانت شمس هائلة الجرم ، منتفخة الأوداج ، كأنها وجه الثمل ، تصعد في
سماء قرمزية تبرز بقع منها خلال الاغصان العارية في حديقة القصر .

أما الأرض فقد غطتها طبقة من جليد صلب كانت تنكسر وتنسحق تحت
وطأة اقدام الفلاحين وراء الأسوار . . .

كانت اللبنة المنصرفة كافية للاطاحة بكل ماتبقى من أوراق الحور من فوق
أغصانها . . . ووراء الأرض المنبسطة بدا خط الامواج مخضراً تشوبه بقع بيض
من زبد راغ .

وبعد ان طال بها تأمل هذا المنظر الفريد مشتب الى غرفة المائدة .

وانقضى اليوم كسابقه في تلكؤ وبرود .

وكذا انقضت ايام الاسبوع جميعاً . .

وشيثاً فشيثاً خف حنينها الى الآفاق المجهولة التي طالما حلمت بها . . وشعرت
برغباتها تنصاع للواقع وترضى بالملوس . لقد غلفت عاداتها الجديدة حياتها كما تغلف

الماء الساخنة ما تغمره بطبقة من كلسها .. فتولد عندها اهتمام بالوف الاشياء
اليومية التافهة ، وتبلور في أعماقها نوع من السكابة الحاملة ، وضرب من التبدل الغامض
ما الذي هي بحاجة اليه ؟ ما الذي يتبعه ؟ انها لا تعرف .. انها تريد شيئاً تجهل كنهه .
انها لا تشعر احتياجاً الى أي شيء مادي ولا عطشاً الى أية مسرة حتى ولا إلى تلك
المباهج السهلة المتألمة . ماذا بها اذا ؟ وكما حال لون المقاعد القديمة في الردهة مع مرور
الزمن هكذا فصلت ألوان الحياة بناظرها وبدأت تحجب ثم اتخذت شكلاً
كثيباً شاحباً .

أما علاقاتها بجوليان فقد طرأ عليها تغير كلي . فلشد ما تبدل بعد رجوعها من
شهر العسل فكأنه الممثل يعود الى وجهه الطبيعي بعد ان فرغ من اداء دوره .
فهو لا يسكاد يعيرها أي اهتمام فلا يكلمها الا لماماً أما الحب فقد زال كل أثر له من
علاقاتها .. وما أقل الليالي التي كان يمضيها في غرفتها !

واستندت اليه ادارة الثروة والبيت معاً . فكان يراجع الحسابات ويرفق
الفلاحين ويضغط النفقات .. وقد اتخذ سممة المزارع النبيل ففقد رونقه واناقته كما
عهدته جان يوم تحابا انه لا يخجل عنه ثوب الصيد المحملي القديم ، المرصع بالبقع ،
ذا الأزرار النحاسية الصدف وقد عثر عليه مهملاً في خزانة ثيابه صدفة يوم كان
عازباً .. واكتسب عادة الأشخاص الذين لا يهمهم إرضاء الغير بمظهرهم فاهمل حلاقة
لحيته التي طالت بشكل غير منظم فاضفت عليه سيقابح لا يصدق ! كما فقد عادة العناية
بيديه . وبدأ يشرب الخمر فهو يجرع منها أربعة أو خمسة كؤوس مع كل وقعة .

ولما حاولت جان توجيه بعض الملاحظات الرفيعة اليه أجابها بشراسة :
ألا دعيني وشأني .

فانقطعت عن تقديم النصح اليه وفقدت كل اهتمام به . وتم هذا الانقلاب في
نفسها بسرعة أدهشتها هي . لقد أصبح زوجها غريباً بالنسبة اليها . غريباً حتى ان
قلبا قد اورد دونه . وكثيراً ما كانت تفكر وتساؤل نفسها كيف امكن ان
يتم ذلك بعد ان التقيا وتحابا وتزوجا بدافع واحد هو الحب .. ليكن ان تعتبره

مجهولاً من قلبها كأنه لم يقامها فرأى قبل اليوم ؟ وكيف لا يعمل هذا المجران
 فيها إبلاً ؟ أهى الحياة هكذا ؟ أم تراها قد خدعا ؟ اهذا ماخبأه لهاغدها المأمول ؟
 ولو ان جوليان احتفظ باناقته ورقة حاشيته وجاذب روحه لكان ألمها مضاعفاً ! ..
 وكان من المقرر ان يقيم الزوجان في القصر بمفردهما بعد رأس السنة اذ ان
 الأب والام سيقصدان روان فيقيان في بيتها هناك . أما الزوجان الشابان فعليهما
 ألا يغادرا القصر هذه السنة كيما يتفرغا الى اعداد سكنها فيه واعتياد الحياة الجديدة
 والامتزاج بالمسكان الذي سيقضيان فيه الحياة كلها . وكان لهما جيران قدم جوليان
 لهم زوجته فتم بينهم التعارف . أما الجيران فهم آل برزفيل و كوتيليه وفورفيل .
 غير ان الزوجين الشابين لم يقوموا بزيارتها لهؤلاء الجيران بسبب عدم صلاحية
 عربتهما وحاجتها الى طلاء جديد . واستقدموا اخيراً من قام لهم بالطلاء ، وشاء
 جوليان مدفوعاً بحبه للاقتصاد ، ان يحدث فيها اصلاحات جديدة وتغييرات هامة
 فقد أحال الحوذي القديم للعمل بالبستان وشرع هو نفسه يقود العربة ولما كان لابد
 من شخص يسك باعثة الجياد عندما يغادر العربة ركبها فقد اتخذ جوليان لهذا العمل
 خادماً صغيراً يدعى ماريوس . ومهد جوليان كذلك الى بيع جوادى المركبة
 ليوفر غذاءهما بعد ان استنبط طريقة فذة لاستدراك هذا النقص وهي ادخاله في
 عقد إيجار خادمين من خدمه مادة تنص على تقديم جواد من قبل كل منهما مرة في
 الشهر وبالتاريخ الذي يحدده هو .

وهكذا جاءه الاول بجواد ضخم الجثة أصهب اللون والثاني بفرس طوبلة
 الوب صغيرة الجرم .. وشد الحيوانان الى المركبة جنباً الى جنب وقاد ماريوس
 هذا الموكب المضحك أمام رب القصر وكان هذا الحوذي الصغير غارقاً في رداء
 قديم كان للأب سيمون ..

كان جوليان قد اغتسل وسوى شيئاً من هندامه فاستعاد بعض هيئته القديمة
 واناقته السالفة .. الا ان لحيته الطويلة اضفت عليه مسحة سوقيه .
 وتأمل العربة والجوادين والحوذي الصغير فاستخلص ان كل شيء على مايرام .

والشيء الوحيد الذي استرعى انتباهه بكثير من الاهتمام هو الشارات العائلية التي اعيد طلائها فوق أبواب العربية بعد ان كان قد أمر بإزالة شعار عائلة زوجته وإثبات شعار عائلته .

وهبطت البارونة تستند الى ذراع زوجها وصعدت الى المركبة بعناء واستوت فيها تحديقها الوسائد من كل جانب . وظهرت جان بدورها . وضحكت أول الامر للتناقض البادي في حجم الجواردين وشكلهما . . . ولاحظت ان الالبيص يبدو وكأنه حفيد الاصب وما لمحت ماريوس حتى انطاعت في ضحكة رنانة طويلة لم تستطع مقاومتها ، كان وجهه غارقاً في قبعة عريضة الحوافي فلا يبدو منه سوى انفه كما اختفت يده في كمي رداءه الفضفاض وهو يستدير الى وراء بحركات غير متونة ليبللي أوامر سيده وهو في ذلك الزي العجيب .

واستدار البارون وتأمل الفتى الغارق في زبه المضحك فانتقلت اليه عدوى الضحك من ابنته فانفجر مقهقماً وفادى زوجته وهو لا يسكاد يقوى على الكلام :

— انظري .. ما .. مار .. ماريوس ! .. اليس غريباً في شكله ؟ يا الهي ما أغربه !
وانحنت البارونة فوق باب العربية وراحت تتأمله فانقلبها أزمة ضحك هي الاخرى جعلت المركبة تهتز فوق نوابضها كأن رجات دهمت عجلاتها .
وشعب لون جوليان وتوجه اليهم سائلاً : — لا بد انكم جئتم ! ما الذي يضحككم بهذا الشكل ؟

واقعدت جان العتبة وحذا البارون حذوها واحست قواها تنحور لشدة ماضحكت . . . أما البارونة فظلت في العربية فريسة لنوبات القهقهة تكاد تخنق بها . وبدأ معطف ماريوس يهتز فقد أدرك انه هو مبعث هذه العاصفة من القهقهة . . . ولم يسه الا مشاركتهم وهو قابع في طيات أوديته الواسعة .

واندفع جوليان شديد الانفعال . . . وبصفعه اطار القبعة الهائلة من فوق رأس الحوذي ثم استدار الى حميه وراح يتلفظ باقوال وصوته راجف النبرات :

— يبدو لي ان ليس لك ان تضحك . . . فلو لم تكن قد بذرت ثؤمك وبعثت

مالك لما وجدتنا على مثل هذه الحال . انت التبعة لتقع عليك انت الذي دمرت نفسك وجرت علينا الحراب !

وهذه العاصفة الطروب .. ثم تلاشت غاماً . ولاذ الجميع بالصمت . وصعدت جان الى قرب امها والدموع تسكاد تنفجر من مآقعها . واستوى البارون مأخوذاً جامداً أمام المرأتين واتخذ جوليان مقعده في مجلس الخوذي بالقرب من الغلام الدامع العبين المنتفخ الاوداج .

كانت الطريق طويلة مبرمة لما خيم على الركب من صمت واستياء . ولم يشأ أحد من الثلاثة الصامتين المكتئبين التعبير عما يختلج في أعماق صدره . انهم يدركون حق الادراك انهم لن يقولوا على التحدث بشيء آخر طالما ان هذه الفكرة المؤلمة تنغن نفوسهم لذا فضلوا الاعتصام بالصمت على تجاذب اطراف حديث ذي شجون . كانت المركبة تجتاز الحقول مخب جوادها خبياً غير منتظم ودجاجات سوداء كبيرة تفر من أمامها وتختفي وراء الاسيجة ، أو يظهر كلب - ذئب يطارد العربية مزججراً ثم لا يلبث ان يعود الى مأواه وهو لا يكف عن نباحه .

كانت المركبة تطوي في اندفاعها الحقول والسهول طياً وتعرضها حفر موحلة تميل بها ذات اليمين وذات اليسار فتند عن صدر ألأم صرخات قصار .

وبلغوا غاية طريقهم حيث قام حاجز أبيض مغلق الباب خف اليه ماريوس ففتحه ثم داروا حول مرج مترامي الجنبات ليقفوا أمام بناء عال كئيب مغلق النوافذ . وفتح باب في صدر البناء بفتحة برز منه خادم شيخ أشل يرندي صدرية حمراء ذات خطوط سود مخفي مريوله الأسود قسماً منها . وراح يهبط درجات السلم بخطى متحاملة . وبعد ان استوضح امر الضيوف وعرف أشخاصهم سار بهم الى ردهة مكسوة بالبياض . كان هواء الحجرة العفن ، المحبوس ، ينفذ الى الرأتين بارداً مثلاً فيشيع حزناً وانقباضاً وتقزراً .

وجلس الجميع وأقاموا ينتظرون . وبلغت مسامعهم أصوات خطى تسير في الطابق العلوي على عجلة من أمرها . كانت جان جالسة بالقرب من امها كئيبة

منقبضة النفس . أما البارون فكان يستند بظهره الى رخام المدفأة خافض الجبين . وانفجر باب عال أخيراً وظهر الفيكونت والفيكونتس دي بريسفيل . كانا على قصر وهزال يسيران قفزاً ولا يعرف لهما سن على وجه التحديد . وبالغسا في الحفاوة والمجاملة . كانت المرأة رافلة في ثوب حريري مقلّم وقد تقيعت بقبعة صغيرة ذات أشرطة طويلة كالتي ترتديها الارامل . أما الزوج فقد حشر جسمه الضئيل في معطف رسمي فخم ودنا فحيا بانحادة من ركبتيه .

كان بكل مافيه ، شعره ، عيناه ، رداؤه ، يلتصع التماشي . أحسنت الاعتناء به . وبعد المجاملات المعتادة وتبادل التمنيات بحسن الجوار لم يعد لاحد مايقوله . فعادوا الى عبارات المجاملة يتبادلونها من جديد معربين عن أملهم باستمرار علاقات حسن الجوار . كما أشاروا الى تبادل الزيارات بينهم تسلية كبرى لهم هم المقيمون كل سنتهم في الريف .

كانت هواء الحجرة البارد ينقذ حتى العظام ويشيع في الحناجر مايشبه الصدا وسعلت البارونة ثم اعطت إشارة النوض . واصر بريسفيل قائلين : - كيف ؟ أمثل هذه السرعة . اقيموا بعض الوقت ايضاً .

غير ان جان قد استجابت لاشارة امها بالرغم من ان جوليان قد عبر بالاشارة ايضاً مامعناه ان الزيارة كانت شديدة الاقتضاب .

وشاء أصحاب البيت قرع الجرس لاستدعاء الخادم كيما يعد العربة الا ان الجرس حزن فلم يعمل له رنين فنخرج رب الدار وعاد ليعلم ان الحبول قد ادخلت الاسطبل ولا بد من الانتظار ريثما تخرج وتشد الى المركبة . وانتظروا . وراح كل منهم يبحث عن كلمة تقال . تحدثوا عن الشتاء المطير . وسألت جان وقد اعترتها ارتعاشة رغماً عنها :

— يم يشغل الزوج والزوجة وقتها وهما على مثل هذه العزلة طوال السنة ؟
لشد ما أدهش السؤال آل بريسفيل لانها كانت دائمي الانشغال بالكتابة الى اقربائهما من النبلاء الموزعين في كل ناحية من فرنسا كما كانتا يملآن فراغ يومهما بمشاغل

صغيرة . اما تصرفات الواحد منها حيال الآخر فكانت على قسط كبير من
الرسيمات كأنها غريبان . فهما يتحدثان بكثير من الجد عن أشياء قافية لا خطر
لها ولا معنى .

ونخيل جان ان هذين الزوجين المدققين المرتبين من بقايا نبلاء القرون الماضية .
ومرت المركبة أخيراً بحرها حيوانها المتنافران ، من أمام النافذة ، الا
ان ماريوس لم يكن في مقعده فقد خيل اليه انه حر حتى المساء فانطلق الى الريف
يلهو فيه .

وغضب جوليان غضباً شديداً ورجا مضيقيهم ان يرسل الخادم المتخلف ماشياً
ساعة يعود .

وبعد فيض من عبارات الوداع اتخذوا طريقهم الى القصر .
وما ان اغلقت أبواب المركبة حتى شرعت جان وابوها يضحكان ويقلدان

أحركات آل بريسقيل الا ان جان بالغت في ذلك حتى خرجت عن تهذيبها فانتهرتها
الأم ولامتها ولم تغف عن زوجها فليس لهما ان يهزأ بمثل هؤلاء القوم الطيبين
العريق المسبب .

ولم يسمعها الى الصمت اكراماً للأُم . وما أطلوا على القصر حتى خطاطب
البارون جان قائلاً :

ان قصرك يا سيدي جان شديد البرودة ولا شك فهو البعر المثلج يلعب
فيه كفعلة كل يوم .

وتوقفت المركبة أخيراً ، وسمعوا جوليان ينادي شخصاً خلف العربة فانحطت
جان وانحنى أبوها من فوق الباب فبصرنا بشخص غريب الشكل يسير نحوهما مسرعاً
كانت ساقاه تتمعثان بردائه الطويل المتطاير الاعطاف وقد أعمت باصرتيه قبعة لا تفقأ
تنقلب عن رأسه . . كان كاه يصطفقان اصطفاق جناحي طائر مذعور او ذراعي
طاحنة هراء . . وهو يخوض في سيره حفراً موحلة تصدمه حجارة هنا وهناك . .
قافزاً . . واثباً . . قد لطمحه الوحل . انه ماريوس يتبع المركبة بكل ما أوتي من قوة .

ما ان بلغ الغلام المسكين العربية حتى خف اليه جوليان فتناولوه من ياقته وجذبه اليه ثم افلت بخناقه لينمال عليه بقبضتيه لهما وصفعاً ففرقت قبضته حتى بلغت كتفيه تحت وقع الاسك والصفع فكانت تدوي كأنها الطبل تقرعه عصاً غليظة ! وكادت جان تفقد صوابها أمام المشهد القاسي فهتفت : - أي .. آه .. ابتاه .. انظروا .. أما البارونة فراحت تضغط ذراع زوجها وقد ثار فيها اشتياق مزير وقالت : - ولكن .. الا تمنعه يا جاك ! ..

وانزل البارون زجاج النافذة الامامية وتناول صهراً من كفه وهتف به بصوت مرتجف :

- ألم تنته بعد من ضرب هذا الغلام ؟ !

واستدار جوليان الى حميه مأخوذاً : - ألم تراذاً في اي وضع مذري غدا نوب هذا الشقي .

وأجاب البارون وقد مدرأه بين الاثنين : - وهل يتطلب ذلك كل هذه الوحشية ؟

واحتدم جوليان غيظاً من جديد وقال : - تريد ان تتصرف الى شأنك ؟ هذا شيء لا يعنيك .

ورفع يده يريد ان يهوي بها على الغلام المسكين بيد ان قبضة حميه كانت أسرع الى الامساك بذراعه المرفوعة بقوة وجذبها فصدمت خشب المقعد وصاح به بشدة :

- اذا لم تكف فوراً عن ضربه نزلت اليك وعلمتك كيف تقف عند حدك .. آه ..

وتراجع جوليان فوراً .. وبضربة من سوطه انطلق الجوادان باقصى سرعتهم . ولزمت المرأتان الصمت وقد اعترهما شعوب شديد . وكان وجيب قلب البارونة يطرُق المسامع بوضوح تام .

وعلى المائدة أبدى جوليان مزيداً من اللطف كأن شيئاً لم يحدث . وكذلك

فعل الباقون فتظاهروا بتناهي الحادث فجاروا الصهر بمرحه . وشرعت جان تتحدث
عن آل بريسفيل فما كان من زوجها الا بحاراتها بمرحها ولكنه لم يلبث ان قال :

- انهم قوم على جانب من اليسر عظيم .
لم يقوموا بعد ذلك بزيارات قط . فسكاهم كان يخشى تكرار حادث ماريوس .
واكتفوا بارسال بطاقات بمناسبة عيد الميلاد معربين فيها عن عزمهم على القيام بواجب
الزيارة في الربيع عندما يصحو الجو . .

وهلت ليلة عيد الميلاد . وكان على مائدتهم السكاهن . والختار وزوجته .
ودعوهن مرة ثانية بمناسبة رأس السنة . فكانت هذه الولاثم هي الترويج الوحيد
الذي ادخل بعض التغيير على حياتهم الرتيبة .

كان على الاب والام مغادرة القصر في ١ كانون ثان ، وشاعت جان التمسك
بها الا ان جوليان لم يبد أي تشبث ببقائها مطلقاً . اما البارون فكان رده على
برودة صهره ان استقدم من روان عربة اجرة . وبعد ان فرغوا من اعداد الحقايب
ليلة السفر قررت جان وابوها السير الى ابور وكان الليل نيواً مثلجاً ، فيها منذ
عودة العروسين من كورسيكا لم يزورا ابور .

واجتازا الغابة التي طوفا فيها ليلة الزواج جوليان وجان . هذه الغابة التي
حملت الي جسد جان اول رعشة من رعشات الحب . فتعت ظلالها عرفت الحب
الحسي الذي لم تعرفه بعد ذلك الا في وادي (اوتا) بالقرب من الينبوع الذي
ورداه وامتزجت بمائه قبلاتهما العذبة .

كانت الغابة عارية عن أوراقها ، وقد اختفت منها تلك النباتات المتسلقة . .
لاشيء فيها سوى حفيف الاغصان وذلك الضجيج الجاف الذي يعلو من الادغال
ايام الشتاء .

ودخلا القرية الصغيرة . كانت شوارعها الخاوية الصامتة تفوح برائحة البعر
والسمك . وكانت الشباك العريضة معلقة أمام الابواب كمنحرف أو منشورة فوق
عصي طويلة . .

كان البحر الرمادي البارد ذو الزبد الهادر قد بدأ جزره كاشفا عن صخور
(فيكامب) الحضراء الجائمة تحت أقدام الساحل الصخري المرتفع . وفوق الشاطيء
الرملي كانت الزوارق ملقاة فوق جنوبها كأنها الحيتان الكبيرة الميتة .
وهبط المساء . وزرف الصيادون عائدين يجررون أقدامهم المحتذية نهالاً
ثقالاً وقد انوا حول أعناقهم شالات من صوف وفي أيديهم زجاجات الحمر والمصابيح
النقالة . . وداروا حول الزوارق والقوا بشباكهم . . ثم دفعوا بزوارقهم الى البحر
ووثبوا اليها .

كانت جماعة من نساء الصيادين ذوات القامات الفارعة ملتفات بثيابهن الرقيقة
قد وقفن فوق الشاطيء يرقبن انطلاق آخر زورق وقد عكر صفو الشارع
لغظهن الصاحب .

ووقف البارون وابنته يرقبان هؤلاء الرجال الذين ينطلقون كل ليلة معرضين
أنفسهم للموت سداً للرمق وهم ، رغم ذلك ، على جانب من البؤس لا يعرفون معه
للحلم طعماً .

ونتم البارون وقد عرته رعشة وهو يتأمل المنظر المؤثر :

- إنه مخيف بجماله . هذا البحر . ما أروعه والليل يرخي عليه سدوله !.. إنه
يجمل على متنه الوف النفوس فيتنصرف بحيواتها تصرفاً مطلقاً .. إنه رائع ! اليس
كذلك باجانيت ؟

وأجابت بصوت بارد النبرات :- ولكنه لا يفوق البحر المتوسط جمالاً ..
ورد أبوها مستنكراً : - البحر المتوسط ؟ أنه لمن زيت ؟ بل كأن ماءه
عذب راكد ! ولونه ؟ ! ان له زرقه ثياب غسيل ! انظري ! انظري الى هذا المحيط !
كم هو مخيف بهذه الجبال من زبده الجياش ! فكري ! فكري بكل هؤلاء الرجال
الذين ركبوا متون لجبهه الصاخبة . لقد اختفوا في افقه الجهم العريض ..

كان ذكر البحر المتوسط كافياً لطير بخيال جان ويذهب به شعاعاً .. الى
تلك البلاد البعيدة التي ما برحت تلهب منها الخيال وتثير فيها كوامن الشوق والحنين .

وبدلاً من ان يعودا بطريق الغابة قفلاً راجعين على موازاة الشاطئ بخطى
وثيدة لا ينبشان بقوله ولا يشيران موضوع فراقها المنتظر .. وتراعى جان ان ذهنها
أخذ يتفتق عن أشياء جديدة غير منظورة .. وحملتها رؤية تلك الانوار المبعثرة بين
المزارع على التفكير في الوحدة ايام طلة الجناح فوق كل هذه المخلوقات ..
وبصوت جازم قالت :- ليست الحياة متعة في كل الاوقات ..
وأجاب البارون وقد أطلق تهدة حرى :- ماذا تريدن يا فتاة ! اننا لانقوى
على تغيير شيء ...

وفي صبيحة اليوم التالي سافر الاب والام ومكثت جان وحيدة مع جوليان.

الفصل السابع

دخلت العاب الورق في حياة الزوجين ، ففي كل مساء ، بعد العشاء ، كانا ينصرفان الى هذه التسلية بينما يروح جوليان يدخن غليونيه ويرتشف الكوؤوس على مهل . وما ان يفرغا من ذلك حتى تصعد جان الى غرفتها وتجلس الى النافذة تشتغل بابرتها او تتأمل المطر الممتون يقرع الزجاج والريح الصرصر تهز المصاريع هزاً عابياً .. واذا ما اضناها الجلوس رفعت ناظرها وارسلت بها صوب البحر الجائش القوارب .. ولا تلبث ان تعاود عملها بعد دقائق من تأمل حالم ضائع في مهامه بمجولة القرار .. لم يكن لها ، عدا ذلك ، ما يشغلها . فقد جمع جوليان بيده كل ادارة البيت ارضاء لتزعمته الى السيطرة وتبعاً لميله الى القصد في النفقات .

كان مقترراً صارماً في تقييده . لا يعطي منجاً مالية للخدم مطلقاً وقد عمد الى خفض كميات الطعام الى حدها الادنى الضروري . ولا حظ ان جان ، منذ قدومها الى (بويل) ، كانت توهي الحجاز ان يهيء لها كل صباح فطيراً دسماً فرأى ابطال هذه العادة واضطرها الى تناول العادي من الخبز . وتقادياً للاستقياح والمشاحنات والجدل لزمتم الصمت حينما تصرفانه الغربية بيد انهما كانت تتألم بالغ الالم فكان بدوات هذا الشخ ابر تخذها وخذاً موحجماً . انها تنظر الى مثل هذه التصرفات نظرها الى انحطاط نفسي وخسة طبيعية هي التي ربيت في بيت لا يقيم للمال وزناً . فكم سمعت اباها يقول : *لنبيد قوماً باللعنة* - ولكن المال خلق لينفق !

اما جوليان فهو لا يفتأ يردد على مسمعيها : - *لا تستطيعين ابداً ان تقلعي عن عادة القاء المال من النوافذ !* فبذلك لا يفتأ يفتأ يردد على مسمعيها : - *لا تستطيعين ابداً ان تقلعي*

وفي كل مرة يتوصل الى توفير قروش هزيلة من شراء سلعة ما كان يلقيها
في صندوقه وهو يردد مبتهجا : - ان الجداول الصغيرة هي التي تشكل الاتهار
الداخلة الذائخة !

ولم تنقطع جان عن الهيام مع احلامها كفعالها يوم كانت فتاة عذراء . الا
ان صوت جولييان لا يلبث ان ينتزعها من عالمها السحري اذ يبصك اذنيها وهو يلقي
الى الاب سيمون باوامره الصارمة . . فكانت تعود الى شأنها وهي تقول لنفسها : -
لقد انتهت كل شيء . . .

وتسقط دموعه حرة وتسيل فوق خدها الا سيل تكاد تحرق بشرته الرقيقة . .
ولحظت جان ، ذات يوم ، ان روزالي قد اصبحت حالها غير ما كانت عليه
في ماضيات الابلام ، فقد اعتري هذه البنية انقلاب مفاجيء ، هذه الفتاة المرحية ابداء ،
الضاحكة السن ليل نهار . . لقد فقد خداه رواءهما الزاهر وغاضت منها دمها
الحيوية فظهورا كأنهما معفران بالتراب وبرزت عظامها تصدم العين .

وكثيراً ما استفسرتها جان عن حالها : - امريضة انت يا بنيتي ؟
وكان جواب الخادمة الصغيرة لا يتغير : - كلا . ليس بي شيء يا سيدتي .
وبصعد شيء من الدم الى وجنتها وتسرع بالخروج . . .

كانت فيها مضى لا تسير الا قفزاً . . اما الآن فهي تخر قدميها جراً وقد
فارقتهما كل فتنتها الماضية ووسامتها السافرة كما انها صرفت عن ابتياع تلك الحاجات
الصغيرة الجميلة من الباعة الجوالين فعبثاً كانوا يغرونها بما يحملون من ادوات زينة
براقة واشربة حريفة زاهية وغير ذلك مما يطير له قلب النساء من زينة وهرج .
ولم تقتصر الكتابة على ساكني النصر بل تعدته الى مظهره الخارجي فقد عملت .
الامطار بالواجهة البيضاء عملها وتركت فوقها خطوطاً طويلة رمادية اللون .

وازداد الجو اكفهر ادا في اواخر كانون الثاني . وتساقطت الثلوج ، وتراكت
في الافق الشهابي البعيد غيوم هائلة منبعثة من قلب المحيط المظلم . . وغمرت الثلوج
السهول المجاورة ولما اصبحت كانت الاشجار كاسية حللاً بيضاً ناصعات . . .

وأهم جوليان باستئثار هذا الطقس فانتعل حذائيه الكبيرين وتكسب بندقيته
وراح يتقرب الطيور المهاجرة .. وكانت طلة اته تمزق الصمت العميق المحيم فوق
بساط الثلج الناصع فتذعر جماعات الغربان فتنتطلق من فوق الاشجار محلقة
في الفضاء الرمادي الجامد ...

وادرك جان ضجر قاتل فخرجت الى العتبة فبلغ اذنها ضجيج آتٍ من بعيد
فوق البساط الابيض الشاحب الصامت .

وذا صبح كئيب من هذه الاصباح كانت جان جالسة الى الموقد تستدفئ
بينما راحت روزالي تهتم بتنسيق الغرفة وقد نضجت معالم وجهها بالم دفين مكتوم
واشدت عليها وطأة حالة صحية لا تبشر بالخير .. وندست عن صدر البنية المسكينة
زفرة حارة طرقت اذني جان فسالتها دون ان تستدير برأسها اليها : - ما بك
يا روزالي ؟

وجاها جواب الخادم المعتاد : - لا شيء يا سيدي .
بيد ان صوتها كان منكسراً محسراً .
وانصرفت جان الى التفكير باشياء آخر .. وانتهت فلم تشعر بحركة الفتاة
خلفها فنادت :

- روزالي !
فلم تغفر بغير صمت مطبق . وعادت تنادي بصوت
افوى وقد خالها غادرت الغرفة : - روزالي !

كانت تؤشك ان تمديدها الى الجرس تفرعه عند ما طرق اذنها انين عميق
ينبعث من ورائها جعلها تقفز وقد اعترتها رعشة خوف عنيفة .
كانت الخادم الصغيرة مستلقية فوق الارض شاحبة ضائعة النظرات وقد مدت
ساقها واستندت بظهرها الى خشب السرير .

وخفت اليها جان هاتقة : - ماذا بك ؟ ماذا بك ؟
ولم تنبث ببنت شفة وجهت لا تبدي ولا تعيد . كانت تركز على سيدتها
عيفين زائعتين مغمورتين بالدموع وقد لشت منها الانفاس وعلا صدرها وانخفض

منسارعاً فكأن الماء هائلاً يمزق أوصالها تمزيقاً وحشياً . . . وانهارت فجأة بكل جسمها وقد خنقت بين اسنانها صرخة الم يمزق . . .

وبدا شيء يتحرك تحت ثوبها بين فخذيها المتباعدين . . . وندت عن صدر الفتاة تنهدة عن حنجرة تخنق . . ثم ارتفع مواء طويل . . . شبيه باستغاثة رقيقة مؤلمة اول نداء يصدر عن مخلوق يلج باب الحياة . .

لقد وضع كل شيء امام عيني جان ! وخفت الى السباب ونادت وهي تكاد تفقد صوابها :

- جوليان . . . جوليان . .

واجابها صوت زوجها من اسفل : ماذا تبغين ؟ !

ووجدت صعوبة قصوى في التعبير : - انها . . . انها . . . روزالي !

واندفع جوليان فقفز الدرجات زوجاً زوجاً . . وبلغ الغرفة ودنا من الفتاة .

وبضربة واحدة ازاح ثوبها عن ساقها فظهر بين فخذيها العاريتين مضغة من لحم جمعدة ، متشنجة ، لزجة ينبعث منها انين حاد مخنوق اشبه بمواء صغار الهررة حديثة الميلاد .

ورفع جوليان وجهه الخبيث الى زوجته اللئيمة اللب ودفعها بكلتا يديه خارجاً

وهو يقول : - اذهبي . اذهبي . هذا لا يعنيك . . ابعثي اليّ بلوديفين

والاب سيمون . .

وهبطت جان مرتعشة الاوصال الى المطبخ ونفذت منه الى ردهة الاستقبال

التي لم تعرف النار منذ ذهاب والدها واقامت ، مقروورة ، متفاقة القلق ، تنتظر

تطورات الموقف .

ولم تلبث ان لحقت الخادم بخروج مهرولاً ثم يعود بالارملة « دانتو »

قابلة المنطقة .

وحدث فوق السلم هرج عظيم كأنهم ينقلون جريحاً ثم جاء جوليان فانبأ جان

انها تستطيع الصعود الى غرفتها . كانت ترتجف كأنها امام حادث مفرج . وعادت

تجلس امام نارها وتساءل نفسها :

- كيف هي الآن ؟
 ولحق بها جوليان بعد قليل :
 كان جوليان مشغول الفكر ، نأثر الأعصاب ، يقطع الحجرة بخطى مراعى
 كأن غضباً هائلاً يعصف بين حناياه .
 وتوقف بعد لحظات وسأل :
 - ما الذي تموين فعله هذه الفتاة ؟
 لم تدرك مرمى قوله زوجها فنظرت اليه مستفهمة : - ماذا ؟ ما الذي نقول ؟
 لا اعرف شيئاً أنا ؟
 وصرخ بغتة وكأن ثورة غضبه بدأت تنفجر :
 - نحن لا نستطيع ، على اي حال ، ان نحفظ تحت سقفنا يولد سفاح .
 وانتهب جان ارتباك شديد ثم ، بعد صمت طويل ، قالت :
 - ولكن . . . يا صديقي . . . باستطاعتنا ايكال امره الى مربية ما . . .
 ولم يتركها تكمل : - ومن سيدفع النفقات ؟ . انت ولا شك ! . .
 وفكرت طويلاً باحثة عن حل . وقالت اخيراً : - ولكن الا يتم ابوه به ؟ .
 واذا ارتضى هذا المجرم الزواج من روزالي انقضى كل اشكال . .
 وكاد جوليان يفقد سيطرته على اعصابه . قال مزجراً : - ابوه ؟ ابوه ؟ او
 تعرفين اباه انت ؟ كلا طبعاً . . حسناً . . وبعد ذلك ؟
 واحتدت جان وقد بلغ منها التأثر مبلغه : - انه لن يدع هذه الفتاة هكذا .
 بكل تأكيد . . انه اذا لجبان ! سنعرف اسمه . ونشي اليه نساءه تفسيراً لتصرفاته .
 كان جوليان قد استعاد شيئاً من هدوئه . وعاود زرع الفرقة : - انها لا
 تريد التصريح باسم الذي اغواها . . الا لي انا . . . واذا لم يرتض الزواج منها ؟ .
 نحن لن نستطيع في هذه الحالة الاحتفاظ تحت سقف بيتنا بفتاة ام ووليد سفاح .
 او تفهمين ؟
 واصرت جان : - انه شقي هذا الرجل . . ولكن . . لا بد من معرفته . .
 وعندئذ يكون لنا معه شأن . وغمر الدم وجه جوليان بيد انه وجد وجهاً للاعتراض :
 - وبانتظار ذلك ؟

ولم تكن قد حزمت امرها فسالته : - وما الذي تقترحه انت ؟
وسرعان ما صرح برأيه : - آه ! انا ؟ ارى ان نقدها بعض المال ونرسلها
مع ولدها الى الشيطان !

ولم يرق هذا العرض للمرأة الشابة فرمته بنظرة احتقار وقالت :
- اما هذا فلا ! انها اخي بالرضاع هذه المنكودة ! لقد نشأنا سوياً . وهما
هي ترتكب فعلة شنعاء .. فليكن ! انه حظها من ايامها .. انه نكد طالعتها غير
اني لن القي بها خارجاً من اجل ساعة ضعف ادركتها .. واذا اقضى الامر فساغى
انا نفسي بتربية الوليد ..

وفقد جوليان كل سيطرة على اعصابه : - وسيكون لنا اسم نظيف نحن !
وشرفنا .. وعلاقتنا سيقولون في كل مكان اننا نحمي الزلات ونؤوي الساقطات ..
وسيمتنع القوم الشرفاء عن وطأ ارض بيتنا .. ياله من تفكير اخرق حقاً !
المجنونة انت ؟

وظلت مسيطرة على زمام اعصابها حتى تلك الساعة :
- لن اترككم تلقون برونزالي خارجاً ابداً ! .. واذا ابنت الاحتفاظ بها
استردتها امي .. ولكن لا بد من معرفة والد الطفل ..
وخرج عندئذ وقد فرغ منه الصبر وصفق الباب خلفه صائعاً : - ما اغبى
النساء وما اشد حقهن !

وصعدت جان بعد الظهيرة الى قرب الفتاة النفساء . كانت ساكنة في سرورها
والمعجوز دانتو تقوم بامرها . كانت عيناها مفتوحتين معلقتين بالمعجوز التي احتضنت
الطفل وراحت تهدده .

ما وقعت عينا روزالي على سيدتها حتى اندفعت تشق بالبكاء واخفت بالاغطية
وجبهها وقد هزها اليأس هزاً عنيفاً .. ومشت اليها جان وانحنت فوقها تحاول تقبيلها
الا انها قاومت وهي تحفي وجهها .. ولكنها لم تلبث ان استسلمت الى قبلات
« اختها » وهي تشق بالبكاء !

كان البرد شديداً و نار شاحبة تتراقص السنتها في الموقد . و شرع الوليد يبكي .
ولم تشأ جان ان تحدثها عن الصغير خشية ان تسبب لها نوبة اخرى .
وتناولات يد خادمتها وهي تردد : -- لا تخشي شيئاً . . لا تخشي شيئاً . .
كانت الفتاة المسكينة تسترق النظر الى القابلة فتدفع ليدى سماعها صرخات
الوليد فتندفع بقايا الحزن من صدرها تنهدات تشنجية بينما تروح تشرق بدموعها
المنسكبة في حنجرتها انسكاباً . . . انها تزح تحت آلام تقال . . نفسية وجسدية . .
وعانقتها جان من جديد وتمت في اذنها بصوت خفيض :
-- لا تبتئسي يا بني . سنعتني بالوليد كل العناية .
وخرجت من الغرفة عجلي وقد اوشكت الخادم المسكينة ان تغص بالعبرات .
لم يمض يوم لا تصعد فيه جان مراراً الى غرفة النساء فماتشاهد روزالي سيدتها
حتى تنفجر باكياً ، واوكل امر الطفل الى جاره مرضعة . اما جوليان فقلم حدث
زوجته كانه يحمل لها الحقد الدفين لانها رفضت طرد الخادمة المسكينة . وحاول
مرة ثانية الخوض في الموضوع بيد ان جان تناولت رسالة تلقنها من البارونة تقول
فيها انها تنتظر ارسال الفتاة اليها اذا كانوا لا يرغبون بالاحتفاظ بها في النصر .
وصرخ جوليان محتداً : ان امك اشد جنوناً منك . الا انه لم يصر .
مضت خمسة عشر يوماً استطاعت النساء في نهايتها ترك السرير والهجرة الى
مزاولة عملها
وذات صباح نادتها سيدتها فاجلستها الى قربها وتناولت راحتها وتاملتها بنظرة
وقالت :

- اسمعي يا بني . حدثيني بكل شيء . . .
وارتعشت روزالي وجمجت : - عم يا سيدتي . .
- لمن هذا الطفل ؟

وسرعان اكدت الفتاة وارتجفت شفنها كأن يأساً مقيماً قد دهمها . وحاولت
يجنون تخليص يديها لاختفاء وجهها براحتيها . . بيد ان جان جذبها الى صدرها

وعانقتهما رغماً عنها وغمرتها فائقة :

- انه لا امر تعيش . ماذا تريدن . كنت ضعيفة .. الا انك لست الوحيدة التي اتزلقت في هاوية الغواية فاذا كان « الوالد » يرضى الزواج منك فليس لنا ان نشكو .. ومقدورنا ان نلحقه بخدمتنا معك ..

وعلا أنين روزالي كأن سياطاً لاذعة تشنها وكانت بين يدي سيدتها ترتقص ارتقاص طائر ذبيح بغية التخلص من قبضتها .

وعادت جان تقول : - افهم جيداً انك خجلى .. غير انك تلاحظين اني لم اغضب فانا اشفق عليك واحديثك بكل لطف . فاذا كنت اسألك عن اسم مغويك فما ذلك الا حرصاً مني على مصلحتك فانا اشعر بالآلامك اذ تجاهلك رجلك واسمى للحيولة دون حدوث شيء من هذا . وعندما تصرحين باسمه سيمشي اليه جوليان يحدثه حديثك وسنجهره على الزواج منك ولما كنا سنحتفظ بكما عندنا فنستظيره الى اسعادك في المستقبل .

وما فرغت جان من حديثها حتى كانت روزالي قد تمكنت ، بحركة مباغتة ، من التخلص من قبضتها وانطلقت كأن مساً قد أدرکها .

قالت جان لجوليان وهما الى مائدة العشاء : - لقد حاولت عبثاً افناع روزالي بالتصريح باسم الرجل الذي أغواها . حاولت كل أساليب الافناع فلم أفلح بطائل . لم لا تحاول انت من ناحيتك فقد تنجح حيث فشلت فلا بد من ارغام هذا النعس على الزواج من ضحيته المسكينة .

وغضب جوليان : - آه . اعلمي اني لا اريد سماع شيء عن هذه القضية . لقد شئت الاحتفاظ بهذه الفتاة . احتفظي بها شريطة الا تصدعي رأيي بحديثها في كل مناسبة ..

كانت اخلاق جوليان قد ساءت منذ حادثة روزالي . وعمد الى عدم توجيه الكلام الى زوجته فاذا اضطر الى ذلك قصر اخفاً وكأنه غاضب باستمرار اما هي ، فعلى عكسه ، كانت خفيفة الصوت ، لطيفة المعشر ، مستسلمة الى قدرها ، كما

تتعاشى كل جدال .. وكثيراً ما كانت تزرف الدمع السخين في سريرها عند ما يحن الليل وتنفرد بنفسها .

وبالرغم من ثورته الدائمة ، كان جوليان يعبر الى مخدع زوجته كل ثلاث لبال او اربع ..

وسرعان ما استعادت روزالي صحتها كاملة وفقدت شيئاً من اكتئابها بالرغم من انها قلقة دائماً نهياً لحوف مجهول . وكانت تفر من جان كل مرة تحاول استيضاحها بشأن ابي طفلها .

وبدا جوليان ، بغتة ، اشد لطفاً وايناساً فعادت الزوجة الشابة تنسب بآمال ذاوية الا انها استعادت بعض مرحها القديم دون ان تتخلص من قلقها نهائياً ، ذلك القلق المبهم الذي لا تعرف كيف تعبر عنه وبم تبرره ...

اقامت جان قترقب ، بشوق متجدد ، هبوب نسائم الربيع ، زاعمة ان الشتاء القاسي سبب لكل ما يزعج كيانها من آلام . فهي تارة تفقد شهيتها وطوراً تشعر بسوء هضم او لم في القاب فيعلو وجيب قلبها ، او تدر كها ارتعاشة شديدة تتركها تعيش في قلق واضطراب لا يطاقان .

وهبط ميزان الجو ذات مساء . وارتعش جوليان برداً وهما يغادران غرفة المائدة التي لم تعرف النار نتيجة لتقير جوليان وبخله . وفرك يديه وقال واستأنه نسطك :

- انه لمن المستحسن ان نرقد سوية هذه الليلة ... اليس كذلك يا قطني ؟
وضحك ضحكته الصبانية كما كان يفعل في الماضي . ووثبت جان الى عنقه وطبعت على شفتيه قبلة مشوقة ... غير انها احست بانها ليست على ما ينبغي فهي متأللة ، ثائرة الاعصاب . ثم راحت ترجوه ان يتركها تنام وحيدة هذه الليلة وشرحت له ببضع كلمات ما يؤلمها :

- ارجوك يا عزيزي . اؤكد لك اني لست على حالة حسنة . وسأناثل للاشفاء غداً ولا شك .

ولم بصر : - كما تشائين يا عزيزتي . فاذا كنت مريضة فعليك العناية بنفسك .

ثم انصرفا الى الحديث باشياء اخرى .

واوت الى فراشها مبكرة . وتمت الاعجوبة بأمر جوليان فاشعلت نار في غرفته الخاصة ! وعند ما اخبروه ان النار قد ادفأت الغرفة جيداً قبل زوجته وانصرف الى فراشه .

كانت جات ترتجف في سريرها وقد خيل لها ان البيت يرمته غارق في لجة من صقيع .

ونمضت مرتين لتطعم النار مزيداً من حطب او لتأتي بدثر وثياب ثقيل بها اغطينها . واقتنعت ان لا شيء يمكنه بث الدفء في جسدها المبرور .

واصطكت اسنانها وارتعشت يداها وضاق صدرها وشرع قلبها البطيء . يجب وجبياً عالياً مخنوقاً وكأنه يتوقف او كأن الهواء قد جمد فلا ينفذ الى رئتيها ..

كان البرد ينفذ حتى عظامها . ودهمها انقباض هائل وضيق مروع ... وخيل اليها انها مبهجورة مهملة تكاد تلفظ انفاسها الاخيرة في وحدة باردة مظلمة ..

وفكرت : سأموت .. اني اكاد اموت ...

وسيطر عليها رعب مروع فوثبت من سريرها . وقرعت الجرس تستدعي روزالي ... وانتظرت . وعاودت القرع ... وانتظرت ثانية راعشة مثلجة الاطراف غير ان الخادمة الصغيرة لم تأت . انها ولا ريب غارقة في اول رقادها العميق فلا يقوى شيء على ايقاظها منه ..

وبلغ الرعب واليأس من جان مبلغاً كادت تنقد معه صوابها .. وانطلقت فوق السلم عارية القدمين وتسلمت الدرجات دون ضجيج متلصقة طريقها في الظلمة واهتدت الى باب الوصيفة ففتحته ونادت :

- روزالي ! ..

كانت ما تزال تتقدم في الغرفة فاصطدمت بالسرير وجاست بيدها بين طياته .. انه فارغ .. كان فارغاً .. بارداً .. كأن احداً لم يرقد فيه تلك الليلة .

وقالت مأخوذة مستطارة اللب : - كيف ؟ .. ابن هي ؟! لعلها ذهبت في مثل هذا الليل المتلج .. وإلى ابن ؟ ..

وكاد قلبها يشب من بين حناياها . ورأت ان تسير الى جوليان فتوقظه لبيحاً عن الفتاة . وبلغت غرفته فوجلتها بعنف بدفعها شعورها المبهم بانها ستبوت . ستفقد ادراكها ... فلا بد لها من رؤيته قبل ذلك ..

وعلى وميض اللب المحسج في الموقد لمحت ، الى جانب رأس زوجها ، فوق الوسادة ، رأس روزالي ! واطلقت صرخة هائلة وثب لها الاثنان مذعورين . وجمدا لحظة لهول المفاجأة ... اما هي فقد لاذت بالفرار كأن مشبهاً مريعاً يعمت في مطاردتها ... وناداهما جوليان وهو يكاد يفقد صوابه فشعرت فشعريرة هائلة اذ طرق صوته اذنيها .. انه سيختلق الاكاذيب ليفسر تصرفاته .. انها لا تريد ان تراه ... وعادت تنطلق هابطة السلم ...

وركضت في الظلام بكل قواها معرضة نفسها للسقوط فوق الدرجات ... انطلقت الى الامام تحبها ورغبتها في الهرب فهي لا تود رؤية شيء او سماع شيء . وبلغت اسفل القصر فتهاكت فوق احدى الدرجات ، بقميص نومها ، عارية القدمين ، شاردة اللب مضغضة الحواس

ووثب جوليان وارتدى ثيابه بسرعة واندفع يهبط السلم في اثرها وهو يصرخ : - اصفي الي يا جان ..

كلا انها لا تريد الاصفاء اليه ولن تسمح له بعد اليوم ان يمسه بطرف اصبعه . وامرعت تحبتي في غرفة المائدة كأنها تفر من مجرم قاتل . كانت تبحث عن مكان تتوارى فيه ، عن محباً ، عن زاوية مظلمة عن سبيل تنحاشاه فيه . ولم تجد سوى المائدة فانزلت تحتها . وفتح الباب والمصباح بيده وهو لا ينفك ينادي : - جان . ووثبت خفيفة كالارنب ولجأت الى المطبخ فدارت فيه مرتين كأنها الحيوان الحبيس الا انها وجدت نفسها ، بغتة ، امامه وجهاً لوجه ... وفتحت باب الحديقة وانطلقت في الارض النضاء ...

كانت تفوص باقدامها العارية في الثلج حتى ركبتيها . وكان لهذا الاحتكاك بالغ الاثر في بث النشاط البائس في نفسها . لم تحس برداً بالرغم من انها تكاد تكون عارية فهي ، في استغراق رويحي قوي طفئ على مشاعرها فبلد احساساتها . . . كانت تمدو بيضاء كالثلج . . . فوق الثلج الابيض .

وسارت باتجاه الممر العريض فاجتازت الحديقة ثم عبرت المرج . . . لم يكن في السماء قر . الا ان النجوم كانت تلمتع كأنها جذوات نار ماثوثة في صفحة السماء القاتمة والسهل منور بضوء شاحب وصحت عميق يبحم فوقه وسكون مطبق يهيم عليه .

وتابعت جان سيرها لا تلوي على شيء ولا تفكر بشيء . ووجدت نفسها فجأة على الشاطئ الصخري . وتوقفت بحركة غريزية خالية الذهن من كل فكرة مجردة من كل ارادة .

كان البحر ينبسط امامها من خلال انفراج الصخور غير واضح المعالم ، تفوح منه رائحة ملحة وقد تقلص مأوؤه عن اليابسة بفعل الجزر .

اقامت هنالك طويلاً في جمود فكري وسكون جسد . وشرعت ترتعش فجأة . . ارتعشت بجنون كأنها شرع في مهب ربيع صرصر . كانت قوة غير منظورة ترجف يديها وساقها ارتجافات عنيفة مفاجئة . وعاندها الادراك ، بغتة ، واضحاً جلياً . . وعبرت أمام ناظرها مشاهد قديمة التاريخ . . نزهتها معه في زورق الاب لستيك . . حديثها . تعميد السفينة . . وسارت ذكريانها حتى بلغت بها تلك الليلة حيث هدهدتها الأحلام اثر نزلها في (بوبل) . . اما الآن . . الآن . . لقد حطم حياتها . . لقد انتهى كل سرور وانقضت كل سعادة . . وكل أمل أضحي مستحيلاً . . بالمستقبل المغم بالآلام ! انه غد مقعم خيانة وبأساً ! فياليتها ماتت وانقضت مجرتها كل هذا الشقاء !

وصك سمعها صوت آت من بعيد : - هنا . . هنا . . هذه خطاها . . سريماً من هنا . . سريماً . انه جوليان يجد في طلبها . .

آه انها لا تود رؤيته .. وطرق سمعها هدير الموج المهبهم بصخب تحت الصخور ..
ونهمضت ونحفزت للوثوب .. شاءت ان تودع الحياة وداع اليأس المظلوم .. فند
عن صدرها أنين كأنين المحتضر .. فكانها جندي تثقب صدره الحراب في المعركة ..
ولم تستطع التثب بسوى كلمة واحدة .. قصيرة .. مقتضة .. - أمي !

وسرعان ما عبرت ذكرى أمها في خلدها . فرأىها بعين خيالها تنتحب ..
ورأت أباه راكعاً فوق جثتها الغريق .. وادركت حينئذ مبلغ اليأس القتال الذي
ستسببه لها .. لهذين الكائنين العزيزين ..

وتراخت كل عضلة فيها . وانهارت فوق الثلج كأنها البناء الواهي الدعائم ..
ولم تسعها قواها بالحرب عندما أدر كها جوليان والاب سيمون وماريوس يحملون
المصابيح . فبادروا اليها وحملوها بذراعيها لبيتعدوا بها عن الامواج التي كانت منها
قيد أنملة ..

واستسلمت اليهم لاتبدي ولا تعبد . فليفعلوا بها مايجلو لهم . وشعرت بهم
يسيرون بها ثم يلقون بها فوق سريرها .. ثم راحوا يدلكون جسمها باقشة حارة ..
واحى بعد ذلك كل شيء من ذهنها .. وفقدت كل ادراك ..

وبزغ النهار .. ولم تستطع جان مغادرة فراشها فهي نحس كابوساً مريعاً يحتم
فوق صدرها الواهي يكاد يكتم انفاسها .. ماها ؟ ماذا دهاها ؟ لم تحر جواباً ؟
وعاودتها الغيبوبة .. ورأت فيما يرى النائم فأراً يخرج من جحر في الجدار ويشب
فوق سريرها ثم يتلوذ فان فثالث فراجع .. وأخيراً يغطي خيش لجب من القفران
كل ما في غرفتها وينزلق بعضه تحت غطاءها فيحسك بجسدها فتعثرها قشعريرة مؤذية
وقد يدها الى القفران محاولة القبض على بعضها الا ان راحتها تنطبق دائماً على هوا ..
انها تسكاد تخنق .. لينها تقوى على الفرار .. وندت عن صدرها صرخة حادة وخالت
ان ثمة من يشدها فيسمرها في سريرها فلا تستطع حراكاً .. انها تشعر باذرع
قوية تكبلها وتشل كل حركة من حركاتها .. وتفرست في الفراغ ... ولكنها
لم تر أحداً ..

واستفاقت .. استفاقت محطة الاعصاب ، مضغمة الحواس ، رازحة تحت
ثقل الممضن .. وادر كهاشي من هدوء بعد ذلك فاستكانت اليه .. وفتحت
عينها ولم تدهشها رؤية امها الى جانب سريرها ... ورأت كذلك ، الى قرب امها ،
رجلاً ضخم الجثة لم يكن لها به عهد من قبل .
كم كان لها من العمر ؟ ليست تدري ! .. وخالت نفسها مازالت طفلة حديثة
تجربو .. لقد فرغ رأسها من كل ذكرياتها .. نبخرت .. اضمحلت .. ذهبت
مع الريح ..

وتكلم الرجل الضخم : - هدي روعك ياسيدي البارونة . ها ان بقدوري
اجابتك الآن .. ولكن ينبغي الا يكلمها احد الآن .. يجب ان ترقد .
وحاولت جان ان تفكر فشعرت كأن ناعساً ثقيلًا يبهظ جفניה .. كأنها
قضت شهوراً طويلة غارقة في لجة السبات .. لم تحاول تذكر شيء إطلاقاً .. فكأن
خوفاً مبهماً يجذبها عن مواجهة حقيقة مرة ستعود الى مخيلتها .. وعادت تفرق في
عدم ادراك بعيد الغور فاقدة كل حس ..

كم طالت بها هذه الغيبوبة ؟ .. ليست تدري .. وفتحت عينها لتقعا على
جوليان .. كان وحده الى قربها .. واستعادت فجأة كل شيء .. لقد انزاح الستار
الكثيف الذي كان يحجب عن عيني عقلها كل حياتها الماضية .

وعصف بفؤادها الم هائل عواض فودت لو نفر من وجه هذا الرجل ..
فدفعت باعطيبتها بحركة مذعورة ووثبت من سريرها لتسقط فوق الارض لأن
ساقها لم تقويا على حملها ..

واندفع اليها جوليان . فراحت تزجر وهي تذبذبه عنها متعاشية مسه فتدحرجت
بكل جسمها فوق البلاط .. وفتح الباب .. وخفت اليها الحائلة ايزون والارملة
دانثو ثم ابوها واخيراً وصلت امها لاهنة الانفاس ضائعة اللب .
واعادوها الى فراشها فاغلقت جفניה حالاً كما تفكر على هواها ..

وانهمكت امها وخالتها بالعناية بها . وسألناها : - او تسمعيننا .. يا جان ..
يا جان الصغيرة .. يا صغيرتنا العزيزة جان ..

وتظاهرت بالصمم فلم تخر جوابا . وتأكدت من ان النهار يلفظ انفاسه
والليل يرخي على الكون سدوله . ولم يغادرها اهلها . فهم الى سريرها كالحرس
الشاكي الحراب . وبين القينة والاخرى كانوا يناولونها ما تشرب .. فكانت
تتناول الكأس لاتنبت ولا تختلج فيها جراحة .. وجفاها النوم فلا يعقد اجفانها
ابداً .. كانت تفكر بعناء . باحثه عن اشياء اخطأتها ذاكرتها كأن ثقبها قد
حدثت في كيان هذه الذاكرة فظلت بقعاً بيضاء . ولم يسجل فوقها شيء ابداً ..
وشيثاً فشيثاً ، وبعد جهود مضنية ، استعادت كل ماحدث لها ..
وشرعت تفكر باستغراق ثابت ..

لقد استقدموا اباه وامها والحالة ليزون .. فلا بد ان يكون مرضها خطيراً ..
ولكن جوليان ؟ ماتراه قال لهم ؟ او علم اهلها بحقيقة الموقف ؟ وروزالي ؟ أين
تراها الآن ؟ ما عليها هي ، جان ، الزوجة المهدوة ، ان تغفل الآن ؟ ماذا
تفعل يا الله ؟

واستنار عقلاها بفكرة برزت من العدم : تعود مع ابويها الى روان كفضلها
قبل ان تزوج ، وستعيش كرامة . هذا كل ما في الامر .

وانتظرت وقد اعارت اذنيها لكل ما يتردد حولها ففهمت كل شيء دون ان
يبدو عليها انها فعلت . وكنت خبر عودة ادراكها .. فكانت جلدة مخاتلة ! ..
ووجدت نفسها ، مساء ذلك اليوم ، منفردة بامها فتادتها بصوت خفيض :-
امي الصغيرة !

واستغربت صوتها هي نفسها فقد بلغ اذنيها كأنه صوت انسان آخر .
وتناولت الأم راحة فتاتها وقالت بصوت يذوب حنواً وانعطافاً :

جان ! يا بيبتي العزيزة ! يا صغيرتي جان ! اتعرفيني ؟ ..
- اجل يا اماء .. ولكن لا تبكي فلدي ما امره لك .. وهو كثير ..

هل اصدقكم جوليان الخبر؟ هل قال لكم لماذا فررت الى الثلج؟

- أجل يا جميلتي .. فقد دهمتك حمى خطيرة ..

- ليس هذا هو السبب يا أماء .. اما الحمى فقد أصبت بها بعد ذلك .. ولكن لم

يقل لكم من الذي سبب لي تلك الحمى ولماذا فررت وتوغلت في الليل والثلج؟ ..

- كلا يا حبيبتي ..

- سأقول لكم بنفسني اذآ : لقد ضبطت روزالي الحاذمة في فراش

جوليان ... زوجي ! ..

وخيل للبارونة ان ابنتها جان ماتزال على هذيانها .. فعمدت الى مداعبتها قائلة :

- هدئي من روعك .. نامي .. نامي يا حبيبتي .. حاولي ان تنامي ..

الا ان جان عادت تقول باصرار :- لقد استعدت كل قواي العقلية في هذه

ال لحظة فانا لا اهرق باقوال جنونية شأني في ايام مرضي الاول : لقد ادر كني مرض

ذات مساء .. فدعوت جوليان .. ومرت الى غرفته في صميم الليل فاذا بي أجد

روزالي في سرير .. فاضاعت الصدمة صوايي فانطلقت في الثلج ابغني القاء نفسي من

فوق صخور الشاطئ ..

وعادت البارونة تقول غير مقتنعة :- أجل يا حبيبتي ... لقد كان

مرضك شديداً ..

- ليس هذا هو السبب يا أماء .. اقول لك اني ضبطت روزالي في فراش

جوليان .. وانا ارفض العيش مع هذا الخائن المنحط .. ستعودان بي الى روان

كما كنا نفعل في الماضي ..

ومعلاً بنصيحة الطبيب لم تعارض البارونة :- كما تشائين يا حبيبتي ..

وأوشكت المريضة ان تفقد صبرها :- أرى جيداً انك لا تريدن تصديقي ..

ادعي والدي فهو يصدقني اخيراً ..

ونفضت الام بتثاقل وتناولت عصويها وخرجت تجر قدميها ولم تلبث ان عادت

يصحبها البارون وهي تتوكأ عليه ..

وما استقر بها المقام حتى شرعت جان تتكلم : روت لها كل شيء ، اخلاق جوليان الشرسة ، طباعه الفظة ، خشوته ، بخله .. وانتهت بان وصفت لهم حادث الحياة الذي زلزل كيافها وافقدها صبرها عليه .

وما فرغت من كلامها حتى كانا قد اقتنعا من انها لا تهزي .. واحتار البارون بامرء .. فما تراه فاعلاً ؟ بم يجيب ابنته ؟

وتناول يدها بمنو كما كان يفعل في الماضي اذ يرقدها في سريرها ويروي لها القصص :

- اصغي الي يا حبيبتي . ينبغي لنا ان نتصرف بحكمة فلا نتسرع ، أما انت فعليك ان تتظاهري باحتمال كل شيء حتى نتخذ في المسألة قرارنا .. اتعدينني بذلك ؟ وفتمت : - لا بأس برأيك يا ابتاه .. ولكني ان اقيم وياه تحت سقف واحد لحظة بعد ابلالي بما انا فيه .. ثم اضافت بصوت خفيض : - ابن هي روزالي الآن ؟ ..

فاجاب البارون : - لن تقع منك عليها عين . فعادت تقول بلهفة : - ولكن ابن هي ، يجب ان اعرف ما حل بها . واعترف لها ان الخادمة لم تغادر القصر بعد الا انها ستطرد قريباً شر طردة وما خرجا من غرفة المريضة حتى بدا البارون يحرق الارم غيظاً وحنقاً وجرح قلبه ، قلب الاب ، ينزو دماً ومشى الى لقاء جوليان وباغته بقوله : - جئت ياسيدي اسألك حساباً عن تصرفاتك حيال ابنتي لقد خنتها مع خادمتها ، انه عمل مزدوج الحفارة .

ومثل جوليان دور البريء المظلوم فانكر واصر على الانكار واستشهد الله على ذلك . اي دليل لديهم ؟ او لم تكن جان مجنونة ؟ او لم تصب بحمى دماغية ؟ لم تهرب فوق الثلج ذات ليلة اذ دعمتها نوبة صرع وهي في بدء مرضها ؟ واثناء هذه الازمة العصبية العقلية هبت تطوف ارجاء البيت شبه عارية وقد خيل لها جنونها انها رأت خادمتها في أحضان زوجها ! هذا كل ما في الامر ..

وغضب جوليان . وهدد بفتح تحقيق ، وظهر بظهر البري . المهان المهدور
الكرامة ظلماً وعدواناً ...

وتراجع البارون امام هجوم صهره المعاكس ، وعمد الى الاعتذار والاستغفار
ومد يده لصهره فرفض هذا الاخير تناولها .

ونقل البارون جواب الزوج الى جان فلم تغضب بل اجابت : انه يكذب
يا ابتي غير اني سأنتهي باقتناعه انه لاجدوى من كذبه .

ومرت عليها ليلتان وهي نهب للقلق والتفكير والتأمل .

وابدت في اليوم الثالث رغبته برؤية روزالي . الا ان البارون رفض
استقدام الزميلة مدعياً انها ذهبت . ولم يقنع زعمه جان فقالت : - ليذهب أحد
فيأتي بها من حيث تكون .

ودخل الطبيب فاعتري جان اضطراب .. فحدثوه بكل شيء وطلبوا اليه
حكمه . وانخرطت جان في البكاء وقد ثارت اعصابها كما لم يحدث لها ذلك من
قبل . كانت تردد في شبه صراخ :

- اريد رؤية روزالي ، اريد رؤيتها ..

وتناول الطبيب كفها وخاطبها بصوت خفيض النبرات : - هدني روعك
باسيدي . ان كل ثورة قد تؤدي الى نتائج خطيرة .. فانت .. حامل ..

وجمدت كأن لكمة هائلة صرعتها وخيل اليها ان شيئاً بدأ يضطرب في
احشائها فوراً .. ثم لزمت الصمت وانصرفت عن الاصغاء الى ما يقال حولها وقد
غارت حواسها في لجج افكارها الجائشة . وجفاها الرقاد ليلتها تلك وقد ارقتها
افكارها .. فهذا الجنين الحبي المضطرب في احشائها .. ماهو الا ابن جوليان !
بالمصير التمس ! ..

ودعت اباه ذات يوم وقالت : - لقد حزمت امري جيداً يا ابتاه ! اريد
معرفة كل شيء ! والآن دون اي وقت آخر ! اسمع ؟ اريد اوانت لا تنجمل ان
معاندتي ، وانا على ما انا عليه ، نجر الوبال .. اصغ الي جيداً . ستذهب وتأتني

بالسكاهن . اني بحاجة اليه كيما احول دون روزالي والكذب ، وما ان يحضر حتى
تأتيني بها هي الاخرى وستكون انت وامى حاضرين لتسما بأذانكما ، وحذار
ان يرقاب جوليان في شي .

ماضت ساعة حتى كان السكاهن قد دخل غرفة المريضة لاهت الانفاس ، فهو
كالبارونة ، يشكو السنة . وما استقر به المكان حتى شرع يمازح جان حول موضوع
الحدث السعيد المنتظر راجياً ان يكون المولود غلاماً ليسهم بنصيب في الذب عن
حياض الوطن .

ولم يلبث الباب ان انفتح ، وبدت على عتبة روزالي ، مضضعة الحواس ،
دامعة العينين ، تقاوم في الدخول متشبثة بحاجز الباب ، وفرغ صبر البارون من
مقاومتها فدفعها بجماجم يديه دفعة القت بها في وسط الغرفة متدحرجة بين الاقدام . .
غير انها استقامت وغطت عينيها براحتيها وشرعت تفشج .

أما جان فما وقعت عيناها على غريمتها حتى انتفضت وافقة ثم عادت فجلست
وقد ابيض وجهها حتى حاكى لونه لون اغطية فراشها . . وعلا وجيب قلبها حتى
حركت نبضاته القميص الرقيق اللاصق بجسمها . لم تفه بكلمة . فهي تتنفس بصوبة
كلية . . حتى لكانها تخنق . . واخيراً استطاعت ان تقول بصوت مقطعه الزفرات : -
لم تعد بي حاجة لسؤالك . . حسبي خجلك وصغارك وموقفك المبهين أمامي . .

وتابعت بعد فترة صمت فرضها عليها اضطرابها المتفاقم : - اني اود معرفة كل
شيء . . كل شيء . . لقد استقدمت السكاهن كيما يكون قواك بمثابة اعتراف . .
اتسمعين ؟!

كانت روزالي جامدة كأنها سموت الى الارض ، وبدأت تطلق ، بين راحتيها ،
صرخات قصاراً وزفرات حارة .

وقبض البارون على ذراعها وقد استبد به الغضب وهزها بعنف ثم القى بها
الى الارض فسقطت على ركبتيها أمام سرير سيدتها ، وصاح بها : - تكلمي ! . .
اجبي !

واستكانت في جنوها كأنها أمام مذبح .. وكانت قبعتها قد سقطت الى قربها
 كما طارت مريلتها فوق البلاط .. ثم عادت فغطت بحباها بيديها من جديد ..
 ووجه اليها الكاهن الكلام عندئذ قائلاً : - هيا .. يا بنيتي !! اصفي الى ما يقال
 لك واجيبي نحن لانبغي الحاق اي اذى بك انما نود معرفة ما حدث ..
 وتناولت جان عبر فراشها وراحت تتأمل الوصيفة المسكينة .. وقالت :
 - أصبح انك كنت في سرير جوليان عندما فاجئتك ؟
 وانت روزالي من خلال راحتها : - صحيح ياسيدي .
 وعلا بكاء البارونة فجأة .. واخفق صوتها بالزفرات حتى فاقت بقتلها
 التشنجية روزالي المسكينة وعادت جان تسأل من جديد وعيناها لا تفارقان الوصيفة :
 - الى متى يرجع تاريخ هذه العلاقة ؟
 وجمعت روزالي بحبيبة : - الى يوم جاء الى القصر ..
 ولم تفهم جان فاستوضحت : - يوم جاء ؟ .. اذاً .. منذ الربيع ؟ ..
 - اجل ياسيدي ..
 - منذ ان دخل هذا المنزل ؟
 - اجل ياسيدي ..
 ومضت جان تسأل بصوت ملح فكان الاسئلة تتدافع الى طرف لسانها تدافعاً :
 - ولكن .. كيف حدث ذلك ؟ كيف طالب اليك ذلك ؟ كيف امتلكك ؟
 ماذا قال لك ؟ ومتى وكيف استسلمت اليه ؟ كيف استطعت اعطائه جسدي ؟
 وازاحت روزالي راحتها من فوق وجهها وقد ادركتها هي الاخرى رغبة
 في الكلام ، في الافضاء بكل شيء ، في الاعتراف .. : - حدث ذلك يوم يوم تعشى
 هنا للمرة الاولى ، فقد جاء الى غرفتي واختبأ في مستودع المؤونة .. وفاجأني فلم
 اجروء على الصباح كي لا اخلق المتاعب .. وقضى ليلته في فراشي .. لم اكن اعرف
 تماماً ما ينبغي عمله في تلك الساعة .. وقضى لي ليلته .. لم أقل شيئاً لاني استلظفت
 فعلته تلك ! ..

وندت عن صدر جان صرخة هائلة ..
 - ولكن .. ولدك .. طفلك .. اهو منه ؟
 واجابت روزالي منتحبة : - أجل ياسيدي .
 ولادت المرأتان باذيال الصمت .
 ولم يعد يعكر السكون سوى بكاء روزالي ونشيج البارونة ..
 وشعرت جان بعينها تقيضان وقد جثم فوق صدرها هم مريع .. وسالت
 الدموع بصمت فوق وجنتها .
 ان لطفها وطفل خادمتهما اباً واحداً .. وانهار فيها غضبها . وحل مكانه بأس
 قائم اجتاح كيافها بطيئاً ، عميقاً ، لامتناهياً .
 وعادت تقول وقد تغير منها الصوت ، وبللته الدموع : - ولما عدنا من
 هنالك .. من شهر العسل .. متى عاودتما فعلتكما ؟
 وتمتت الخادم الصغيرة وقد تحاذلت وانهارت الى الارض : - في الليلة ..
 الاولى .. جاءني . كانت كل كلمة تقال تشحن قلب جان ..
 هكذا اذاً .. في الليلة الاولى .. ليلة عودتهما من شهر العسل ، هجرها الى
 هذه البنية .. من اجل هذه الخادمة تركها تنام وحيدة تلك الليلة ..
 لقد عرفت ما كانت تود معرفته . أجل لقد عرفت ما فيه الكفاية .. لم تعد بها
 رغبة لمعرفة المزيد وصرخت بالفتاة الذائبة صغراً : - اغربي !! اغربي !
 ولم تتحرك روزالي .. كانت منهارة متخاذلة تماماً . فتادت جان اباه :
 - خذها .. انصرف بها ..
 ووجد الكاهن ، الذي كان حتى تلك اللحظة لا ئذاً بالصمت ، السانحة مناسبة
 لالقاء موعظة :

- ان ما اقدمتي عليه يا بني سي* جداً . والله العزيز لن يغفر لك سريعاً ،
 فكري بالجحيم الذي ينتظرك اذا لم تنتهجي بعد اليوم نهجاً مستقيماً ، اما الآن ،
 وانت أم لطفل ، فعليك السير على غير هذا السبيل ، وسيدتي البارونة لن تغفل

عنه وستكافئ لايجاد زوج لك . لقد طال به الكلام وازجاء النصع ، وما فرغ
حتى تناول البارون روزالي من منكبها وجرها حتى الباب ثم دفع به الى الممر
كأنها غرارة أو حطام ..

وعاد الكاهن يقول اذ دخل البارون وقد فاق ابنه شعوباً :

- ماذا تريد ، ان اغلب النساء في هذه المنطقة على هذه الشاكلة ، انه تخل
من الله ! ولكن ماذا بوسعنا ان نفعل ؟ لابد للضعف البشري من بعض المداواة ..
وقلما نتزوج فتاة دون أن يسبق لها الحمل والوضع ! .. هكذا دائماً ياسيدي ..
وأضاف باسمياً : - حتى ليخيل الى المرء انها عادة متبعة هذه الحلة الذميمة .
ثم تابع بصوت ينضح احتقاراً : - وحتى الاطفال .. يفعلون مثل هذا ! ..
ألم اعثر ، في السنة الماضية ، بين المقابر ، على طفلين من صف التعليم الديني .. صبي
وبنت ! واخطرت أهلها ! اندرون ما كان جوابهم ؟ : - ماذا تريد ياسيدي الكاهن
لسنا من لقنهم هذه العادة القذرة ! اننا لانستطيع حيالها شيئاً .. وهامي بخادمتك ،
ياسيدي ، تسير على غرار الآخرين ..

بيد ان البارون قاطعه محتدأً : - هي ؟! ماذا يعني ! لتذهب الى الشيطان !
ان جوليان هو الذي يصمتنا بالعار ! ان في عمله منتهى الصغار ، لن اترك ابنتي
لنذل مثله ..

ثم نهض يذرع الغرفة فاثراً اقواله النارية :

- باللعطة ! بهذا الشكل الفاضح يخدع ابنتي ! انه عاهر هذا الرجل ! انه حقير !
سافل ! تعس ! .. سأجبه بهذه الصفات .. سأضربه .. سأصفعه .. سأمينه تحت
عصاي هذه ! ..

غير ان الكاهن الذي كان قد انصرف الى عب التبغ بالقرب من البارونة
المنتعجة ، شاء اتمام مهمته الاصلاحية فقال :

- اصغ الي ياسيدي البارون ، والكلام بيننا ، لم يفعل صهرك الا ما يفعله
جميع الناس .. او تعرف الكثير من الازواج الخلفين ؟ ..

واضاف بطيبة خبيثة : - دعنا .. اني اراهن انك انت الآخر ، مثلاً ، فعلت يوماً فعلته .. ها أنا ارفع يدي واحلفك بشرفك .. أليس هذا صحيحاً ؟
وتوقف البارون أمام الكاهن ، فتابع هذا الاخير : أجل ، يا بني ، لقد فعلت كالأخرين .. من يدري فقد تكون ، انت الآخر ، قد أغويت خادمة صغيرة كهذه .. ان كل الناس يفعلون ذلك اقول لك ، وزوجتك ؟ .. أأثر ذلك على سعادتنا او جبهنا ؟ .. كلا طبعاً .. اليس كذلك ؟ ..

كان البارون بالغ الاضطراب فلم يبد حراكاً ..
باللسماء ! ان ما قاله الكاهن صحيح .. لقد حدث له ان فعل فعلة صهره ! ومراراً أيضاً ! وكلما استطاع الى ذلك سبيلاً .. انه لم يحترم مطلقاً الحقوق الزوجية وهو لم يحجم مطلقاً عن اغواء وصفات زوجته اذا كن جميلات ! أترأه ، بسبب ذلك شقيماً ؟ ولم يحكم بمنزل هذه القسوة على سلوك جوليان في الوقت الذي لم يحكم أحد عليه ، ولم يحكم هو على نفسه ، مثل هذا الحكم ..

وعبر بشفتي البارونة ظل ابتسامة اذ عادت بها الذكري الى صبوات زوجها فهي من عرق عاطفي بالسليقة فسرعان مانحن وتصوبوالمغامرات العاطفية ، في نظرها ، جزء الوجود الحلو ..

كانت جان غارقة في بحران افكارها الواخزة ، منهارة الأعصاب ، بلهاء النظرات ، مستلقية فوق ظهرها ، مصالبة ذراعها فوق صدرها ، وهي تجتر بعض أقوال روزالي فتخترق صدرها كالنصال الرهيفة وتوغل في سويداء قلبها كالسهام المراسمة : « اما أنا فلم اعترض .. لأني استلطفت فعلته تلك ، انها هي ، جان ، قد استلطفته ! ومن أجل ذلك فقط ربطت مصيرها بمصيره مدى الحياة ، فكانت حبه مهوى فوادها ومناط أملها دون غيره من الأما في العراض .. فتخلت من أجله ، عن كل ماعقدت على غدها المأمول من آمال .. لقد انزلت في هذا الزواج ، هذه الهاوية الفاعرة الاشدق لتصل الى مثل هذا الشقاء المقيم .. هذا اليأس المريع .. كل هذا لأن روزالي قد « استلطف » زوجها ! .. »

وفتح الباب بركلة غاضبة . وظهر جوليان ! كانت هيئته مخوفة . لقد وقع نظره على روزالي في المشى تثن ففهم ان ثمة اشياء تجري في الخفاء ، وان الفساة قد فضحت السر المكنون . وما وقعت عيناه على الكاهن حتى سهر في مكانه .

وسأل بصوت راعش الا انه هادي النبرات :- ماذا ؟ ماذا يجري هنا ؟ ولم يجرؤ البارون التأثير منذ لحظة على قول شيء . وقد خشى ما قاله الكاهن والمثل الذي اتخذه حول الحادث وعلا صوت الام اعلى من السابق ، ورفعت جان جذعها فوق ذراعيها ونظرت الى زوجها لاهة النفس . . أجل لقد واجهته بنظر لا يريم . . زوجها ؟ بل هو مبعث آلامها ومصمي فؤادها بهذا الشقاء الهائل الذي لا يطاق .

قالت في شبه صراخ :- ماذا يجري ! لقد برح الخفاء ! عرفنا كل شيء ! خيانتك وسفالتك . . منذ اليوم الذي وطأت فيه قدماك هذا البيت . . علمنا ان طفل الخادمة ابن السفاح ، هو ابنك . . شأنه في ذلك شأن طفلي انا . . انها اخوان ! . . ما بلغت من كلامها هذا الحد حتى غمرتها موجة ألم عاتية كاسحة فانحطت فوق فراشها وراحت تفشج بجنون . .

أما جوليان فقد جمد في مكانه لا يدري ما يفعل او ما يقول ، وتدخل الكاهن من جديد :

- لا ، لا ، ليس لنا ان نجلب لانفسنا كل هذه المتاعب التي لأرى لها مبرراً ، كوني عاقلة ياسيدي ، ارحمني صباحك ، ارحمني جنينك ان لم ترحمني نفسك ! ومشى الى السرير والقى بكفه الفاتر فوق جبهة الزوجة الباكية ، الضائعة الأمل ، وكان لهذه اللمسة من يد رحيمة حانية فعلها السحري فاشاعت في اعصابها المتوترة بروداً وسلاماً . .

وعاد الرجل الطيب يقول وقد استمر في وقوفه بالقرب من السرير :
- ينبغي ان تسامحي جهد طاقتك ياسيدي ، انه شقاء عظيم هذا الذي نزل ساحتك الا ان الله قد عوض عليك آلامك كرمأ منه واعساناً ، فها انت تستصعبين

لأما . وسيكون لك بوليدك عزاء وسوى ، وأنا ، باسم العلي القدير ، اطلب اليك
ان تغفري ، احلفك ان تسامحي . . ان تنلامي خطيئة السيد جوليان . . سيدك ،
بطفلكما المرتقب ، رباط لا تنفصم له عرى . . وسيكون منه لزوجك رادع عن
الانغماس في الموبقات في آتيات الايام ! لا . لا . يسيدتي لن تستطيعي الانفصال عن
علة وجود هذا المخلوق المضطرب في احشائك . .

ولاذت جان بصمت عميق الغور . كانت مضغضة الفكر ، مشغنة القلب ،
منهارة القوى . . انها لا تقوى على شيء . . حتى على الغضب والحقد والكراهية . .
أجل انها لأعجز من ان تغضب أو تحقد أو تذكره . .
وخيل اليها ان اعصابها قد استرخت ثم جاء نصل رهيف فقطعها بهدوء . .
فهي لا تسكاد تشعر بتعدد أنفاس الحياة بين جنبها . اما البارونة ، وقد استنزفت كل
قدرة على الاحتمال ، فاكتفت بالقول :
— حسنا يا جان .

ودنا الكاهن من جوليان فتناول يده وقاده الى سرير زوجته ووضع اليد
في راحتها وربت فوق الراحتين كأنه يربط بينهما برباط جديد لمدى الحياة . ومضى
يقول وقد تخلى عن لهجته الواعظة المعلمة :

— دعنا لقد انتهى كل شيء . . اؤكد لكما ان هذا خير وابقى . .
وافترقت الراحتان فجأة بعد ان تماسا فترة قصيرة . ولم يجرؤ جوليان على
تقبيل زوجته فاكنتفي بطبع قبله على جهة حماة وقد تركته يفعل دون مقاومة .
اما هو فقد اشرق وجهه سعادة بهذه النهاية التي تمت بمثل هذه السرعة . . وخرج
الرجال سوية لتدخين لفاقة . .

ومضت المريضة تجتر آلامها بينما انصرف الكاهن الى الترتبة مع البارونة
شارحاً لها افكاراً جالت في خلده اما هي فكانت توافق دائماً على أقواله باحشاء
متتابع من رأسها الأشيب .

وخلص الى القول أخيراً : — اذا فانت توافقين . ستمنعي هذه البنية حقل

(بارفيل) وسأهم انا بايجاد زوج لها وسيكون شابا نشيطا فقيراً ! آه . مع بائنة
تبلغ عشرين الفاً من الفرنكات لانعدام هاوياً .. وأؤكد لك ان الحيرة ستدركنا
عند الاختيار !

وعادت سيبا السعادة ترسم على محيا البارونة فيبتسم ثغرها وترقص عيناها
ولم يبق من آثار أحزانها السابرة سوى دمعين استقرتا فوق منتصف وجنتها
لانبرحان وقد جف الحط الرطب فلا تنزلقان فوقه ..

وألحت في القول : - اتفقنا . ان حقل بارفيل يساوي ، على اقل تقدير ، عشرين
الفاً ولكن سيبقي ملكاً للطفل وسيتمتع الابوان بحجراته ما دام على قيد الحياة .
ونحس الكاهن وضغط يد البارونة : - لا تنزعجي ياسيدي البارونة ..
لا تنزعجي .. فانا اعرف ما تتطلب كل خطوة من دراية وحكمة .

والنقى ، لدى خروجه بالحالة ليزون ، آتية تعود مريضتها دون ان تظن الى
شيء مما يجري كما ان احداً لم يتكبد عنه اطلاقاً على شيء فهي تجهل كل ملاسات
القضية شأنها حيال كل ماجري في كل مكان ..



الكتاب الثاني

الفصل الأول

غادرت روزالي القصر بينما كانت جان تستكمل ايام حملها بالغة التألم ، متفائمة الاوجاع ، انها ، اذ تفكر بانها ستصبح اما ، لا تشعر بأية لذة او اية راحة . لقد اثغنت فيها الاحزان المعزقة وانمكتها الآلام المبرحة . فاقامت تنتظر طفلها العتيد لا يهزها اي شوق الى رؤيته فهي ابدأ مطوية الجناحين على جراح قلبها التي لا تعرف الاندمال ..

وعاد الربيع الطلق يخالج مجرراً اذ ياله الفتانة الوشي الاريجية النشر .. فكان نسيمه العبق يهز الاشجار ولما تكتسي بعد زمرده المعطار .. بيد ان السوسن بدأ يتفتح في المنعطفات الكاسية عشباً ندياً فوق جثث اوراق الخريف المنصرم ! وكانت امرأة ضخمة الجرم كأنها البرج المشد قد حلت مكان روزالي تساعد البارونة على القيام بنزهتها المعتادة في الممشى اياه . وكان البارون يسند بذراعه جان المثقلة بحملها الدائمة الشكوى والتألم . اما الحالة ليزون فكان لها ، من الطفل العتيد ، شغل شاغل .. ولشد ما اقلقها هذا السر الغريب ، سر الحمل ، المحرم عليها .. ومضوا في نزهتهم وقد جثم فوقهم صمت ثقيل بينما كان جوليان لا ينفك يطوف في المنطقة ممتطياً جواده وكانت عادة هذه النزهات الخلوية قد استبدت به في الفترة الاخيرة .

ومضت مدة لا يعكر صفو حياتهم الرتيبة تلك معكر . وكان البارون وزوجته وصهرهما قد قاما بزيارة آل « فورفيل » وقد بدا كأن جوليان قد وطد معهم اواصر صداقة متينة دون ان يعنى بشرح ذلك لاحد وكذلك قصدوا آل « بريسفيل » في زيارة مجاملة .

وذات مساء دخل الحوش المحيط بالقصر فارسان مهرولان . امرأه وجل . وخف جوليان ، بالغ الانهك ، الى زوجته وناداهما : -- هيا . هيا . اسرعي بالنزول . ان (آل فورفيل) عندنا . لقد كانا يقومان بزيارتهما فاتصل بهما انك مريضة فجاءا يعودانك . قولي لهما اني خرجت ولن البت ان اعود . سأنظم شيئاً من شأني .

ونزلت جان مستغربة هذه الزيارة . وقدمت اليها الضيفة زوجها . اما المرأة - مدام فورفيل - فشاحبة الحيا ، وسبمة التقاطيع حزينة ، ذات عينين مكسرتي الاهداب وشعرها على شقرة فاقعة كأنه لم يتعرض للشمس قط . اما الزوج فعملاق ذو شاربين اشقرين كبيرين .

قالت المرأة : - لقد اسعدنا الحظ مراراً ببقاء السيد دي لامار . وقد حدثنا بما انت عليه من مرض فلم نشأ ان نتأخر اكثر من ذلك فنأتيك نعودك بصفتنا جيراناً لكم وانت تلاحظين اننا قد تجاوزنا في ذلك حدود الرسميات . ولقد سعدنا ، فضلاً عن ذلك ، بزيارة والدك والدتك منذ بضعة ايام .

كانت تتكلم بمنتهى السهولة ، دون كلفة وبلمهجة رفيعة التهذيب ، وسرعات ما علقها قلب جان .

وفكرت : - انها تصلح لأن تكون صديقة .

اما الكونت دي فورفيل ، زوجها ، فبدا ، على العكس ، كدب يدخلونه ردهة استقبال . فما ان دخل القاعة حتى سارع بالانخطاط فوق كرسيه والتي قبعتها جانباً واحتار كيف يركز راحتيه وانتهى بان اراحهما فوق ركبتيه ثم صلب اصابعه كأنه في صلاة .

ودخل جوليان فجأة ... وكادت جان تنكره لشدة ما رأت تغيراً في مظهره .
كان قد حلق لحيته وتأنق في لباسه ... وبدأ لعبئها انيقاً جميلاً كما كان في عهد
خطبتها البائد الجميل . وشدد الكونت المكسوة شعراً فأيقظه من استغراقه الابله
وم بيد الكونتس فلتئها فجرت ، لهذه البادرة ، الدماء الى خديها العاجيين فتصرجتا
قليلاً ... وعبرت بحفنها ارتعاشة تدق على الانظار ..

وبدأ جوليان يتحدث . كان لطيفاً كمهددا به في خاليات الايام ... وكانت
عيناه اللامعتان حباً قد عادتا ، كشأنها في الماضي ، مداعبتين مهددتين . اما شعره
الذي كان منذ لحظة خشناً مفبراً قد انقلب تحت الفرشاة والزيت المعطر لامعاً
متوجاً وعندما نهضا للانصراف التفتت الكونتس الى جوليان وقالت :

- اترغب باعزيزي الفيكونت بالقيام ، يوم الخميس ، بنزهة ، على الجياد ؟
وعند ما انحنى قائلاً : - بكل تأكيد يا سيدي .

اخذت الكونتس يد جان وقالت بصوت عميق نفاذ وبابتسامة محبة : - عندما
ستبلين من مرضك ستفريض على الجياد كثيراً نحن الثلاثة في هذه المنطقة .. سيكون
ذلك ممتعاً .. الا ترغبين في ذلك ..

وربتت على ذيل جوادها الامازوني بحركة مرحة وبحفنة العصفور وثبتت الى
السرجه بينما تسلق زوجها متن جواده الضخم وحس بطريقة خشنة واستقر بكل ثقل
جرمه فوق الجواد كما يحتمدب فوق فريسته !

وهتف جوليان مأخوذاً وقد اختفيا في المنحنى القريب : - يا لهم من اناس
محبين ! ان معرفتها ستكون لنا ذات غناء !

واجابت جان وقد شعرت غبطة لم تدر لها سبباً : - ان هذه الكونتس
الصغيرة رائعة ! لشد ما مال اليها قلبي ! اما زوجها فيبدو عجباً جلفاً ! اين عرفتها اذآ؟
وفرك يديه فرحاً وقال : - لقد التقيت بها صدفة لدى آل بريسفيل . ان
زوجها لعلى شي من الغلظة ولكنه صياد وذو مراس وبأس . الا انه نبيل القلب
هذا الخلق الضخم !

واوشك العشاء ان يكون. رحاً فكأن الزوجين قد حملا الى البيت سعادة خفية
وتصرمت ايام تموز دون ان يحدث في القصر ما يستحق الذكر .

و ذات مساء ، كانوا جلوساً الى مائدة مدت في الحديقة تحمل كؤوساً
وزجاجات خمر ، ولم تلبث جان ان اطلقت صرخة حادة وشعب لونها شحوباً شديداً
ثم اسندت بطنها براحتيها فقد طاف باحشاؤها الم خاطف حاد كأنه طعنات المدى
الرهاف الا انه لم يلبث ان تبدد واضمحل ..

ولم تمض عشر دقائق حتى عاودها الألم ولفترة اطول ولكنه اخف وطأة .
وبصعوبة شديدة تمكن زوجها وابوها من حملها ونقلها الى غرفتها .

لم يكن موعد الخاض قد اذف . فلم يكن قدوم الوليد منتظراً قبل ايلول ..
وطارت مركبة لاستقدام الطبيب . ووصل في منتصف الليل وللنظرة الاولى
ادرك ان في الامر ولادة مبكرة .

ودهمتها فترة من آلام هائلة ممزقة . وبدأ الخاض ..

كانت جان ، في غمرة اوجاعها ، لا تفارق بفكرها روزالي ... وكيف تمت
ولادتها بسهولة متناهية فلم ينتبه اليها احد الا والوليد بين ساقيها .. بينما وليدها هي
يمزق اشياءها شر ممزق ..

كان الطبيب والقابلة منحنين فوقها وقد اخذا يزان جسمها .. ورفعها شيئاً ..
وسرعان ما جعلتها هذه الضجة الخفيفة تقفز ثم ولجت تلك الصرخة الخفيفة ، ذلك
المواء الطري ، فزادها وتغلغل حتى اعماق سويدانه فغمرت كل جسدها المسكين
المنهوك . وبددت عنها اشارة لا ارادية فكأنها تحاول مد ذراعها وضم شيء ما .
وحدث في صميمها ارتعاش غبطة ، ميل نحو سعادة جديدة ولدت لتوها بين
طوايا كيانها . ووجدت نفسها خلال لحظة واحدة منقذة ، مشبعة الرغبات ،
سعيدة .. سعيدة كما لم تكن قبل ذلك ابدأ . وتحرك قلبها .. وجسدها . لقد
غدت اماً .

وودت لو ترى وليدها الم يكن شعره واظفاره قد نبتت بعد فقد ولد مبكراً

غير انها ما ان رأت هذه المضغة تتحرك وتفتح فافاها وتطلق مواها .. وما ان لمست هذا الكيان اللدن الحازوني الشكل ، الحلي ، ما ان فعلت ذلك حتى غمرتها نشوة سرور لا تقاوم فهبت انها انقذت ، انها امنت كل بأس .. انه اصبح لديها من قمضه حبها وتملكه قلبها فوق كل شيء آخر .

ومنذ تلك اللحظة لم نخالجهما سوى فكرة لا ثانية لها : ولدها . وغدت مرة واحدة اما متفانية ، مندفة في حناها بقدر ما كانت خبيثتها في حبها عظيمة .. حتى غرقت في لجج من املها وامانها . وطلبت ان يوضع المهد بالقرب من سريرها . وبعد ان تركت فراشها كانت تقضي معظم وقتها جالسة امام نافذتها وبالقرب منها مهد وليدها تهزه وتهدهده .

وشعرت بالغيرة من مرضعة ابنها ! فاذا ما رآته يندفع نحو الثدي الضخم الازرق العروق فيلتقم حلمته السمراء بين شففيه النهمين كان لونها يشعب وانفاسها تتلاحق وجز كيانها ارتعاش وهي تدنو الى الفلاحة القوية البنية وبودها لو انتزعت منها الرضيع .. ثم تميل على ذلك الصدر العاري فتمزقه باظافرها شر ممزق ..

ثم انصرفت الى تطريز قطع الثياب لتزينه بها . فكانت تصرف جل اهتمامها لاجراحيها آية في الدقة والاناقة . لقد غمرته في لجة من الدنثلا وقبعته بقبعات متناهية في جمالها . ولم تكن لتتكلم في غير هذا الموضوع . فكانت تقطع عن حديثها لتأمل قطعة طرزتها فتقلبها بين اناملها قائلة جلسائها : - اعتقدون انه سيبدو جميلاً في هذه الثياب ؟

كان البارون والام يضحكان من هذا الحنان المشبوب . غير ان جوليان كان قد فقد الكثير من اهميته الشخصية واصبح شخصاً ثانوياً بعد قدوم هذا الملك الصغير القادر على كل شيء . . وبلغ به الامر ان بدأ يغار من هذا الرجل الناقص الذي جاء من عالم مجهول فاحتل المكان الاول الذي كان يتربع به هو قبل ذلك في البيت . وكثيراً ما كان يردد فارغ الصبر نثر الغضب :

- انها مزعجة مع فرخها هذا .

واندفعت منع هذا الحب بشكل جنوني حتى بلغ بها ذلك ان تقيم طوال الليل
لا يرقدها جفن الى قرب مهد الوليد تتأمله وهو مطبق الاجفان غارق في سباته
المهادى . وكان طبيعياً ان يؤثر هذا التعلق الشديد بصحتها فتفقد وزنها ويشعب
لونها ثم اعترها سعال فما كان من الطبيب الا ان امر بفصلها عن ولدها .

وغضبت وبكت واسترحت . الا انهم اصموا الاذان عن رجائها . فكان
الطفل يحمل كل مساء الى قرب مرضعه وفي كل ليلة كانت جان تنهض حافية
القدمين وتسير الى غرفته فتلتصق اذنها بالباب كي ترى اذا كان ينام . مله جفنيه ، اذا
كان لا يستقيق او ليس به الى شيء . حاجة .

وضبطها جوليان في مثل هذا الموقف مرة وكان عائداً متأخراً من سهرة
قضاها لدى آل فورفيل . وعمدوا بعد ذلك الى اغلاق باب غرفتها بالفتاح ليحبسوها
على النوم .

وقمت مراسيم تنصير الطفل في اواخر آب فكان البارون عرابه والعمة ليزون
عرابته . واطلق على الطفل اسم بيير - سيمون - بول . وحمل اسم بول للاستعمال
غير الرسمي .

وفي اوائل ايلول سافرت العمة ليزون كما جاءت دون ان تحدث اية ضجة .
وجاء الكاهن بعد العشاء من احد ايام ايلول . وكان يبدو شديد الاهتمام
كأنه يحمل شيئاً يقوله بالغ الخطورة وبعد فترة من المجاملات الفارغة رجع البارون
والبارونة ان يصحباها الى خلوة فان لديه ما يقوله لهما . وبقي جوليان بمفرده مع
زوجته . . وظهر عليه الارتباك والقلق والاضطراب من هذا السر المهم .

وساء ان يرافق الكاهن بعد ان استأذن بالذهاب فاخفيا سوية متجهين نحو
الكنيسة التي كانت نوافيسها تدق البشارة (١)

كان الجو رطباً بل يكاد يكون بارداً . فدخلوا الى الردهة حالاً . وكان الجميع
يومون نعاساً عند ما دخل جوليان كأنه العاصفة وصرخ بوجه حميه وحماته : انكما
مجنونان وحق الآله ! انهبون هذه الفتاة عشرين الف فرنك ؟ !

(١) ترجمة : Angelus وهو وقرع النواويس ساعة الغروب .

ولم يحبه احد اعظم المفاجأة . فعاد يقول وقد استبد به الغضب : - لا يمكن
للمرء ان يكون مغفلاً الى هذا الحد ! تريدان اذاً حرماننا من كل فلس ؟
وكان البارون قد تمكن من استجتماع شتات فكره فشاء ايقافه عند حـده
فصاح به : اخرس ! فكر انك تتكلم امام زوجك . ولم يكن قد أنه لوجود جان
بين والدتها .

غير انه اندفع في ثورته : - لا اهتم بذلك مطلقاً ... انها تعرف كل شيء . ان
هذا العمل انتهاك لحقها الطبيعي .

واخذت جان بقول زوجها دون ان تفقه مرماه . وفتحت : - ماذا حدث اذاً ؟
فاستدار جوليان نحوها حينئذ واتخذ منها حكماً ومضى يتحدثها بالموأمره الرامية
الى زواج روزالي ، بامهارها الارض في بارفيل وتلك الارض التي تساوي عشرين
الفاً على اقل تقدير . وعاد يقول : ولكن ابويك مجنونان يا عزيزتي مجنونان في هبتها !
عشرون الفاً ! عشرون الفاً ! عشرون الفاً لهذا الولد السفاح !

ودهمت جان من نفسها فقد لحظت ان اي تأثر او غضب لم يعتورها . كانت
هادئة ، غير مبالية لا يثير فيها اي اهتمام كل موضوع لا يمس وليدها مباشرة . فقد
غدت الآن ولا هم لها في الدنيا سوى هذا الوليد .

واحتبست انفاس البارون فهو لا يجد ما يقول . وانتهى بان انفجر فائلاً
وهو يضرب الارض برجله : - فكر بما تقول ! ان هذا مشير اخيراً . على عاتق من
تقع تبعة امهار هذه الفتاة الام ؟ لمن هذا الطفل ؟ انك تبغي التخلي عنه الآن !
وثبت جوليان انظاره على البارون وقد اذممه عنقه . فعاد يقول بصوت
اكثر هدوءاً :

... ولكن الفأ وخمسة تكفي ! ان معظم الفتيات يلدن قبل ان يتزوجن
ليكن الطفل ابن من شاء فليس في هذا ما يغير في الموضوع شيئاً . انت في هبتك
هذا الحقل الرجيع الثمن ، فضلاً عن سرماننا منه ، قولاً صراحياً بما حدث وفضيحة
علنية لي . . . كان عليكم ان تحببوا على الاقل حساباً لاسمنا وسمعتنا بين الناس .

كان يتكلم بلهجة صارمة . لهجة رجل قوى بمنطقة ممتد بصواب ما يرمي اليه وظل البارون مشدوهاً امام حججه القوية ومنطقه السليم . وما ان شعر جوليان بسيطرته على الموقف حتى راح يشرح نظريته :

... لحسن الحظ ان شيئاً لم يتم حتى الآن . وانا اعرف الفتى الذي يبتغي الزواج منها . انه شاب طيب ويمكن تدبر كل شي معه . سأهتم بذلك واندفع الى الخارج فوراً وقد خشي ولا شك الاسترسال في النقاش كما اسمعده ان يلقي ذلك الصمت من الجميع وقد اعتبره موافقة وقبولاً .
وما ان اختفى حتى عاد البارون يقول بعد ان زالت عنه المفاجأة : - آه ! انه لا يطاق ! لا يطاق !

غير ان جان رفعت الى وجه ابها المضطرب عينها وانطلقت فجأة تضحك ضحكها الصافية الماضية عند ما كانت تشهد اشياء غريبة وكانت تردد : - ابي ! ابي ! هل لاحظت الطريقة التي كان يلفظ فيها كلمة « عشرين الفاً » ؟ !
وانتقلت عدوى الضحك الى الام التي كانت سريعة الفرح سرعتها في البكاء ، وقد استعادت منظر صهرها وهو يرفض بعنف اعطاء المبلغ الى الفتاة التي اغواها بنفسه . . تم شاركهم البارون نفسه ضحكهم كأن العدوى قد انتقلت اليه هو الآخر ، واندفع الثلاثة يضحكون شأنهم في الايام الماضية السعيدة
وما ان مدوا شيئاً ما حتى قالت جان وكانت دهشتها من نفسها على اشدها :
انه لا امر عجب ! ان هذه الحادثة لا تعني بالنسبة الي شيئاً . اني انظر اليه نظرتي الى شخص غريب . ليس باستطاعتي الاعتقاد باني زوجة له . . وكم تسرني . . موافقه غير المهدية !

وتعانق الثلاثة فرحين دون ان يدركوا حقيقة الدافع الى ذلك
ومضى يومان بعد ذلك . فاذ بهم يلمعون بعد الغداء شاباً يجتاز السور بخطى مترددة وكان جوليان قد خرج على جواده . كان الشاب يناهز الخامسة والعشرين ، يرتدي قميصاً أزرق جديداً كثير الطيات منتفخ الكمين مزرباً . وبعد ان دار

حول الحديقة دنا من البارون والمرأتين الذين كانوا جالسين تحت الخيمة .
ورفع قبعته لدى وقعت عليهم انظاره وتقدم وهو يجيى وقد اعتراه اضطراب
عظيم .

وما اصبغ على قيد السمع منهم حتى شرع يتعم : - اني خادعكم ياسيدي
البارون .

ولما لم يجبه احد اعلن : - وانا ادعى ديزيره لبيكوك .
ولم يثر هذا الاسم اي شيء في نفوسهم فسأله البارون : - وماذا تبغني ؟
وادرك الفتى اضطراب شديد اذ علم الا مناص من شرح واقع حاله .
وشرع يحجم وهو يرفع ناظره تارة ويخفضها اخرى :
- انه سيدي الكاهن الذي اسرنا الي بضع كلمات بخصوص هذه القضية .
وصمت خشية الاسترسال فيما قد يحبط سماعه . وعاد البارون يقول : - اية
قضية تعني ؟ انا لا اعرف شيئاً عن هذا الموضوع

وخفض الشاب صوته وقد عزم على البوح : - قضية . قضية خادمة كمرزالي .
وكانت جان قد حدثت ذلك فتمضت ومضت تحمل طفلها بين ذراعيها .
قال البارون :

- اقترب .
واشار الى الكرسي الذي خلا من ابنته .
- هذا لطف منك
فالها الفلاح وهو يقتعد الكرسي ومكت
صامتاً منتظراً كأن ليس لديه ما يقول . وبعد صمت طويل حزم امره ورفع ناظره
الى السماء الزرقاء وقال :

- انه طقس جميل بالنسبة للموسم .
وعاد الى صمته المطبق . ونفذ صبر البارون فدخل في صلب الموضوع فجأة
وقال بلمحة جافة :

- انك اذاً الشاب الذي يبتغي الزواج من روزالي ؟
وسرعات ما بدا الاضطراب والقلق على الريفي واجاب بصوت اعلى نبرة
وبشيء من التلكؤ :

- هذا متوقف على .. ربما نعم ... وربما لا .. انه متوقف على .. وعدم
هذا الجواب المطاط البارون :

- يا لاسماء ! اجب بصراحة : المثل هذا جثت ؟ نعم ام لا ؟
واستمر الرجل ينظر الى قدميه مشقت الفكر :

- اذا كان الامر كما قال سيدي الكاهن فسأزوجها واما اذا كان كما قال السيد
جوليان فلست فاعلاً ..

- وما ذا قال لك السيد جوليان :

- قال انه سيعطيني ألفاً وخمسمائة من الفرنكات اما سيدي الكاهن فقد حدد
المبلغ بعشرين ألفاً . وانا ارضى العشرين وارفض الألف والخمسمائة .

وكانت البارونة منزوية في اعماق مقعدها وهي تقلب في الرجلين انظارها ..
ثم انطلقت تضعك ضعكات قصيرة استلقتت نظر الفلاح فراح يجدق فيها محاولاً
ادراك سبب طربها المفاجي ..

وقطع البارون الجدل وقد ازعجته هذه المساومة :

- لقد قلت للكاهن اني سأهبك حقول (بارفيل) مادمت على قيد الحياة ثم يؤل
الحقل بعدك الى الطفل . انه يساوي عشرين ألفاً . وانا لا اقول الا قولاً واحداً .
اتوافق ؟ نعم ام لا ؟

وطافت بشفتي الرجل بسمة تواضع وافتناع :

- اما الان فليس لي ما اقله . لم يكن سوى هذا ما يعوقني ولقد وافقت
حالا عند ما حدثني الكاهن هذا الحديث فقد سرني ان ارضي سيدي البارون الذي
شألي هذا النصيب . الا ان السيد جوليان جاءني وقال ما قاله عن الألف والخمسمائة
فاجبته : اني سأدرس القضية ثم قصدتك . وما جثت لأنكسك فلي ملء الثقة بكم
انما جثت مستوضحاً . ليس سوى الوضوح يحفظ الصداقة . ليس صحيحاً هذا
يا سيدي البارون ؟

وكان على البارون ايقاف هذا السيل فسأل :

- متى تريد إبرام العقد ؟

وعاود الرجل فجأة خجلة واضطرابه وانتهى بان قال :

- الا ترى ان ننظم قبل ذلك ورقة صغيرة ؟

وفضض البارون هذه المرة : - يا للشيطان ان يكون لديك عقد الزواج ؟

انه خير من كل اوراق الارض !

واصر الفلاح : - وبانتظار ذلك لا ارى بأساً في تنظيم مثل هذه الورقة فلا

خير منها لنا جميعاً .

ونضض البارون . وقال ليحسم القضية : - اجب بنعم او بلا . اجب حالاً

الذي طالب آخر .

ووثب قلب النورمندي المحتال خوفاً من المزاحمة فحزم امره ومد للبارون

يده كفعله بعد شراء بقرة :

- ضع كفك هنا يا سيدي البارون . لقد تمت الصفقة . وليكن ما يكون .

وصافحه البارون ثم نادى : « لوديفين »

واطلت الطاهية برأسها من النافذة فقال لها .

- احضري زجاجة خمر سنشرب احتفالاً بالاتفاق المبرم وبعد ان فرغوا من

تناول كأس مضي الفتى بخطى بجشها الفرح .

لم يحدثوا جوليان بهذه المقابلة فتم تنظيم العقد في سرية كاملة وما ان فرغوا من

الشكليات حتى تم الزواج صباح يوم اثنين . وحملت احدى الجارات الطفل وسارت

وراء الزوجين الى الكنيسة كضمان للثروة الموعودة !

لم يدهش هذا الزواج احداً في المقاطعة بل ثمة من حسد ليكرك فكانوا يقولون

بابتسامة خبيثة لا يشوبها احتقار - لقد ولد هذا الرجل المحظوظ عاري الرأس !

لم يقف جوليان مكتوف اليدين حيال ما حدث بل عمد الى تعكير صفو الحياة

على حميمه الامر الذي ادى بها الى اختصار اقامتها في (بويل) وكان فراغها شديداً

الوقع في نفس جان استدر منها الدمع الهمي الا ان عزاها بطفلها بول كان ينسوعاً

تراً لا يفضب له معين .

الفصل التاسع

كانت جان قد ابلت تماماً من مرضها ومن آثار الولادة فتم قرارهما على رد الزيارة لآل (فورفيل) ثم للمركيز (دي كوتيليه) .
كان جوليان قد ابتاع حديثاً مركبة جديدة من سوق عامة ، مركبة ذات جواد واحد وبها أصبح باستطاعتها ان يخرج مرتين في الاسبوع .
وخرجها ذات يوم رائق من شهر كانون الاول . وبعد سير متواصل مدة ساعتين عبر السهول التورمنديه بدأ بهبطان وادياً حرثت اعماقه وكست الغابات جانبيه .

وبعد دورة قصيرة حول الوادي برز للعيان قصر « فريليت » مستنداً من ناحية الى المنحدر المشجر ومن الناحية الاخرى تغوص جدره في بحيرة كبيرة تفتحي الى غابة من شجر الصنوبر السامق تتسلق المنحدر الآخر المقابل .
وشرع جوليان يصف لزوجه كل أقسام القصر وصف عارف مطلع على دقائق الاشياء وبدأ متحمساً :

انظري الى هذا المدخل ! انه فيخيم هذا القصر ! ان واجهته الثانية تغمرها مياه البحيرة الضحلة ترسو عند قدمي السلم الزوارق الجميلة . اربعة . اثنان للكونت واثنان للكونتس .. وهناك .. الى اليسين حيث تشاهدين هذا الستار من شجر الحور هناك تفتحي البحيرة وهناك يبدأ النهر الذي يجري حتى (فيكومب) .. ان هذه المنطقة غنية بالطرائد والكونت بالغ الاهتمام بالصيد . انه مسكن نبلاء حقاً . وكان المدخل قد انفرج عن الكونتس الشاحبة الهيا جاءت تستقبل الضيفين

باسمة الثغر وقد ارتدت ثوباً ضافي الاعطاف نجر ذيله الطويل القشيب كأنها إحدى
ساكنات القصور في العصور الخوالي يا الله ! ما أشد شبهها « بسيدة البعيرة » التي لم
تخلق هذه القصور الا لامثالها !

وتناولت الكونتس يدي جان الانفتين كما لو كانت صديقتها منذ عهد الطفولة
الاولى ثم اجلستها واستوت الى قربها فوق كرسي خفيض وراح جوليان ، وقد
استعاد اناقة الماضي ، يتحدث باسمها ، لطيفاً ، غير متكلف .

حدث الكونتس عن نزاعاتها فوق الجياد ، وضحكت ملياً على اسلوبه في
الفرسية . . وشاركها ضحكها وقد لقبها « بملكة الامازون » بينما سمته هي
« الفارس المتعثر »

ودخل الكونت عائداً من الصيد ، كان ضخماً ، يجتذي نعلين كبيرين يجري
امامه كلبان احمران كلونه هو جثا فوق البساط بالقرب من الباب ، وبدا الكونت
اكثر انطلاقاً في بيته وقد سرته رؤية الضيفين ، والى ببعض الخطب في الموقف ثم
قدم لزاثريه خمر « ماديرو » والبسكويت ، وهتف فجأة :

— ولكنكما ستتغديان عندنا أليس كذلك ؟

ورفضت جان لأن افكارها كانت لا تفارق ولدها ، والحق المضيف فاصرت ،
وبدرت من جوليان اشارة تم عن فراغ صبره فلم يسع جان الا السكوت والقبول
وقد خشيت ان يبدر من زوجها سلوك يفضح سوء خلقه ، سكتت على مضض لأن
فكرة بعدها عن ولدها حتى صباح الغد كانت تمزق نياط قلبها تمزيقاً .

وكان يومهم حافلاً : فقد خرجوا بعد الظهر الى الينابيع المتفجرة من صميم
الصخور الملس ، ثم ركبوا الزوارق وجالوا في البعيرة وكثيراً ما غمرت جان يدها
في الماء الثلج تاركة لنفسها التلذذ بتلك البرودة التي كانت تتمشى من اصابعها الى قلبها .
وجلس في اقصى الزورق جوليان والكونتس وقد النفا بشالين وراحا
ييسمان تلك البسمة الخالدة التي تشف عن سعادة وارفة لا تتركهما من هموم الحياة
الا وتذيبه وتنجره .

وهبط المساء بارداً فتمشت في الاوصال رعدة مثلبة كانت الشمس قد افلت
وراء أشجار الصنوبر . . . وبدت السماء قانية اللون وقد خططت أديمها نف من غيوم
بنفسجة غريبة الاشكال ، كان مجرد رؤيتها يبعث البرد في الجوارح . وآبوا الى
الردة حيث كانت تشتعل نار عظيمة فاسمدهم احساسهم بالدفء واستخف هذا
الشعور الكونت فدنا من زوجته وأخذها بين ذراعيه الجبارتين كما يأخذ طفلاً
صغيراً ثم رفعها الى فمه وطبع فوق وجنتها قبلة رجل قانع سعيد .
ورنت جان باسمة الى هذا المارد الطيب وفكرت :

— لشد ما يخطيء المرء حكمه على الناس اذا اخذهم بظواهرهم ! ونقلت ناظرها
الى جوليان بحركة لا ارادية فرأته واقفاً أمام الباب شاحب الوجه شحوباً مخيفاً
وعيناه جامدتان على الكونت ، ودنت منه قلقة وقالت : — أمرض أنت ؟ فجاء
جوابه صراخاً : — ليس بي شيء . دعيني وشأني . اني مقرر فحسب .
وهم الضيفان بالذهاب بعد العشاء الا ان الكونت استبقاهما كي يريهما صيد السمك
على نور المشاعل ومشوا حتى وقفوا فوق الدرجات المؤدية الى شاطئ البحيرة بينما
صعد هو الى الزورق يصحبه خادم يحمل آلة الصيد ومشعلاً مناراً . كان الليل نيراً
فارساً تحت سماء بشت فوق صدرها نجوم ذهبية راعشة ، وللمشعل يسحب وراءه
ذيولاً نارية غريبة الاشكال متحركة مترجرة فوق الصفحة الجمدة . . . وتوغل الذورق
في ظلام البحيرة وقد بدا شبح الكونت بذراعيه الطويلتين ثم اخفى فلم يعد يصل الى
الاسماع الا حركة جيزوم الزورق يشق صدر الماء . وعلا صوت الكونت :

— جلبت . لقد اصطدت ثلاث سمكات .
وعاد شبعه يدنو من الدرجات . ثم قفز من زورقه وصعد الى الجماعة وخادمه
يتبعه حاملاً الصيد واذاته كانت السمكات مازالت تختلج فيها الحياة .
وعادت جان وزوجها الى بوبل وقد اعارهما مضيفاهما معطفين الثقا بهما ليدرا
البرد عن انفسهما .

قالت جان بلهجة لا ارادية : — يا لهذا العملاق من رجل طيب !

واجاب جوليان وهو يقود العربية بنفسه : - أجل ولكنه لا اجتماعي .
وقاما بعد اسبوع بزيارة آل (كوتيليه) الذين يعتبرون رأس نبلاء المقاطعة
وهم يسكنون قصرأ جديداً بني في عهد لويس الرابع عشر بجحني* في حديقة خلاصة
محاطة بجدر عالية وبالقرب منه ، على مرتفع ، تقوم خرائب القصر القديم . وقاد
الضيفين خادم في ثياب رسمية الى مقصورة فخمة علقت في صدرها لوحة تحمل توقيع
الملك مهداة الى صاحب القصر . توقف الزوجان أمامها يتأملان فيما منحة ملكية
وقد اشتد اعجابهما . ودخل الماركيز والمر كيزة .

كانت المرأة مطلية بالمساحيق ، خفيفة الظل ، كثيرة التكلف اذ تحاول الظهور
متواضعة ، أما الرجل فضخم اشيب اللثة ، في حركاته وصوته وبدوانه ترفع يعلن
عن أهمية شخصه ، فهو من ذلك الضرب من الناس الذين يجعلون من كلامهم وتفكيرهم
وتصرفاتهم سبيلاً لاظهار رفيع مقامهم وسامق مكانتهم . فاذا تكلموا احتكروا
الحديث لا ينتظرون من سامع جواباً ، لا تفارق البسمة الساخرة شفاهها وكأنيها
يقومون بما يفرضه عليهما مركزهما الموروث اذ يستقبلان ملاطفين ، صغار
نبلاء المقاطعة .

اما جان وجوليان فقد عجزا عن مجاراتها رغم ما بذلا من جهد كيما يظهران
بظهر لائق ، واشد ما أضايقا من طول الزيارة وقد اعوزتها لباقة الانسحاب الا ان
المركيزة عمدت الى انتهاء الزيارة بنفسها وبشكل طبيعي بسيط اذ اوقفت المحادثة
كفعل ملسكة مهذبة تضع حداً لاستقبال شخص ما .

واذ كانا في طريق الأوبة قال جوليان : - اذا شئت وضعنا حداً لعلاقتنا
بهؤلاء الناس . اما انا فأل فورفيل يكيفوني .
فوافقت جان على رأيه .

ومضى كانون الأول بطيئاً ، هذا الشهر الاسود ، والنقب القاتم في اديم
السنة . وعادت حياة الوحدة الى ما كانت عليه في السنة الماضية ومع ذلك فلم تنبرم
جان بها فلها من ولدها شغل شاغل اما جوليان فكان لا ينفك ينظر ولده شذراً
قلعاً منزعجاً ..

وكثيراً ما كانت تأخذ طفلها بين ذراعيها وتشعر تداعبه وتهدهه كما تفعل النساء مع أطفالهن وكانت أحياناً تقدمه لآبيه قائلة : - مالك لا تقبله .. يحيل الى المرء انك لانتحبه .

وأمر شفتيه فوق جبين الطفل الامرد بقرف ثم ادار جسمه في نصف دائرة كأنه يتحاشى ملامسة يديه المتحركتين الجعدتين . ثم هب فجأة وينطلق كأن تقزاً ينفره ويطرده .

كان المختار والطبيب والكاهن يأتون أحياناً فيتناولون الطعام على ماأندتهم . أما آل فورفيل فقد تطورت معهم أو اصر الصداقة اقوى فاقوى . أما الكونت فكان تعلقه بيول يداني العبادة ، فكان يأخذه فوق ركبتيه طوال وقت الزيارة وأحياناً طوال بعد الظهر فكان يداعبه ويقبله كفعل أم بوليدها . انه يتألم بالغ الألم من زواجه العقيم .

وجاء مارس فكان صافي الجو جواً لطيفاً . وعادت الكونتس جيلبرت تتحدث عن نزعات على صهوات الجياذ يقوون بها سوية . وبدأت جان سعيدة بهذا المشروع هي التي انهكها الضجر من اللبالي الطويلة والسهرات المقشاة الرتيبة . وخلال اسبوع صرفت اهتمامها الى العناية بجوادها الامازوني .

ثم بدأوا رحلاتهم . كانوا يسرون دائماً اثنين اثنين . الكونتس وجوليان في الطليعة ووراهما على مائة خطوة الكونت وجان . وكان هذان الاخيران يتحدثان كصديقين . وقد اصبحا في الواقع صديقين كنتيجة لاتصال روحهما المستقيمتين وقلبيهما السليمين . اما الاثنان الآخران فكانا يتحدثان عادة بصوت خفيض وينفجران ضاحكين ضحكاً عالياً ثم يقادلان النظرات كأن في اعينهما مايسران به الواحد للآخر دون ان تغيب منها شفة ثم ينطلقان راكضين بجوادهما كأن رغبة الى الحرب والابتعاد تتورفهما ..

وظهر جوليان فيما بعد نزقاً . فكان صوته الحاد يصل الى اذان زوجته والكونت محولاً مع هبات النسيم . فكان الكونت يتسم ويقول لجان : - ان

زوجتي لا تكون لطيفة كل الايام . وكانوا عاشرين ذات مساء واذ بالكونتس تلمس
جوادها فيروح يقفد قفذات قوية وكان صوت جوليان يعلو قائلاً : - حذار .
حذار .. سينطلق بك حذار .

فاجابت : - لا بأس . ليس هذا من اختصاصك .
فاتها بصوت واضح النبرات قاس حتى ان كلماتها رنت في الريف رنيناً كأنها
معلقة في الهواء .

وبدأ الجواد يقفز ويضرب الأرض بسنابكه . وهتف الكونت من رأيه
القويتين وقد خشي مغبة عمل زوجته :
- حذار يا جلبرت .

وفي ثورة عصبية ، ثورة امرأة لا يقف شيء في وجه ارادتها ، ضربت بسوطها
الحيوان بين اذنيه فاستقام على خلفيته وضرب الهواء بقائمه الاماميتين ثم عاد بها
الى الارض وانطلق في قفزة مربعة وراح يشق السهل بكل ما اوتيت عضلاته من قوة .
وهو اول الامر مرجأ ثم توغل في الارض المفلوحة فانار خلفه ضبابية من
غبار الارض الكثيفة الرطبة . كان ينطلق خاطفاً حتى لمصعب تميز المطية
من الفارس .

وجمد جوليان في مكانه وقد عقلت الدهشة لسانه ثم راح يصرخ : - سيدتي !
وندت عن الكونت زجاجة مخنوقة ودفع بجواده الى الامام بكل قوة جسمه
وقد انحنى فوق سرجه دفعه منادياً به ملوحاً بذراعه فكان الفارس يحمل الجواد
بين ساقيه ويطيير به .

ورأت جان شبح الزوجة والزوج هناك .. بعيداً .. منطلقين .. هارين ..
بعيداً .. بعيداً .. متصاغرين مخففين اخيراً كما يظهر طائران في الافق يبتعدان ثم
يختفيان بين طيات الفضاء الفسيح .

ثم دنا جوليان من جان سائراً بخطى وثيدة وتم بلهجة غصبي : اظنها مجنونة
هذا النهار .

وسار الاثنان وراء صديقهما عبر السهل المتناوج .
وبعد ربع ساعة لهماهما يعودان فافضيا اليهما سريعاً .
كان الكونت احمر الوجه متصبباً عرقاً ضاحكاً مبتهجاً منتصراً . وقد امسك
بقبضته القوية عنان جواد زوجته البطر .
أما الكونتس فكانت شاحبة ، قد جعد الألم وجهها وقد استندت باحدى
يديها الى كتف زوجها كأنها توشك ان تنداعى .
وادركت جان ، هذا اليوم ، ان الكونت يحب زوجته حباً يكاد يكون
عبادة وهياماً .

وتغيرت حال الكونتس في الشهر الذي تلا هذه الحادثة فبدت مرحة كما لم تكن
من قبل . وكثيراً ما كانت تقصد القصر ، لانتفك تضحك وتقبل جان معربة عن
حبها لها وتعلقها بها . ولقد خيل للجميع ان سعادة بجهولة قد غمرت حياة الزوجة
الشابة . اما زوجها فكان سروره لا يوصف بهذا التحول المفاجي ، لا يفارقها بانظاره
يسعى دائماً الى لمس يدها او طرف ثوبها في اشتياق متفاقم ملهح .
وقال ذات مساء لجان : - اننا الآن اسعد ما نكون فجلبرت لم تكن قط
ألطف منها الآن ولا أشد إيناساً . ولقد وثقت الآن من انها تحبني ولم اكن قبل
اليوم واثقاً .

وتعدى المرح جلبرت الى جوليان فبدأ راضياً هادي الاعصاب فكانت
الصدافة التي ربطت المائلتين كانت عليهما برداً وسلاماً .
وجاء الربيع فاتر الانفاس معطار النفحات كما لم يعمد من قبل . فكان شمس
الماتعة قد انبتت ، دفعة واحدة ، كل ما في الارض من بذور واندفع النسخ الجديد
في عروق كل نبتة فبعث في موات الطبيعة حياة قياضة بالحركة غنية بالجمال كما
لا يحدث الا في بعض السنوات المحظوظة التي تجدد شباب الطبيعة الداوي أشد
ما يكون التجديد .

واحسنت جان في اعماقها اضطراباً غامضاً بعيد المدى امام اختار الحياة في

فصل انبثاق الحياة ! انها تشعر بغبطة مفاجئة امام زهرة اتفتق اكمامها بين التفاف
الاعشاب ثم تغمرها كآبة حاملة لذيدة فتعبر بها لحظات استرخاء ضائع وغيبوبة
مدغدة .

وعاودتها ذكريات حبها الاول الجميل ، ذكريات ذلك العهد العباقي بالاماني
العذاب والاحلام المجنحة . الا ان عواطفها تلك لم تعد كونها ، على حرارتها ،
ذكريات مضت وانقضت . . كانت كل جوارحها تنور لدى ملامسة انامل الربيع
الطرية لجسدها فكان نداء مجهولاً يحثها الى البحث عن حبها الضائع لترشف منه
نغمة تحيي موات عواطفها الذاتية . .

كانت تستكين الى وحدتها فتجلس تحت وهج الشمس وقد اجتاحتها شعور
غريب بلذة مهمة عميقة الغور فيركد تفكيرها وتشل قواها الواعية فلا يطرق خلدتها
اي ظل لحيال ولا يراود وجدانها خاطر أو مأمل .

وعبرت ذاكرتها ، ذات صباح ، وكانت هائمة في مهامه احلامها ، ذكرى
لحظة سعيدة قضتها في مكان ينفذ اليه شعاع من الشمس عبر اوراق الشجر في الغابة
الملتفة الايك بالقرب من « اترينا » . . فهناك عرف جسدها رعدة الحب الاولى
تحت وهج غرام هذا الشاب الذي كان يحمل لها آتذاك هياماً لازيف فيه ولا مرا . .
هنالك تتم قلبها انشودة حبه الاولى . . فجاءت خفرة خبيجة تتردد بمحمولة فوق اجنحة
سعادة لانحد ولا توصف . . هنالك خالت نفسها تلج باب مستقبل عباقي بالاماني
العذاب والرؤى الخبيجة !

ودت لو تعود فترى تلك البقعة الحبيبة ، لو تحج اليها كما يحج المؤمن الى مهبط
الوحي وارض المعجزات . . بالاحتمق ! كأن ذلك يغير شيئاً من مجرى حياتها أو
يجول شيئاً من سيرها المحتوم !

كان جوليان قد خرج منذ الصباح لاتعلم الى أين .
وركبت جوادها الابيض وانطلقت . .

كانت النهار هادئاً ماتعاً والسكون العميق يهيمن على الكون فلا تسمع ضجة

ولا تعلق نامة . وهبطت الوادي المفضي الى الشط وبلغت الغاية وتبدأ . كان النور
يتساقط من بين خضرة الشجر الفضية تساقط شايب مزن هتون .
وبحث عن البقعة المنسودة دون ان تهدي اليها فكانت تطوف بين الفاو
دوت وجهه .
ولحت بقعة ، في بعض الجنبات ، جوادين مشدودين الى شجرة ضخمة .
وسرعان ما عرفت فيها جوادي جوليان وجيلبرت .
كانت الوحدة قد ارضعتهم فشعرت سعادة لهذا اللقاء غير المنتظر ولكرت
مطينتها فانطلقت تعدو بها . وبلغت الحيوانين الصابرين كانهما اعتادا مثل هذا الانتظار
وفادت فلم تسمع سوى رجع صوتها .
والثقت فذهبت فوق العشب المشعث ففاض امرأة وسوطين . اذا فقد كانا
جالسين هنا ثم توغلا في الغابة تاركين جواديهما حيث كانا .
وانتظرت . ربع ساعة . عشرين دقيقة . عبثاً .
ولم تدرك ما هي فاعلة . كانت قد غادرت صهوة جوادها فلفت انظارها طائران
فوق منحدر معشوشب يتداعبان فاستندت الى جذع شجرة وراحت تتأملهما . كان
احدهما يقفز ويرتعش بالقرب من صاحبه وقد نشر جناحيه وراح يضرب بها الهواء .
واخذ الطائران فبعاة ..
وبحركة لا شعورية نقلت ناظرهما الى القفاز والجوادين المتروكين .. ووثبت
الى سرجهما وانطلقت بجسدهما ميل عارم الى الهرب .. الى الاختفاء ..
انطلقت تركض بجوادها نحو القصر كانت الوف الاشباح الراحبة تمعن في
مطاردتها . كانت الفكر تدور في رأسها كالزوبعة العاتية . وراحت تجمع شتات
الاحداث الماضية . تلك الاحداث التي لم تفقه لها في حينها معنى . كيف لم تحدث ؟
كيف لم تشك بغياب جوليان المتواصل كيف ؟ كيف ؟ يا الله ! وتأتق جوليان
المستبعد ؟ ودمائة خلقة التي لم تعدها به ؟ .. يا لها من غيبة حمقاء !
تذكرت ثورات جلبرت المصيبة ثم غنبحها المبالغ به فتلك القناعة السعيدة التي

غمرتها وغمرت الكونوت معها فاستحال بها سعيداً راضياً .
كانت بحاجة الى تفكير عميق فخنفت من سرعة جوادها تلك السرعة التي كانت
تعيق تفكيرها وتعمر صفاء عقلها

وعاد قلبها الى سكينة بعد هذه التأثيرات الاولى . . عاد كما كان قاعاً صفصفاً
عاطلاً عن كل غيرة او كراهية او حقد . لم يبق فيه سوى الاحتقار الذي كان
يفص به ويفعه ايما افعام .

هي لا تفكر بجوليان مطلقاً فليفعل ما يحاوله فلا تهتم بتصرفاته ولا يدهشها
كل ما يبدر منه . لقد قابلت خيانة زوجها ببرود شديد الا انها لم يكن هذا
شأنها حيال الكونوتس : فلشد ما اثارها خيانتها المزدوجة . ان الناس جميعاً اذا
غادرون منافقون سافلون !

وافاضت بالدمع عينها . . فالمرء يبكي آماله احبائاً كما يبكي موته !
وعزمت اخيراً على الا تسعى الى الاطلاع على شيء ، ان تغلق روحها دون
التأثرات العابرة ، الا تحب سوى بول واهلها ، وان تتحمل الآخرين بصبر منافق .
ما بلغت البيت حتى انطلقت الى ولدها فاحتلمته الى غرفتها وراحت تطرده
سليلاً من قبلها المحمومة فترة طويلة دون انقطاع
وعاد جوليان وقد ازفت ساعة الغداء بشوشاً راضياً يملؤه ميل محجب . وسأل :
- ان ياتي ابوك وامك هذه السنة ؟

لشد ما قدرت فيه هذا اللطف حتى كاد يفسحها اكتشافها في الغابة وتولد فيها
ميل ملهاح لرؤية المخلوقين الذين تحبها - بعد بول - فوق كل مخلوقات الارض .
وامضت السهرة كلها تكتب اليها تستعجل قدومها .

وجاءها جواها معلناً لها حضورهما في العشرين من ايار وكنا في السابع منه .
واقامت تنتظرها بصبر متفانم وكأنها احست حاجة ، فضلاً عن حبها النبوي ،
الى الاحتكاك بقلوب نبيلة ، الى التحدث الى ابوي فتفتح لها نفسها ، اولئك الناس
الانقياء الخالصين من كل لؤم والذين لم تشب حياتهم او تصرفاتهم او افكارهم
شائبة قط .

ان ما تشعر به جان هو انفراد نفسيتهما ذات الخلق التوحيدي بين هذه النفسيات المعوجة المنحطة .

كانت فكرة احتقارها للرجال تغمر حياتها غمراً . وتعتمد المراوغة والنفاق فكانت تستقبل الكونتس مفتوحة الذراعين كان اكتشافها في الغابة لم يكن . وكان للاخبار التي تناقلها الافواه مما يحدث في المقاطعة يد في قسائم هذا التقرر العظيم الذي لا يني يعظم في نفسها نحو الناس اجمعين :

« ابنة (غبار) ولدت قبل موعد زواجها بفترة قصيرة ، خادمة آل مارتان ، يتيمية ، ظهرت حاملاً . جارة صغيرة في الخامسة عشرة بدت عليها اعراض الحمل . واخيراً تلك الارملة العرجاء القبيحة التي يطلقون عليها الاسماء للسخرية من قذارتها الظاهرة للعيان ، حملت هي الاخرى ! »

كانت امثال هذه الفضائح القذرة تفرع الاجتماع في كل لحظة وكذاك قل عن انباء طيش الفتيات او الفلاحات المتزوجات امهات الاطفال وغيرهن من المزارعين الاثرياء . فكان هذا الربيع الحار قد حرك الغرائز في الناس فعله بالنبات والحيوان . اما جان ، وقد تبدل فيها كل حس ، فلم يكن لمثل هذه الاخبار ان تحرك فيها جارحة . لقد حطم قلبها ونحوى من كل عاطفة ما خلا عاطفة الامومة التي ما برحت ناشطة تتحرك لكل هبة شوق حارة . . كانت تحلم فتفوح من احلامها رغباتها فتزداد بهذه الاحلام تعلقاً وتشبهاً . . اما النزوات الحسية والعواطف المادية فقد ماتت في شرايينها وعفت عليها الايام . . . ولشد ما ادهشها ان يتولد فيها احتقار شديد وتقرّر مقرّف من هذه الحيوانية الوضعيه التي يسمونها الحب !

واذا كانت تحمل في صدرها غلاً جليلبرت فليس حقداً وليس مقتاً لاقدام هذه الغريمه على اختطاف زوجها ، انما احتقاراً لها وتقزراً منها لسقوطها في وحول تلك الحماة الانسانية النتنه !

ليست جان بمن تسيطر عليهم غرائزهم . ولذا كان يمسورها التخلص من هذا الجلف الحشن الخلق زوجها .

... وتوقفت عربة البريد امام الدرج وظهر في نافذتها وجه البارون الطليق
فاحست جان ، لدى رؤيته ، عواطفها تجيش وتتحرك في اعماق سويدائها .. كان
ذلك منها مؤثراً بالغ الروعة كما لم تعهد من قبل .

وما ترأعت لها امها حتى بدأت مأخوذة خائفة القوى . وبدأت البارونة كأن
العمر قد خطاها ، خلال الاشهر الستة الاخالية ، سنوات عشرآ الى الامام . . .

كان خداهما الضخمان منتفخين قرمزيين كأنهما يحصران دماء صاحبة وكان
عينها مطفأة لا ترى ولم تكن تقوى على الحركة ان لم يعمد اثنان الى اسنادها
وهي في كل ما تحاوله ، في تردد مؤلم . .

ولم يظن البارون الى انهار صحة زوجته كما فطن الاخرون لأنه كان يلزمها
اعظم الوقت فكان يجيب جان اذا ما شكت اليه انحطاط قوى امها قائلاً :

ولكني اجدها على خير ما ينبغي !

وفي المساء خاطب جوليان زوجته قائلاً :

— ان امك سائرة في سبيل الانحطاط الصعي بخطى خثيثة واخشى ان تكون
مصابة بمرض خبيث ما .

وكان جواب جان دموعاً سخينة ذرفت وشهقات حارة صعدتها .

ومضت ايام ثمانية اعتادت جان خلالها على هيئة امها فاضمحت وساوسها شيئاً
فشيئاً ولم يعد امر صحة البارونة يشغل ابنها .

وغدت البارونة عاجزة عن المشي لا تخرج الا نصف ساعة كل يوم . اما ما
تبقى من وقتها فتقضيه في غرفتها فتطلب (درج الذكريات) وتأخذ في تقليب
رسائلها القديمة والدموع تترقق في آفها وكثيراً ما كانت ترفع احدى تلك
الرسائل الى شفرتها فتقبلها .

وبعد بضعة ايام ذهب الكونت في عمل يستغرق منه بعض الوقت .
وجاء موسم الحصاد فكان وقتاً رائعاً ، فالليالي ناعمة مرصعة الصدر بقلائد
من جمان رواعش والاصائل ساكنة بعد نهار ضاحك السن . ونحسنت صحة الام

فجأة . اما جان فقد تناسلت حب جوليان وخيانة جلبرت وغرفت في سعادة تكاد تكون كاملة .

كان الريف برمته مزدهراً معطّاراً والبحر دائم السجو يلتصع تحت سيل ذوائب الشمس منذ الفجر حتى المغيب .

أخذت جان ولدها بين ذراعيها ، ذات اصيل ، وانطلقت بين الحقول . كانت تنتقل بانظارها بين ولدها والازاهير المزينة حفا في الطريق فتار فيها حنانها قوياً صاخباً .. فكانت ، من حين لآخر ، تضم وليدها بقوة الى صدرها وتطره قبلاً حارة مشوقة .. ماذا سيكون في مستقبلات ايامه ؟ ما ترى يحجي له الغد المجهول ؟ كم كانت تحلم في ان تراه رجلاً قوياً شهيراً واسع النفوذ وتريد احباً اخرى ان يظل متواضعاً مغموراً فيبقى الى قربها يحضها اخلاصه وتفقد عليه جميعاً .. سيبقى لها حانياً عليها مفتوح الذراعين لأمه ابد الدهر . فاذا ما احبته بقلب الام الاناني شامته دائماً ابنها ، لاشي سوى ابنها ، ولكن اذا ما تركت لعقلها المفكران يحبه ، ودته شخصاً مرموقاً ذا مكانة سامية في المجتمع عله يرضي بذلك كبرياءها . وجلست على شفا حفرة وراحت تنو اليه كأنها لم تكن قد رآته قبل ذلك قط وحيرها ان هذا الطفل اللدن سيصبح يوماً كبيراً يمشي بخطى ثابتة ، تغطي عذاريه لحبة كثة يتكلم بصوت خشن رنان .

وناداه صوت بعيد رفعت رأسها . وظهر ماربوس يعدو . وظننت ان بعض الضيفان بانتظارها وما دنا منها وصاح : - سيدتي . سيدتي . لست ادري ما اصاب سيدتي البارونة .. انها تشكو شيئاً خطيراً ! ..

وأحست كأن قطرة من ماء مثلج قد سالت على طول عمودها الفقري وانطلقت مسرعة وصوابها يكاد يطير شماعاً .. ولحت عن بعد اناساً متجهين تحت الخيل . وافسحوا لها مكاناً فرأت امها ممددة فوق الارض ورأسها مستندة الى وسادتين . كان وجهها قائماً كاه وعيناها مغبضتين وصدرها ، الذي كان دائم الاضطراب خلال السنوات العشرين الاخيرة ، بدا ساكناً لآخر اك فيه ! وتناولت

المرضع الطفل من على فداي جان وسارت به بعيداً عن زحمة الخلق .
وسألت جان وهي تكاد تفقد ادراكها : ماذا حدث لها ؟ كيف سقطت ؟
ليذهب احدكم فيحضر الطبيب . وحاولوا حملها كي ينقلوها الى غرفتها فتسرق ثوبها
تحت ثقل جسمها الضخم المترهل . ونصحهم الكاهن الذي حضر بنزع ثيابها عنها
ونقلها الى غرفتها ولم يتوصلوا الى ذلك الا بشق النفس وبعد ان استعانوا باريكة
حملوها فوقها وساروا بها خطوة خطوة حتى بلغوا بها سريرها .
وحضرت الارملة دانتو وقد تنسمت رائحة الموت .

وانطلق الخادم ليأتي بالطبيب بينما تطوع الكاهن لاحضار الزيت المقدس الا
ان الارملة دانتو دنت منه وامرت اليه :

— لا تتعب نفسك يا سيدي الكاهن . لقد مضت ! وشرعت جان تستغيث
وقد افقدها المصاب صوابها .

لم تدر ما ينبغي لها ان تفعل ، اي شيء تحاول ، اي دواء تستعمل ...
ونقم الكاهن بصلاة غفران الخطايا ...

اقاموا ساعتين كاملتين امام الجسد البنفسجي اللون الحالي من كل حركة
وحياة ... كانت جاث جاثية فوق ركبتيها وهي غيب لالام ممزقة جاشت لها
بالدموع عيناها واختنق بالزفرات حلقها ..

وما فتح الباب واطل الطبيب حتي احست جان سلاماً وعزاءً واملاً ...
واندفعت تروي له كل ما عرفت عن الحادث :

— لم يكن بها شيء قط .. لقد قامت بنزهتها كالمعتاد .. صحتها جيدة ..
لا تشكو شيئاً .. وقد اكلت حساءً وببيضتين ساعة الفطور .. ثم سقطت فجأة ..
واسود لونها كما نرى ... واستكانت لا تبدي حراكاً .. ابداً ! ..

وبدرت من الممرضة اشارة تعني ان كل شيء قد انتهى ! .. انتهى تماماً
فجيدت جان فترة ثم انتفضت ترتعش هلعاً وفرقاً ! .. الا انها لم تشأ تصديق ذلك
فعادت تسأل الطبيب ملحقة عظيمة القلق : — اتظن ان حالها خطيره ؟ اتبعدها على
خطر ؟ قل . بورك ايها الطبيب ..

وبعد برهة فتح الطبيب فاه بوقار العلم وقال :
- لشد ما أخشى ان تكون ... ان تكون ... قد قضت ... تشجعي يا
سيدتي .. لوذي بكل ما تملكين من صبر وجلد ..
وكنم يلقي بنفسه يائساً في منزلتي مخوف ، فتحت جان ذراعيها والقت بنفسها
فوق جثمان امها المسجي امامها .

ودخل جوليان فصعقه المشهد ، ثم اربد وجهه بشكل واضح دون ان تبدر
منه صرخة الم او يأس فقد كانت المفاجأة صاعقة لم تتح له اتخاذ الموقف المناسب
لواقع الحال . وتمتم :

- كنت انتظر حدوث شيء كهذا . لقد حدثت بقرب نهايتها . ثم استخرج
منديله فمسح مقلتيه ولا دمع فيها ومشى الى الفقيدة فبشا امام الجثمان وجمجم بضع
كلمات ثم نهض وحاول انهاض زوجه التي كانت تعيط الجثة بذراعيها وتطرها بقبيلات
لا عديد لها وهي تسكاد تضطجع فوقها بكل جسمها .. كان لا بد من حملها خارج
الغرفة ولو قسراً ذلك انها تراءت لهم تسكاد تفقد صوابها .

وهبط الليل . ومشى السكاهن الى جان وراح يقرع اذنيها بعبارات التعزية :
حدثنا عن خداع الحياة وبطلان زحرفها معبراً عن كل ذلك تعبيراً قوياً حزيناً
كاذباً ... فقلما يسو السكاهن نزول الموت ساحة الناس ! ..

وعرض عليها ان يجي الليل بالقرب من جثة الفقيدة يقطعه بالصلات الا ان
جان ابث عليه عرضه الكريم من خلال دموع تشفجية كانت لا تنفك تذرفها . انها
تبغي قضاء ليلتها وحيدة ، وحيدة تماماً ، مع امها الفقيدة . فهذه ليلة الوداع الابدی .
ودنا منها جوليان وقال :- ولكن هذا مستحيل ! سأبقى معك . وهزت رأسها
بالنفی اذ لم يعد لها على الكلام جلد .

وبجهد استطاعت ان تقول :- انها امي ! امي ! وسأسهر عليها بمفردي ..
وتدخل الطبيب قائلاً :- دعوها تفعل مايجلو لها وستقيم الممرضة في
الغرفة المجاورة .

لم يعترض على رأي العليّيب أحد فقد كان جوليانيان والكاهن يلمان كل
بسريره .. وبعد ذلك دعا الكاهن من الجثة وركع وصلى ثم نهض وخرج وهو
يردد :- كانت قديسة . كانت قديسة ! فقال ذلك بنفس اللهجة التي قال بها :
(١) Dominus Vobiscum

قضت جان ليلتها بطولها امام الجثمان المسجي لاقتضب لها عين ولا يقر لها فكر . تذكرت كل ما وعته عن حياة فقيدتها الغالية : افوا لها ، حركاها ، زيارتها .. كل شي .. كل شي . وكانت كل ذكرى تستدر من مقتلها الدمع الغدير السخين وتدفع بالتهنيدات الحائقة تمزق صدرها اياما تمزق ... بكت .. بكت حتى نضب معين عينيها فهي تبكي الان دون دموع فتحس نارا اكرلة ترعي جفونها .. ونظمت فاذا الساعة لم تجاوز العاشرة فهزها خوف مربع .. خافت هذا الليل الطويل تقضيه مع الموت وجهاً لوجه .!

وحملت ذكرياتها الى حياتها الخاصة : روزالي . جيلبوت . عذاب قلبها المعنى ..
آلامها الممضة .. اثوتها المعفرة في الرغام .. حبها المصوح كالواحة تحت لفع السموم ..
وخلصت الى ان كل حياتها لم تكن سوى تعاسة وشقاء وآلام وموت ! .. حياتها ؟ ..
يا لها من حياة صاخبة ! صاخبة بالخداع ، بالنفاق ! يا لها سراباً خادعاً في الم ، كاذباً
في يأس ...

وتساءلات والذفارات تقطع من قلبها النياط :
 - ترى أين يمكن للمرء ان يلقى شيئاً ولو يسيراً من الراحة والسعادة ؟ أفي
 يتاح للانسان العس ان يحصي بنجوة من هذا الشقاء المقيم ؟ في وجود آخر ولا
 ريب ! في عالم سحري موعود جسره الموت وسبيله تحرر الروح من قيود المادة
 القانية ! الروح ؟ ! ما هو جوهر الروح وكيف يمكن لهذا الشيء غير الملموس ،
 اللامادي ، ان يحس ويشعر ويدرك وينعم ؟ لا . لا . لا بد من سعادة في عالم الارواح
 غير ما نعرف في عالم التراب هذا ! .

(١) تعبير لأنني يستعمل في الشرائع الدينية ومعناه: «الرب معكم»

واستمرت في مثل هذه التأملات الشعرية فترة لا تدري اطالت أم قصرت :-
ترى أين هي روح أمها الآن ؟ روح هذا الجسد المستكين البارد ؟ بعيداً .. بعيداً
جداً ولا ريب في مكان ما من هذا الفضاء الفسيح .. الا انها لا ترى ولا تلمس ولا
تسمع كأنها الطائر افلت من قفصه بعد طول الاسر فحلق وغار في اجواز الفضاء ..
ام تراها عادت الى باريها ؟ ام لعلها ذهبت الى مكان مجهول حيث تترج ببذور حياة
تتمياً للتكون ؟ بل ربما كانت دانية جداً .. لم تغادر بعد هذه الحجرة تطوف حول
هذا الجسد الساكن الذي هجرته فهجره كل معنى من معاني الحياة !

وشعرت جان اذ بلغت هذه الدرجة من التفكير ، نفساً يلفحها كأن روح امها
تلامسها .. وعصف في اعماقها رعب هائل فظيع لم تجرؤ ، لشدة وطأته ، على
تحريك ساكن ...

ورفعت اخيراً عينها المكسرة في الاهداب فوقعتا على « درج الذكريات » .
ذلك الدرج العزيز الذي طالما تمتعت فقيدتها بتقليب ماخم من صفحات طفولتها
الذهابة وشبابها المنصرم . وخطرت لجان خاطرة لاقت من نفسها قبولاً حسناً : ان
تأتي ببعض تلك الرسائل فتتلوها أمام الفقيدة فمثل هذا العمل ، ولا ريب ، سيطلب
لروحها ، في العالم الآخر ، برداً وسلاماً .

وفتحت الدرج فتناولت حزمة من الرسائل حال لونها ونصل وقد ضمها خيط
حريري رقيق . انها رسائل جدها الى ابنته . شئت ان تقرأ بعضها على مسمعي
المائة لتزودها بآخر ذكرياتها فوق هذه الارض ولتقارب بين روحها وارواح من
سبقها الى العالم الآخر المجهول .

ونلت من هذه الرسائل ما تبسر : كانت جميعاً تحمل حنواً متناهياً وجباً
وعطفاً . انها بحق رسائل والد الى ولده . ما أجمل ما حملت من توافه الاخبار
العائلية الصغيرة !

وغمر التأثر قلب جان غمراً .. فلقد اوغلت في صميم الحياة الماضية العذبة
الجميلة ... حياة قلب امها . تلك الحياة الخاصة السرية ..

ورنت الى الجنة الهامدة فخيّل اليها انها ترى فوق حياها الابيض الجامداطراف
السعادة والرضى ..

الفت بالرسائل فوق قدمي السرير وقالت لنفسها :
— سأضع هذه الاوراق في النعش كما توضع الازهار . وتناولت حزمة ثانية
وفصمت رباطها : انها بخط مختلف عن خط جدها .

وقرأت : « ليس لي عن مداعباتك غنى . احبك بجنون » لاشي سوى هذه
الكلمات .. اما العنوان فكان شديد الوضوح لامرية فيه : « البارونة لي برتوي
دي فود » وتناولت ورقة اخرى : « تعالي هذا المساء فور خروجه . ستكون لنا
ساعة حب عارمة . اعبذك » .

وفي الرسالة الثالثة قرأت : « لقد صرمت ليلة عذاب اليم وانا مقيم بانتظارك
عبثاً . ألم تكوني لي بالامس ؟ ألم يكن جسدك بين ذراعي اهرص مفاثه واعب
رحيقه ؟ وثغرك المغربي ألم يكن على مرمى قبلاقي المجنونة ؟ كم غمست في زرقه
عينيك عيني !.. فكرت ، اذ اخلفت موعدك ، انك الآن بمددة الى قربه ..
يستطيع امتلاكك ساعة بشاء .. فعصف بي ألم جنوني ويأس قاتل اوشكت معها
ان القي بنفسي من النافذة » .

وجهدت جان لاتفقه لما تقرأ معنى !

ما هذا ؟ ولمن ؟ اجل لمن هذه الكلمات المشوقة اللاهبة ؟ لمن ؟ ومن ؟
وتابعت القراءة .. انها عين اللهجة المستعرة .. مواعيد غرام .. خلوات حب ..
قبل .. استسلام .. دعوة الى أخذ الحيطه والحذر .. واخيراً العبارة التي لا تتغير :
« المهم ان تحرقني هذه الرسالة بعد تلاوتها .. »

وعثرت اخيراً على بطاقة دعوة الى وليمة تحمل ذات الخط والبطاقة باسم
« بول دينيار » انه اذآ من كانت تذكره البارونة اذ تقول : صديقي المرم
المسكين بول !... وزوجته ؟ ألم تكن صديقة امها المفضلة ؟...
ونبت في نفس جان شك مالبث ان استحال حقيقة دامغة لامراء فيها : كان

بول لأمها عشيقاً ! وبجركة عنيفة ألقت هذه الأوراق جانباً كما تنفض
حشرة سامة دبّت فوق جسمها .. وانخرطت في بكاء مخيف كاد يمزق حنجرتها ..
ثم تداعت الى جوار الحائط وغطت وجهها بكفها راحتها كي لا يسمع صوت نشيجها
الى الخارج .

ولربما كانت ستبقى على هذا الوضع طوال الهزيع الاخير لو لم يطرق اذنها
وقع خطى في الغرفة المجاورة جعلها تثب فجأة . لعل أبوها قد آب من سفره . كانت
كل الرسائل مازالت راقدة فوق السرير او على الارض ! حسبته لو تناول واحدة
منها اذاً لعرف كل شيء !

وهبت كالجنونة تجمع تلك الأوراق المتناثرة المصفرة ، رسائل الاب ورسائل
العشيق ، ما كان منها منشوراً وما بقي منها مخزوماً وحتى تلك التي كانت ترفد في
الدرج .. تناولتها جميعاً وحملتها الى الموقد .. واخذت احدى الشموع المشتعلة فوق
المنضدة واضرمت فيها النار فعلاهب عظيم اثار الغرفة برمتها بألق متراقص راسماً
فوق السجف البهيج خيال الوجه المغض والجسم الضخم المسجى تحت الاغطية ولما
لم يبق في الموقد سوى كومة من رماد أسود عادت جان فجلست بالقرب من
النافذة كأنها بانت تحشى دنوها من الجنة وعاودها البكاء فاخذت رأسها بين راحتيها
مجهشة بصوت عصبى متقطع : آه ! يا والدتي المسكينة . يا والدتي المسكينة !

ودهمتها فكرة مريعة : هب ان امها لم تكن قد ماتت بل غارقة في سبات
كالموت وانها ستنهض فجأة وتعود اليها الحياة والنطق ! ان يؤثر عليها ، هي جاث ،
ادراكها لسر امها ، في حبها البنوي نحو هذه الأم ؟ استقبلها تلك القبلات الطاهرة
كما تعودت ان تفعل ؟ كلا هذا لا يعقل !

لشد ما حملت فيها هذه الفكرة اثماً وثقلاً وتزريقاً !
احمى سواد الليل شيئاً فشيئاً .. وشجبت النجوم قليلاً قليلاً ... وزحف
الفجر رويداً رويداً .. وهبط القمر من على سدنه ليختفي وراء البحر وقد اسبغ
عليه لونه الصدي المتألق .

وعادت بجان الذكري الى تلك الليلة التي قضتها الى النافذة يوم قدومها الى
(بوبل) .. ما ابعده من عهد !.. لقد تغير كل شيء .. ما اغرب هذا المستقبل !
واخذت السماء تصطبغ بلون البنفسج والورد كما تضرجت وجنتنا عذراء
خفرة عاشقة ..

هاهي ذي جان تتأمل ولادة النهار مأخوذة مسجورة والحق عليها هذا السؤال :
لم لا تكون السعادة مركباً وطيباً فوق هذه الكرة حيث يفرغ مثل هذا
الفجر الحلاب ؟

وانتفضت اذ فتحت باب الحجرة . انه جوليان جاء يستفسر عن حالها وعما اذا
كان قد الم بها تعب وارهاق .

وكانت جوابها مقتضياً نافياً .

لقد اسعدها دخول جوليان فهي لم تعد وحيدة . قال :

- اذهبي وخذي قسطاً من راحة .

ومشت الى امها فقبلتها قبلة متمهلة مؤلمة حزينة ثم انصرفت الى مخدعها .

وتصرم النهار في تلك الاستعدادات التعيسة التي يتطلبها الموت . ووصل
البارون مساءً فبكى مريراً بالبكاء .

وفي الغد واروها الثرى حيث انتهت حياة شأن الالوف من مثيلاتها في هذا
العالم الكذوب ..

وانسحبت جان بعد ان ودعت امها الوداع الاخير لتستقبل المعزين .

ووصلت جيلبرت اول من وصل فالقت بنفسها فوق صدر صديققتها
شاهقة بالبكاء .

وتوافدت المركبات زرافات زرافات . ودخلت نساء غارقات في السواد
وادهش جان انها لا تسكد تعرفهن . ولاحظت على حين غرة الحالة ليزون تنزلق
الى قربها فعانقتها بحنو كاد يؤدي الى انهيار اعصاب العانس المسكينة . ودخل

جوليان غارقاً في سواده . كان شديد الاناقة ، منهكاً ، راضياً عن وجود
هذا الجمع . وحدث زوجه بصوت خفيض قائلاً : - ها قد توافد كل النبلاء . انه
لشي جميل .

ولم يلبث ان غادر المكان بعد ان حوى السيدات برزانه .
أقامت الحالة ليزون وجلبرت الى قرب جان بعد استكمال مراسيم المأتم وكانت
الكونتس لا تنفك تعانق جان هاتفة : - يا عزيزتي المسكينة ! يا عزيزتي المسكينة !
وعندما حضر الكونت دي فورفيل ليصحب زوجته اثناء عودتها بكى
بكاءً مرّاً وكان الفقيده من لجه ودمه .



الفصل الثالث

تتابعت الايام حزينة كثيبة مرهقة فلدى كل خطوة يبرز ما يذكرك جان بفقيدتها العزيزة وكثيراً ما خيل لها انها تسمع صوتها يتردد ويعلو فتحاول الهرب الى مكان آخر .

كان لابد لها من البقاء حيث هي لأن السكل مقيم هناك لا يبرح . وكان الاكتشاف الذي وقعت عليه جان ، فضلاً عن ذلك ، يرهق منها الوجدان ويثقل الضمير فلم يجد لها شيء في ضد جراح فؤادها المخطم الممزق .. ولشد ما ارهق هذا السر الهائل وحدتها فاحالها خائفة مقبضة لا تنطق .. لقد اطاح هذا السر الفصوح آخر ما حملت من ايمان بصلاح الناس ونقاوة ضمائرهم وسلامة سرائرهم .

ولم يطل الامر بابيها فغادر القصر الى روان فقد كانت به حاجة الى الترويع عن النفس وتبديل الجو بعد ان افقدته المنية رقيقة حياته ..

وعاد المنزل الكبير الى حياته الرتيبة المعتادة فسكانه لم يفقد أحد اصحابه . والمم ببول مرض فطار صواب جان شعاعاً وامضت اثنتي عشرة ليلة لا يغمض لها جفن ولا تكتحل لها عين بكري ولا تكاد تذوق طعاماً .

ولطف الله بهذه الأم المنكودة الطالع فأبل طفلها من مرضه الا انها لم تستعد قواها النفسية ففكرة موت ابنتها كانت مسيطرة عليها اياماً سيطرة . لو حدث ذلك ما تراها فاعلة ؟ ماذا يحل بها ؟ .. وهدوء تولدت فيها رغبة بان يكون لها ولد آخر . ومرة ان ماراحت تحمل به وقد بعثت في صدرها رغبته القديمة في ان

يكون لها ولدان : صبي وبنت . ولم تبوح هذه الفكرة بخلدها بعد ذلك قط .
كانت تعيش منفصلة عن جوليان منذ حادثة روزالي وانه ليبدو لها مستحيلاً
ذنوها منه ولا سيما في الوضع الذي هي فيه فجوليان قد علق امرأه اخرى في مكان
آخر . انها لا تجهل هذه الحقيقة الصارخة .
ووجدت نفسها تنتفض احتقاراً ونقزراً لجورد التفكير بالاستسلام الى مداعبات
هذا الرجل الممقوت .

ولكن قد ترضى ذلك منه وتمتله في سبيل اشباع تلك الرغبة التي اصبحت
ترهق تفكيرها ايما ارهاق . وتساءلت كيف يمكنها تبادل القبلات من جديد بعد
ان صدفا عن ذلك عهداً طويلاً . وخير لها الف مرة ان تموت غماً من ان تتوكله يحبس
برغبتها هو الذي لم تكن بوادره تدل على انه يفكر فيها .

ربما كان يمسورها الانصراف عن فكرتها تلك لو لم تكن لاتنفك تحلم بها
ليلها ونهارها . هاهي ذي ترى ابتها تلهو مع بول تحت الحيلة . وكثيراً ما كانت
تثور فيها رغباتها فتود لو تنهض وتذهب الى زوجها في غرفته واقد فعلت ذلك
مرتين الا ان خفها وكرامتها منعها من ولوج الباب فعادت ادراجها وقلها
يجب وجيباً عالياً .

كان أبوها قد غادر القصر وامها قد توت في جدتها فلم يعد لها ثم من تبط
له اللثام عن أسرار قلبها الحبيبة .
وقررت اخيراً ان تمشي الى الاب بيكو فتفضي اليه ، اثناء الاعتراف ،
برغبات قلبها المكبوتة .

وبلغت مسكنه فوجدته يقرأ في كتاب الصلوات تحت أشجار حديقته الوارفة
الدانية القطوف .

وبعد ان تجاذبا أطراف احاديث شتى تمتت وقد اندفعت دماؤها فصرجت
وجنتها البلوريتين :

- بودي لو اعترف ياسيدي الاب .

وحمد الكاهن فترة ثم رفع نظارتيه ليتأملها جيداً وانفجر ضاحكاً . . .

- لا اظن ذنبوباً كثيرة ترهق منك الضمير . .

واضطربت واجابت :- كلا . انما ابتهني ان اسألك نصيحة حول امر خطير . . سأتك بشكل لا اجرو معه على الافضاء به حتى اليك انت .

وبلهجة كهنوتية قال :- حسناً يا ولدي . سأسمعك هيا الى حجرة الاعتراف بيد انها ترددت وتلكأت فليس لها الجرأة الكافية للافضاء بسرها المخجل تحت قبة الكنيسة .

قالت :- اليس افضل . . يا سيدي الاب . . اعني . . أستطيع . . اذا شئت . . ان احدثك هنا بما دُعيت الى المحي اليك . هيا . سنجلس هناك تحت عريشتك الصغيرة تلك .

وسارا بخطى وثيدة . كانت تفكر كيف ستبدأ . كيف تعبر . وجلسا . وبعد ان فرغت من الاعتراف بدأت :- يا ابتاه . . وصمت وقد استبد بها الاضطراب .

اما للكاهن فكان ينتظر وبداه فوق بطنه متصلبتان . ولمس فيها الاضطراب فشجعها :

- حسناً يا ابنتي . يخيل الي انك لا تجرؤين على الافضاء هيا . تشجعي . وحزمت امرها بغتة كما يشب الجبان لمواجهته الخطر الدائم .
- ان بي ، يا ابتاه ، رغبة في ان الد ولد آخر .

لم يجب بشيء لأنه لم يفقه من كلامها شيئاً . ولم تر مندوحة عن الافصاح وقد كادت ، لشدة انفعالها ، تفقد القدرة على التعبير :

- اني وحيدة في الحياة الآن يا ابتاه . فوالدي وزوجي على نفور وقطيعة . . وامي . . امي المسكينة قد قضت

وخنقتها العبرات ثم استجمعت فلول قواها وتابعت بلهجة مخنوقة :- وذات

يوم اوشكت ان افقد وحيدى ! ماذا يحل بي لو حصل مثل هذا الشيء المريع
لاسمع الله ؟

ولاذت باذيال الصمت . كان الكاهن ينظر اليها فاغراً فاه : - حسناً .

النميمة ؟

فرددت بلهجة لا ارادية : - اريد ولدآ آخر .

وابتسم . لقد اعتاد دعاب القرويين السمج .

واجاب وقد ارفق قوله باشارة من يديه :

- حسناً . لا ارى في الامر مايتعلق بي فهو يخصك دون سواك . .

ورفعت اليه عينين مكسرتي الاهداب وتمتمت بلهجة بالغة التأثير : - ولكن . .

انت تعرف انه . . . منذ . . تعرف ماحدث . . . مع تلك الخادمة . . منذ ذلك

الوقت ونحن . . زوجي وانا . . نعيش منفصلين تماماً !

لقد ادهشه هذا الاعتراف هو الذي تعود سماع احط الاشياء من القرويين

وخيل اليه فجأة انه حدىس مارمت اليه المرأة الشابة . ونأملها بزاوية عينه وقد

فاض قلبه شفقة على آلامها الجسام .

- أجل لقد ادركت ماتقصدين . . فهمت ان . . حالة الترمل اني انت فيها

ثقل كاهلك . انك شابة حسنة الصحة . مكتملة العافية . . انه أمر طبيعي ، طبيعي

جداً يا بنيتي .

وعاد يبتسم بطلاقة طبعه المرح هو الكاهن الريفى وربت بلطف ظاهر يد جان :

- ان ماتطلبين حق لك . بل من اقدس الحقوق . فالشريعة قد وهبتك اياه .

فالزواج هو المتنفس الوحيد للفرائر كما نصت الكتب . وانت متزوجة ؟ اليس

كذلك ؟ وانت لم تتزوجي ، لسواد عيني الزواج فقط ، ؟

وبدورها عجزت عن فهم هذه المعنيات . وما ادر كت مقصده حتى تخرج

خداها واضطربت بعنف وهطلت الدموع من مآقيها !

- آه ياسيدي الكاهن ! ماذا تقول ؟ بم تفكر ؟

اقسم لك . اقسم لك ..
وخفتها الغصص .
وادهشه منها ما بدر فراح يخفف عنها :
- دعينا . لم اشأ ان اسبب لك عناء . اني امزح قليلا . هذا ليس مستهجنا
عندما يكون القصد شريفاً . لك ان تعتمد علي . تستطيعين الاعتماد علي . سأري
السيد جوليان .
لم تدر ما تقول . شئت ان ترفض هذا التدخل الذي لمست الآن خطره
وبعده عن الحكمة :
- اشكرك ياسيدي الكاهن .

مرت ايام ثمانية وجان تعيش في ألم وقلق .
ولحظت ، ذات مساء ، ان جوليان ينظر اليها وهما الى المائدة بشكل غريب .
وقد طافت بشفتيه ابتسامة .. كانت نظره اليها أشبه بما كان يفعل ايام صباه .
ثم راح يبدي حياها شيئاً من التجيب الخالي من كل سخرية . وهمس في اذنها ،
اثناء نزهتهما في الممشى : يبدو اننا قد اصطلمحنا .
لم تجب اذ ان افكارها كانت شاردة مع انظارها المعلقة بخط مستقيم رسمه
خطى البارونة امها واوشك الآن ان يحكي وقد نبتت فيه الحشائش كما تمحي
الذكريات .. واحست جان فيضاً من التعاسة يفر فؤادها فينقبض .. لقد ادركت
الآن انها مضية في هذه الحياة .. قد تخلى عنها الجميع

وعاد جوليان يقول : - ارجو ان اظفر برضائك ..
كانت الشمس قد غربت وضحى الهواء عليلًا . وادركت جان رغبة ملحة
في البكاء .. ففتحت ذراعها والقت بنفسها فوق صدر جوليان .
بكت .. بكت بدموع سخيفة . وادهشت فعلتها جوليان فراح ينظر الى
شعرها دون ان يري وجهها القهبي . بين طيات صدره . وفكر : انها لا تزال نجمة .
طبع فوق شعرها قبلة مركزة ..

ونمضا لا يفوهان بكلمة . وسار بها الى غرفتها حيث قضى الليل معها .
وعادت علاقتها على ما كانت عليه قبلاً الامر الذي كان يرهق جان اشد
ارهاق فهي ما تزال تحمل لزوجها احتقاراً وتقزراً الا انها ارتضت معاشرته كما
تصل الى مبتغاها فما ان تحمل حتى تعود الى الانفصال عنه .
بيد انها لم تلبث ان وجدت في مداعبات زوجها سمة لم تعدها فيها من قبل .
كان يتصرف حيالها تصرف عشيق لا زوج مطمئن الى ممارسه حقه .
ومكثت مشدوهة ازاء ما كان يعمد اليه من اساليب تعول دون انخساب
علاقتها وإثارهما .

وسألته ذات يوم ايضاً فاجاب : - ولكن .. كي لا نحمل .. وانتفضت
صارخة : - لم لا تريد اطفالاً .

وعقدت الدهشة لسانه : - ماذا تقولين ؟ لاريب في انك جنفت ؟ آه !
ولكن كلاً ، مثلاً ، ولد آخر ! ان لنا في ولدنا كفاية ! ولماذا تريدين جيشاً من
الاطفال ؟ لاشغال الناس واتفاق المال ؟ ولد آخر ! شكراً لك ..
وقبضت على ذراعه وقبلته ، وغمرته بحنانها ورجته بصوت خفيض : - آه .
اتوسل اليك دعني اصبح اما مرة ثانية .
واستشاط غيظاً كأنها جرحته :

- حقاً انك تفقدن الصواب ! دعينا من حماقاتك ! ارجوك !
ولاذت بالصمت وقد عزمت على بلوع مآربها بالحيلة
غير انه كان دائماً حذراً مسيطراً على اعصابه ففشلت كل محاولاتها فلم تر بداً من
العودة الى الاب يسكو .

وما لحها قادمة حتى هتف : - حسناً يا سيدتي الجميلة !
وكانت به رغبة الى معرفة ما آل اليه حالها :
وجاءه جوابها فوراً وقد تخلت من حياثها الملازم :
- ان زوجي راغب عن الاولاد !

واستدار اليها الكاهن : - وكيف كان ذلك ؟
كانت شديد الاهتمام ، متأهباً للخوض في الموضوع بتطفل الكهنة وحب
استطلاعهم شؤون المضجع ، هذه الشؤون التي تعطي للاعتراف متعة خاصة .
وبالرغم من حزمها ، تلجلج صوتها وهي تشرح :
- ولكنه .. يرفض .. يرفض باصرار ان يجعلني اما .
وفهم الكاهن . ان مثل هذه الاسرار لا تدق عن ادراكه . وشرع يسأل
المرأة عن التفاصيل الدقيقة السرية بهم رجل طال به الصيام ! ..
وفكر دقائق قليلة ، وبصوت بالغ المندوه كما لو كان يتحدث عن الموسم
المرتقب ، رسم لها خطة بارعة مستوفية شروط الدفقة والحذر : - ليس لديك ،
يا بنيتي العريضة ، سوى وسيلة واحدة . وهي ان توهميه انك حامل . وليس له ان
يتأكد من كذب زعمك حتى تكوني قد حملتي حقاً !
وتضرجت حتي منبت شعرها . بيد انها اعتضت :
- وهب انه لم يصدقني .
لم يكن بالكاهن جهل بالاساليب التي يقتاد بها الرجال ويمتلكون : - اعطني
عن ذلك في كل مكان . قولي لكل الناس انك حامل . وسينتهي به الامر الى
الاعتقاد وهو نفسه بصحة مزعمك .
واضاف مبرراً فعلته : - انه حق من حقوقك . فلولا انجاب الذرية لما سمحت
الكنيسة بالاتصال بين الرجال والنساء !
وطبقت خطة الكاهن البارعة بحذافيرها . ولم يمض اسبوعان حتى جاءت تعلن
لجوليان انها تنتظر حدثاً سعيداً !
وقفز مذعوراً : - هذا غير ممكن . غير صحيح !
واوضحت له دلائل ذلك . فلم يلبث ان افرخ روعه وقال :
- بخ ! انتظري قليلاً وسترين !
كان كل صباح يتوجه اليها بالسؤال : - ماذا ؟

فيأتيه جوابها : - لم يطرأ شيء بعد . اني واثقة بما ذهبت اليه .
وبدأ يقلق ، ثم يغضب ، وأخيراً أدركه اليأس فكان يردد : - لا اكاد
افهم ! لا اكاد افهم . اني ادفع حياتي ثمناً لمعرفة كيفية حدوث هذا الشيء .
وخلال شهر كان الخبر قد ذاع في كل مكان فعرفه القاضي والداني ما خلا
الكونتس جيلبرت .

وانقطع جوليان عن زوجته وكان يردد غاضباً مشيراً الى الجنين : - هو ذا
من لم نكن راغبين في قدومه !

وعاد يائساً يقضي ليلاليه في غرفة زوجته .

وتحقق ما حدسه الكاهن تماماً . وحملت جان !

وغمرتها من جراء ذلك موجة غبطة مقعدة مقيمة فكانت تسرح في الآفاق
ناظرياً شاكرة للعناية صنيعها مقرة بجميلها عليها . وكانت ، كل مساء ، تورد باب
مخدعها وقد عزمت واقسمت لتحتفظن بطهارتها حتى آخر نسمة من حياتها

وشعرت بالسعادة . وقد ادهشها كيف استطاعت ، بعد فقدان امها ، التخلص
من آلامها بمثل هذا الحزم وكان قد خيل اليها ، اول الامر ، انها لن تجد عن فراق
امها عزاء ولا سلوى .

ولكن ها هو جرحها النافر يندمل اندمالاً في فترة لا تتجاوز الشهرين عداء .
لم يبق من احزانها الماضية سوى ستار خفيف لطيف يجلبب حياتها كما القناع وجهه
الحسناء . سيشب ولداها بدعة . وتأخذ هي طريقها الى الهرم فالشيخوخة
وسيمحضانها حبهما . . فلا تهتم بزوجها ولا تأبه له .

وفي نهاية ايلول زارهم الاب بيكو مرتدياً جبة جديدة لا تحمل الا بقع اسبوع
واحد وكان يرفقه كاهن شاب نحيل ، بالغ القصر ، فخم الكلام ، ذو عيدين محاطتين
بهايتين سوداوين غائرتين في وقيبهما مشعتين بروح عنيف وخلق وعرا
وقدمه اليهم : - انه خلفه الاب توليباك .

اما الاب بيكو فقد نقل راعياً لبلدة كودوفيل .

احسنت جان حزناً حقيقياً لفراق كاهنها الشيخ . فوجهه هذا الرجل الطيب كان قوي للصلة بذكرياتها كزوجة شابة فهو الذي عقد قرانها وهو الذي نصر ولدها بول وهو الذي دفن امها البارونة . انها تحبه لانه صريح مرح .

بالرغم من رفعة المرتبة التي ظفر به الاب بيمكو لم يبد مرحاً قال : - ان هذا الامر ارهاق لي ياسيدي الفيكونتس ما ثمانية عشر عاماً قد صرمتها في هذا المكان . آه . صحيح ان هذه المقاطعة لا تغل شيئاً كثيراً . . . والرجال . . رجالها لم يعد لهم كبير اهتمام بقضايا الدين . . والنساء . . كما ترين ليس سلوكهن على ما ينبغي . . . والفتيات لا يتزوجن الا بعد ان يرتكبن حماقات تذهب بعفافهن . ان زهور البرنقال قليلة الخطورة في هذه المقاطعة . . مع ذلك فانا احبها . . .

وبدرت من الكاهن الجديد اشارات غت عن صبر يكاد يفرغ وتضرج خداه وهو يقول : - سيتغير كل ذلك في عمري !

كان ، في مسوحه الرثة النظيفة ، كطفل غر حائق ! واستمر النقاش بين رجلي الدين فترة اخرى كان يسدي اليه الاب بيمكو نصائح غالية : - ينبغي له ان يعمل على تزويج كل فتاة تأتيه متضخمة البطن قليلاً . اما ان يحاول منعها عن فعل ما يؤدي الى تضخم البطن فامر لا سبيل اليه وخير ما يعمله سعيه لاقناع مرتكب الفعل بارتق الفسق بالزواج من الام العازبة .

واستثذنا بالذهاب . وعانق الكاهن الشيخ جان فاجهشت بالبكاء . وزارهم الكاهن الجديد في الاسبوع القادم ثم عاد بعد ذلك عند ما لاحظ ان جان لا تذهب الى الاحتفال الديني ايام الاحاد . واقنعها بسهولة بوجهة نظره مبرهنات لها انها ، هو وهي ، رأس المنطقة وعليها ان يتكاتفوا كيما يستطيع هو اداء رسالته الدينية . كان يكلمها بحماسة واثمان عميقين ما لبث ان جذبها بها اليه فاضمت تقوم بشعائر دينها خير قيام .

كان هذا الكاهن الصارم لا ينفك يقوم ، في مواعظه ، بحملات حامية الوطيس ، شديدة الرطاة ، على الشبان والشابات الذين ينقادون الى مزالق الطيش والغواية .

كان شديداً في حكمه على الفتيات الحاططات فارضاً عليهن اشد الفصاص بغية
ردعنهن عن حماقتهن والعودة بهن الى خطيرة التقوى والصلاح والعفاف . ولم يكن
ليتورع عن اعلان اسماء من يلحظ منهم سيواً معوجاً او انحرافاً عن السراط القويم .
واستمر في خطته العنيفة تلك حتى امتنع اكثر الشبان والشابات عن ارتياد
كنبسته . اما جان فقد توثقت عرى الالفه بينها وبين هذا الكاهن الشاب الذي لا
يخشى في الحق لومة لائم فكان يأتي كل خميس فيتغدى في القصر ثم ينهضان بعد
الغداء فيسيران في المشى الذي كانت للبارونة متنزهاً يأخذان باطراف احاديث
دينية تذهلها عن كل ما عداها فيحدثها عن المسيح والرسل والانبياء . وكأنها
يتحدثان عن اشخاص بشدهما اليهم رباط معرفة وثيق .
لقد استطاع هذا الكاهن المتحمس ان يعود بجان الي خطيرة الدين بعد
طول الفلال .

اما جان فكان يعامل الكاهن باحترام عظيم مردداً دون انقطاع : - لشد ما
يعجبني هذا الأب .

وكان لا يألو جهداً في الاعتراف والمناولة .

ولم يكن جوليان ، في هذه الايام ، لينقطع يوماً عن زيارة آل فورفيل فهو
يخرج الى الصيد برفقة الزوج الذي لم يعد له عن رفيقه غنى ، او يرافق الزوجة في
نزهة على الجياد رغم رداءة الجو . اما الكونت فكان يعلق على هذه النزهات قائلاً :
- انها مجنونات يجواديهما . ولكن هذا العمل مما يجلب السرور الى قلب امرأتي .

وعاد البارون الى القصر حوالي منتصف تشرين الثاني كان المهرم قد ظهر على
سمات وجهه فتغيرت وخبث جذوة الشباب فيها ، وهو الغارق ابدآ في حزن اربد قائم
بلغ منه اعماق وجدانه . وكان الحب الذي كان يحمله لابنة قد ضؤل وكاد يضيع
فكان تلك الاشهر من الحزن المقيم قد تركت قلبه وقد تبدل شعوره وتعبرت
عواطفه .

لم تحدث جان بافكارها الجديدة وصلاتها الجمية مع بالاب توليبياك وحماستها

الدينية المستجدة غير أنه ما أن التقى به المرة الأولى حتى أحس نحوه كراهية لا غبة .

وعند ما سألته ابنته رأيه في الكاهن ذلك المساء قال : - هذا الرجل ؟ كآني به أحد رجال (محاكم التفتيش) (١) انه خطر هذا الرجل !
ولما اطلعه الفلاحون على قسوة الكاهن وصرامته ومحاربتة للغرائز الانسانية الطبيعية لم يسمه الا الانفجار ضده بغضب لاهوادة فيه وكراهية لا قرار لها .
والبارون من اولئك الفلاسفة القدامى ، عباد الطبيعة الذين يذوبون وجرأ امام كائنين يتحدان فلا يسجدون الا لاله واحد هو الطبيعة بما فيها ، ويشورون ضد المعتقد الكاثوليكي الذي يصور الله برجوازي النزعات ، منتقماً كالجذويت ، جباراً كأنه الطاغية الغشوم . . .

اما لهم فهو تلك القوة التي جمعت العالم في واحد : واجب الوجود ، لحدود تحدده ، قادر على كل شيء : الخلق والنور والحياة ، الارض والنباتات والصخور ، الافكار والانسان والحيوان ، النجوم والكواكب والله والحشرات في آن واحد !
يخلق لأنه مخلوق ، اقوى من الارادة ، ابعده مدى من الفكر ، منتج دون هدف ، دون غاية بكل ما في هذه الكلمات من معان متناهية . . تبعاً لمقتضيات الصدق ، ولدورات الشمس التي تنير العوالم .

ان الله يشمل كل الاجرام ، والفكر والحياة عنه ينبعثان كما تنفتح الزهرة وتبرز الثمرة من الشجر .

الله ! انه هذا النظام الخالق المخلوق الذي يهيمن على الكون المترامي الاطراف الغير المحدود ، انه نظام يحار العقل امام دقته ، وتسجد النفوس امام خلوده ! انه نظام غير عاقل الا انه يبدع أروع مما تبدع العقول : لأنه هو الذي ابدع تلك

(١) محاكم التفتيش (Tribunal de l'Inquisition) هي هيئة عدلية دينية اشتهرت في اسبانيا ، خلال القرون الوسطى .
باساليب التعذيب الجسيمة التي ابتدعتها للارهاب اعداء الدين حتى ضرب المثل بقسوتها وفضاعة اساليبها .

المعقول ! انه علة كل شيء وكل شيء علة . فلولا المنظم لما كان نظام ، ولولا المخلوق لما وجد خالق !

والانسان ، بنظر هذه الفلسفة ، القاعدة العليا والقانون الاسمي ، انه عمل الله بل اقدس اعماله ، فهو الذي يعبر عن قدرة « السكان الاسمي » ويتم ارادته تلك الارادة الخالدة الغير الواضحة المرامي لكل حين ، والباقية لانهول ولا تزول .
وشرع البارون يشن حرباً لاهوادة فيها على هذا السكان الصارم ، المحترق سمو أمرار الطبيعة وروعة قوانين الحياة !

والكم احزن جان مابدر من ابها خيال السكان فكانت ترجوه كيا يكف عن حملته العنيدة ضد الكاهن الشاب ، كما كانت تصلي ضارعة الى الله ليلهمه التؤدة والمهودة . الا انه كان دائماً يجيها : - لا بد من مكافحة مثل هؤلاء الناس . انه حقنا وواجبنا . فهذه الطغمة غير الانسانية لا بد من قطع دابرها وسحق عنقوانها . ويردد وهو يز رأسه الابيض اللمة : - كلاً . ليس هؤلاء بشرأ . لقد ختم على قلوبهم فهم لا يفقهون شيئاً . اي شيء . انهم يحبون في حلم وامر يوهون على انفسهم وعلى الناس . انهم (اعداء الطبيعة) . انهم لمجرمون !
كان متوتر الاعصاب ، يصرخ : اعداء الطبيعة فكان هذه الصفة اهانة لهم وسببة . ولم يفت السكان ان له في القصر عدواً عنيداً . بيد انه ، رغبة منه في ان يحافظ على سيطرته على ربة القصر ، مال الى القصد في حملته والحد من غلوائه وهو على مثل اليقين من ان النصر الاخير حليفه ولا ريب .
ولزمته فكرة ثابتة : فهم عرى العلاقة الآتية التي تربط جوليان بجلبرت . وكان قد اطلع على ذلك بطريقة ما .

ومشى الى جان يوماً . وبعد ان امضيا الساعات في حديث ديني فلسفي ، طلب اليها ان يتكاثفاها الاثنين لقطع دابر الشر واستئصال شأفة الفساد المترعرع في صميم العائلة ، بغية انقاذ نفسيين اتبعنا سبل الغواية وشططنا عن النهج القويم وقد اصبعنا على منزلتي خطر فاعر الفوهة كاشر الشدق بعيد القرار ! .

لم نفهم جان شيئاً وودت لو يفصح ويبين . فجاءها جوابه مر اوغاً مطاطاً :-
ان الساعة لم تدق بعد . وسأصل بك مجدداً . وانطلق الى شأنه لا يزيد على معمياته
اي ابضاح .

كان الشتاء القارس المطير يردد آخر انقاسه .
وعاد الكاهن في زيارة ذات يوم . وشرع يردد على مسمعي جان الغازه
ومعمياته . الا انها ، هذه المرة ، لم يفتها مرماء وراها ما قصد اليه . فلم يتردد
وشرع بشرح لها بوضوح وصراحة قائلاً : - انه لواجب مضمّن هذا الذي اجد
نفسي مضطراً الى الاضطلاع به حيالك . الا انه لا مناص من ذلك . فوظيفتي
الدينية تعتم علي ذلك فلا يصح ان اتركك تجهلين شيئاً قد تستطيعين الجبولة دون
استشراء شره . اعلمي يا سيدي ان لزوجك علاقة آتمة بالسيدة دي فورفيل وواحنث
رأسها مؤمنة وقد خذلتها قواها .

وعاد الكاهن يقول : - ما تراك فاعلة ؟
ومتعت حينذاك : - ما ذا تريدني ان افعل يا سيدي الاب ؟
وألقى جوابه اليها فكان عنيفاً واخزاً :
- اممي بنفسك اذاً في أتون هذا الحب المحرم !

وشرعت ، بصوت مخنوق ، تبكي : - ولكنه خائني مع خادمتي .. انه
لا يصغي الي ، انه لا يصغي الي ، انه لم يعد يحبني ، واذا ما ابدت له أشياء من
نصرفاته فهو لا يتورع عن اساءة معاملتي ، فما الذي استطيع فعله حياله ؟
وصرح الكاهن لاجشئ اذناً تسرق السمع :

- اذاً فانت تنعنين ! انك تخضعين ! انك تقرينه على ما يرتكب من آثام !
فالجرمة تحدث على مشهد منك فتلون عنها عنقك وتميلين بوجهك ! فكأنها لا تعنيك
أأنت زوجة ؟! أمسيحبة انت ؟! أولست أمأ ؟! سيدي انك تعرف الدين ، لشريكة
في الاثم متاسمة للخطيئة !

ونشجت : - ماذا تريدني ان افعل ؟!

فأرغى : - كل شيء ما خلا الاغضاء عن هذه القصة اكل شيء اقول لك !
هجره .. اهربي من هذا المنزل الرجس ، ابعدي بنفسك عن بؤرة القمامة !

وقالت بانكسار : - ولكني لا املك مالا ياسيدي فضلا عن اني افتقر الى
الجرأة .. ومن ثم .. ليس لدي الاذلة الكافية الدامغة ضدها ، فكيف استطيع
الاقدام على مثل هذه الخطوة دون دليل مادي قوي بين ؟ ليس لي الحق في ذلك .
ونض السكاهن مزجراً مزيد الشدق :

- ان الجبن والتخاذل يسديان اليك هذه النصائح ويمدانك بهذه الذرائع
باسيدي العريضة ! خلتك غير ما عرفت الآن ! لست خليفة بنعمة الله وغفرانه !

وسقطت فوق ركبتيها : - آه ! ارجوك ! لا تدعني ! فف بجاني وخذي بيدي !
ولفظ باقتضاب وقسوة : - افتحي عيني السيد دي فورفيل الزوج المخدوع
فعليه تقع تبعة استمرار هذه العلاقة الاثيمة .

وتركتها قولة السكاهن ترتجف . - ولكنه يقتلها ياسيدي السكاهن وأكون
قد سببت بفعلتي تلك جريمة قتل مزدوجة ! آه ، لا أقوى لا استطيع !
ورفع الى السماء راحته كأنه يستمطر عليها لعنة السماء . واستطرد وقد عصفت
به غصبة رعاء :

- ظلي اذآ في الوحل تتمرغين وفي الجريمة تلغين ! انك اشد اجراماً منها .
انك الزوجة المتغاضية عن خلق زوجها ! انك تمهدين لمسيل الاثم ! لم يعد لي ما افعله هنا !
وانطلق متفاناً للغضب حتى ان جسده كان ينفذ انتفاض المقرور .

ولحقته تكاد تضع صوابها ، مستعدة للتسليم ، للعمل بما يشير ، متأهبة لقطع
العود على العمل باشارته الا انه استمر في سيره الحثيث فائض التقاطيع بالتقزز
والاحتقار ملوحاً بمظلمته الزرقاء التي تناهز قامته طولاً .

ولمح جوليان واقفاً وراء السور يدير بعض الاعمال الزراعية فانعطف السكاهن
يساراً كي يتعاشى المرور برب القصر وكان لا يفتأ يردد : - دعيني ياسيدي ليس لدي
ما أقوله لك .

ولمخ في طريقه جماعة من الصبية قد نجمهروا ينظرون الى شيء معين يبالغ من الفضول وكان البارون معهم لا يقل عنهم اهتماما . كانوا متعلقين حول بيت الكلبة ونيرزاه .. وما ان لمخ البارون الكاهن قادماً من بعيد حتى انصرف متعاشياً الالتقاء به ونحيته .

وخطبت جان الكاهن ضارعة : - هبني بضعة ايام ياسيدي الكاهن وعد الى القصر . وسأطعمك على ما اكون قد فمت به وسندرس الموقف سوية على ضوء التطورات .

وكان قد بلغ في عدوه جماعة الصبية المتصاحجين . ودنا ونظر : انها الكلبة تلد ! كانت قد القت الى النور بخمسة جراء وما زالت في سبيل وضع آخرين . وتنطاولت بحسبها واذ بها تلقي الى الدنيا بجر جديد .. وصحب ذلك لفظ طروب من الصبية المتعلقين حول الوالدة النفساء !

وتسمر الاب توليبياك اول امره مبهوراً دهشاً ثم اجتاحت غضبه عاصفة فتناول مظلته وراح يعم في الصبية ضرباً وشفعاً وانهاراً فانقرط عقدهم وتفرق شملهم انطلقوا في كل اتجاه متصاحجين مولولين .

واندفع ، في ثورة غضبه الجنونية ، نحو الكلبة الوالدة وجرائها حديثي الولادة وراح يثخنها بمظلته حتى تحطم المقبض في يده فعمد الى قدميه يركلها وصغارها بهار كلاً لاهوادة فيه ولا رحمة حتى اهلك الام وانخن في الصغار .

واطلقت جان ساقها الريح أمام المشهد الوحشي الفظيع ولم يشعر الكاهن الا ويد قوية تقبض خنقه ثم أته صفة شديدة اطارت قبعته الثلاثية القرون واحتملته يد البارون الصارمة وجرتة حتى السور وقذفت به الى الطريق .

وعندما رجع البارون وجد ابنته قد خفت الى الجراء الصغيرة فركعت امامها وراحت تلتقطها وتضعها في ذيل ثوبها .. واندفع اليها مسرعاً وقال : - هذا هو الرجل ذو المسوح .. هل عرفته الآن ؟!

وكان بعض المزارعين قد نجمهروا وقد شدهوا هذه الوحشية التي بدرت من رجل الله !

ولم يمش من الجراء سوى اصغرها فقد اخضر والاهرة والدة القموه ثديها .
وأبي البارون الا ان يطلق عليه اسم « ماساكر » - مذبحه -

ولم يرجع الكاهن الى القصر بعد ذلك ، وفي الاحد التالي اطلق من فوق منبره
اتهامات خطيرة وتعريضاً جارحاً بالقصر وسكانه ملجأ الى علاقات جوليان الآثمة
بالخادمة روزالي والكونتس جيلبرت . وثارت ثائرة الفيكونت جوليان الا ان
خشية الفضيحة خنقت انفاس هذه القضية .

واستمر الكاهن الغضوب يندد بالقوم في مواعظه . معلناً ان يوم الله قد دنا
وانه لن يألوا جهداً في ازالة ضرباته القواصم باعدائه واعداً كل خلق قويم .

ولم يقف جوليان مكتوف اليدين حيال الكاهن الساخط فعمد الى رسالة
سطرها الى المطران بلهجة شديدة ولكن باحترام شديد نال الكاهن على أثرها
تكديراً من رئيسه فلم يسعه الا الصمت والاستكانة .

وكان الناس يلتقون به ينتزه منفرداً يسير بخطى واسعة كئيباً شديد الانقباض
وكثيراً ما لمح جوليان وجيلبرت اذ كانا يقومان بنزهتهما على جواردهما . فكان يظهر
لها أحياناً في أقصى الحقول كنقطة سوداء أو منهكاً في مطالعة كتبه الدينية في
امواق الاودية الضيقة . فكانا يلويان عنانها تفادياً للقائه .

كان الربيع قد هل على الكون فاذا كنت حمياء جذوة الحب في صدري
العاشقين فكان الواحد منها لا يتورع عن الالتقاء بنفسه بين ذراعي الآخر تارة هنا
وطوراً هناك ، في كل نجوة يجدها أثناء نزهتهما .

ولما كانت اوراق الشجر ماتزال صغيرة غضة ، والاعشاب رطبة فلا يستطيعان
التوغل في الادغال او اقتعاد الارض تحت ستر الاغصان كفعلهما ايام الصيف ، لذا
كانا يلجآن معظم الاحيان الى أحد الكواخ الرعاة المهجور منذ الحريف والقائم على
رابية « فوكوت » .

وهناك يقيان في نجوة من العيون المتطفلة يعبان كؤوس هواهما الاثم عباً
فالرابية تطل على كل ماجاورها ولا يمكن لأحد مفاجئتها وهما فوقها .

اما جرادهما فكانا مشدودين في منعطف يخفيهما عن الانظار ينتظران بصبر
الساعة التي ينهك الحب فيها جسدي صاحبيها فيشملان ويكتفيان !
وفوجئا ، ذات يوم ، وهما يغادران الكوخ بعد ساعة حب قضياها ، فوجئا
بالاب نوليباك محتباً في نبات (الجونك) البحري العريض الورق .
قال جوليان : - علينا ترك جوادينا في الوادي من الآن فصاعداً فهو يستطيع
اكتشاف خلوتنا بسببهما . وهذا بعد ذلك الى شد الجوادين في احد منحنيات الوادي
الملتف الاشجار .
وكانا عائدان ذات مساء الى القصر عندما لحا الكاهن خارجاً منه فافسحا له
الطريق وحيياه دون ان يرفعا اليه انظارهما ، ولم يلبث قلقهما لرؤيته ان تبدد .

* * *

كانت جان جالسة الى الموقد تقرأ ذات اصيل عندما لححت الكونت دي فورفيل
يدخل مستحث الخطى ، شديد الاضطراب ، حتى لقد خيل اليها ان كارثة ما قد
وقعت او هي موشكة الوقوع .
ومشى اليها شديد القلق وما اقترب منها حتى ظننه قد خوطب في عقله . كان
يرتدي قبة عريضة لاتصاح للخروج وبدا بشاربيه الاشقرين شديد شعوب الوجه
وكانت نظراته ضائعة وعيناه تدوران في وقبهما .
وقال متلاحق الكلمات :- زوجتي .. اهي هنا ؟ اليس كذلك ؟
واجابت جان وقد اوشكت ان تفقد صوابها :- ولكن .. كلا فانا لم ارها
اليوم اطلاقاً ..

وانخط بجسمه عندئذ كأن ساقيه قد حطمتا ورفع قبعته ومسح جبهته بمنديله
مرات عدة بحركة آلية ...

ونهض فجأة كما جلس ودنا من المرأة الشابة وقد مد ذراعيه نحوها وفقر فاه
فكأنه يوشك ان يسر اليها بالأم مبرحة .. بيد انه سمر في مكانه فجأة وحدها
بنظرة جامدة ولاك كلمات كأنها الحشرة :

- ولكنه زوجك .. انت الاخرى ..
وانطلق نحو البحر لابلوي على شيء ..
وعدت جان وراءه كيما توقفه وتادقه ، ورجته وقد سحق الملع قلبها .
وفكرت . - انه يعلم كل شيء ! ماتراه فاعلاماً ؟ آه ينبغي الا يجدهما ! ..
وعجزت عن اللحاق به وكان لا يفتأ منطلقاً بكل قواه وقد أصم اذنيه عن
توسلها ورجائها . كان مندفعاً غير هباب واثقاً من الهدف الذي اليه يسير .
واجتاز الخندق وعبر بالتبانات البحرية فافزأ بخطى مارد جبسار حتى بلغ
الشاطئ الصخري .

ووقفت جان فوق الرابية تتبعه بانظارها حتى اختفى فعادت ادراجها الى
البيت وقد جثم فوق صدرها فلق مربع .

وانعطف يميناً وراح يعدو ، كان البحر الزاخر يهدر باه وواجه والغيوم السود
العريضة تتلاحق متراكضة يجنون فتعبر فوق الرؤوس ثم تتلوها غيرها فتغدق فوق
الشاطئ ، مزنها المتهون . . وكانت الريح الزعزع العشائية تعصف فتحني النباتات
الغضة السوق وتحمل عصابات الطيور البيض كأنها الموج الدافق .

وبلغ وادي فوكوت الفاجر الشدق . لم يكن ثمة سوى كوخ الرعاة بالقرب
من حظيرة خراف خاوية . ولمح جوادين شدودين الى حاجز البيت . - ماتراهما
يخشيان في هذا الاعصار ؟

وما ان وقع ناظراه على الجوادين حتى استلقى فوق الارض وشرع يزحف
على يديه وركبتيه كأنه مارد اسطوري بجسمه الملائخ وحلأه وقبعته المصنوعة من
وبر الحيوان . واستمر يزحف حتى بلغ الكوخ المفرد واختفى تحته كي لا يتمكن
من اكتشافه من فرجات الحشب .

واضطرب الجوادان لدى رؤيته ، وممد الى رباطهما فقطعه بمديّة كانت مسلوطة
بيده . وعصف الريح فذعر الحيوانان وانطلقا والبرد يجلد هما كأنه السياط اللاذعة
كما كان يقرع سطح الكوخ النقال الذي يشبه العربات فكان يترق فوق عجلانه .

ورفع الكونت جسمه فوق ركبتيه والصق عينه في أسفل الباب ونظر الى الداخل .

لم يبد حراكاً . كان كأنه ينتظر . ومرة فترة لبست بالقصيرة وهو جامد كأنه التمثال قد من صخر احم ! ونمض فجأة على قدميه وبحركة جبارة او صد التفل الذي يغلق باب الكوخ من الخارج ثم تناول هذا العش من جانبيه بقبضتين فولاذيتين وراح يهزه هزاً عنيفاً كأنه يروم تحطيمه واحنى قامته المثينة البنيان ويجهد يفوق طاقة البشر دفع بالكوخ ومن فيه نحو المنحنى السريع . . . ودفع . . . ودفع كأنه ثور هائج اعمى الدم بصره . . .

وعلا صراخ العاشقين من الداخل وشرعا يضربان الجدران بقبضاتهما وهما لا يدركان حقيقة ما يحدث لهما .

وما بلغ بالكوخ اعلى المنحنى حتى افلته ودفعه دفعه اخيرة بجميع قواه فاندفع متدحرجاً فوق الصخور المتلاحقة حتى الشاطي . . . وكانت سرعته في هويته تزداد بازدياد تدحرجه فكان يضرب الصخر بجوانبه فيقفز ويشب ويتعثر . وطارت إحدى عجلاته فانحطت على احد جوانبه ثم عاد الى تدحرجه كأنه كتلة ضخمة او بيت قد اقتلعت عاصفة هوجاء واقت به من عل . . . واستمر في تدحرجه حتى بلغ اخيراً نهاية المنحنى فوثب من فوق حافته الصخرية وهوى الى الاعماق فانسحق انسحاق بيضة هشة !

وكان ثمة منشرد فقير رآه في الخداره القاتل فلاحقه بانظاره حتى استقر في اعماق الهاوية . ولم يجزئ المنشرد على الدنو منه مدفوعاً بحبشة اهل الريف ولكنه خف الى بعض المزارع المجاورة وأعلن عن الحادثة .

وأسرع جمع من الناس . ورفعوا الحطام وحمدوا امام الجثتين . . . كانتا مهشمتين نهشاً مريعاً وقد جلتها الدماء . اما الرجل فكانت جمجمته مفلقة ووجهه محطماً أروع تحطيم . اما المرأة فقد تدلى فكها لصدمة كسره كما كانت أعضاء الاثنين مهشمة رخوة كأنها خالية من العظام .

وتعرف عليهما الناس رغم كل ملحقهما من تشويه وراحوا يتساءلون عما أدى
الى هذه الجريمة النكراء . قالت امرأة : - من تراه سبب هذه المسقطة الفاتلة؟ وتكلم
المشرد : - لقد احتسبنا بهذا الكوخ هرباً من العاصفة فما كان من الاعصار الا ان
دفع بالكوخ فتردى في الهاوية كما ترون ..

ثم زعم انه هو نفسه كاث ينوي الاحتماء بالكوخ الا ان رؤية الجوادين
المشدودين الى حاجزه افهمته ان المسكان غير شاغر ثم اردف بلهجة راضية : - ولولا
ذلك لكنت انا الضحية ... واجاب صوت : - لو تم ذلك لكانت المصيبة أخف
وطأة .. واحتدم المشرد غيظاً : لماذا؟ الأني فقير وهما غنيان ؟ وأشار الى
الجنتين الممزقتين بطرف عكازه الاعوج :
- اننا جميعاً متساوون أمام الموت .

وكان فريق آخر من الفلاحين قد خف الى مكان الفاجعة وراحوا ينظرون
بطرف أعينهم بحزن وقلق ثم تشاوروا فيما يفعلون وقرروا حمل الجنتين الى القصر
طبعاً بالمسكافة . وشدت عربتان حملتا الجنتين وانطلقتا مسرعين تهتران اهتزازاً
عنيفاً تضطرب له الجنتان المهشمتان .. ماتبقى من هذين المخلوقين الذين جمعها حب
آثم محرم ثم جاء الموت ففرق بينهما الى الابد فلا يلتقيان ...

أما الزوج المنتقم اروع انتقام واقساه فما ان رأى الكوخ الحشبي يتدحرج
منقضاً فوق المنحدر الصخري حتى أطلق للريح ساقبه بكل ما أوتي من قوة لايعبأ
بسياط المطر وهبات الاعصار . وبلغ بيته من غروب الشمس لا يدري كيف تمكن
من بلوغه .

وكان الخدم المذعورون بانتظاره فاخبروه ان الجوادين قد عادا دون فارسهما
وقد تبع جواد جوليان الجواد الآخر .

وبصوت منقطع الثبرات اصدر الكونت أوامر مشددة الى الخدم للاسراع
والبعث عن الفارسين الضالين فقد يكون حادث ما قد دهمهما في مثل هذا
الجو الخفيف .

وذراً الرماد في العيون انطلق هو الآخر للبعث عنهما الا انه لم يلبث ان
اختبأ تحت اكمة راح يشرف منها على الطريق التي ستصل منها جثة هامدة او في
نزاعها الاخير او على الاقل مشوهة الوجه الى الابد .. انه يوقب هذا المصير المرأة
التي ما يزال يحبها بوحشية !

وسرعان مامرت على مرمى ناظريه عربة تحمل شيئاً غريباً . وتوقفت أمام
القصر . ثم دخلت . انها هي . وسمرته في مكانه غصة خفيفة ، خوف هائل من
الوقوف على الحقيقة . وجد لايجرك ساكناً ، ولبت ملتصقاً بالارض كأنه أرنب
رعيد يرتجف لافل نائمة ..

ولعله أقام على مثل هذه الحال ساعة او ساعتين . ولم تخرج العربة ، فقال في
نفسه ان زوجته تلفظ أنفاسها الاخيرة وملأته فكرة رؤيتها من جديد رعباً جعله
يخشى اكتشاف حبه فيجبر على الدخول ورؤية وجهها المخضر . وخطر له ان ينطلق
في قلب الغابة هارباً .

وفكر على حين غرة انها قد تكون بحاجة الى مساعدة ما وليس لها من يقوم
لها بذلك فعاد راكضاً يكاد يفقد صوابه .

وصادف وهو داخل البستاني فهتف به : - ماذا ؟ فلم يجزئ الرجل على الجواب .

وزجر السيد دي فورفيل : - أماتت ؟

ونغمم الرجل واجفاً : - أجل ياسيدي !

واحس راحة قصوى ، وعبر عروقه وعضلاته هدوء مفاجئ . وتسلى بخطى
ثابتة درجات السلم العريض . وبلغت العربة الثانية قصر (بوبل) ولحقها جان عن بعد
ورأت الفراش وادركت ان جثة زوجها ترقد فوقه . وفهمت كل شيء . وكان تأثرها
بالغاً درجة جعلتها تنحط فاقدة وعيا .

وعادت الى صوابها بعد فترة لا قدرني أطال أم قصرت والفت اباهاميسك برأسها
بين راحتيه ماسعاً بأخل جبينها وصدغها . وتودد في سؤاله : - أعلمت ؟ فغمغمت : -
أجل يا ابتاه .

ولم تقو على الغوص . لشد ما كانت منهوكة متألماً .
وفي المساء ذاته اجبضت . . . طفلاً ميتاً . . . بنية كما كانت تود . لم تشهد دفن
جولييان ولم تدر عن ذلك شيئاً . ولحظت بعد يوم أو يومين ان الحالة ليزون في
الفصر . وتذكرت ان الحالة العانس قد حضرت يوم وفاة البارونة ثم اختفت
وهاهي الآن تظهر من جديد .

الفصل الرابع

أقامت جان معتكفة في غرفتها ثلاثة أشهر . ولقد أصبحت من الضعف والشعوب بحيث تنكرها العين . غير أنها مالبثت ان استعادت حيويتها شيئاً فشيئاً وكان والدها والحالة ليزون قد لزمها في القصر لا يبرحان .

واورثتها الصدمة مرضاً عصبياً . ولم تسأل ابداً عن الملابسات التي رافقت وقوع الفاجعة . ولماذا تسأل ؟ ان كل الناس يرون في الحادث قضاءً وقدرًا . اما هي فتعرف الحقيقة القاسية . وهي تحتفظ في أعماق صدرها بهذا السر الهائل الذي مازال يعذبها مرور العذاب : لقد نقشت في أعماق نفسها تلك الساعات بحروف من نار : زيارة الكونت . خروج . العربية المتراقصة بالجنة المشية !

بالغربة ! ان ذكريات لطيفة تعاودها ... ذكريات سويغات حلوة ، على قصرها ، قضتها بين ذراعي جوليان .. وأوشكت ان تغفر له كل ما ارتكب من اثم وكل ما سبب لها من عذاب مضم وألم مبرح . وحتى خيائته ، ضعته ، المخطاط خلقه ، كادت تمحوها له من صفحة ذكراه .

ولم تدم طويلاً في اجترار هذه الذكريات الاليمية بل سرعان ما انصرفت بجماع عواطفها الطعينة الى والدها فمحضته حباً يوشك ان يكون عبادة وهذا كل من في البيت حذوها ، فالاب والحالة ليزون وجان غدوا البول الصغير عبيداً اقناناً يملك منهم الرقاب ويتصرف بهم حسب أهوائه . وجاء وقت شعرت فيه جان ، لشدة تعلقها بولدها ، غيرة من جده والحالة ليزون . أما هذه الاخيرة فلم يكن الطفل يأبه بها شأن كل الناس وربما لم تختلف تصرفاته معها عن تصرفاته مع بقية الخدم . فسكانت تختلي في غرفتها لتتغمرط في بكاء يائس لا يكثرث به أحد .

سفتان تصرمتا على هذا المنوال لم يعكزهما معكز . وفرروا في مطلع الشتاء
الثالث ان يقصدوا روان ليقسوا بها حتى مطلع الربيع . وانتقلت العائلة جميعها الى
هذه المدينة بعد أسابيع قلائل .

غير ان اقامتهم في بيتهم الرطب المجهور كانت سيئة الاثر على صحة الطفل
فاصيب بنزلة صدرية اشتدت عليه وطأتها حتى حسبوه اصاب بذات الجنب فأدر كوا
ان لاغنى لهم عن هواء القصر المنعش فقفلوا اليه راجعين ادراجهم فور ابلال بول
من مرضة .

وبدأت سلسلة من السنوات المأدبة الحلوة .
كانوا يمضون معظم أوقاتهم مع الصغير المعبود ، في غرفته تارة وفي الردهة
الكبيرة طوراً وفي الحديقة مرة ثالثة مروحين عن انفسهم بالاصغاء الى الغوة المحبب
ومشاهدة حركاته الغريبة .

وكانت امه تدعوه (بوليه (١) تحبباً ولما لم يكن يستطيع اخراج الاحرف
واضحة فكان يدعو نفسه (بوليه (٢) الامر الذي كان يثير فيهم عاصفة من
الضحك لانتهى .

ولزمته هذه التسمية دهرأ طويلاً .
ولما كان غرق قامته مضطرباً فقد غدا مهمهم قياس قوامه . وكان البارون
يطلق عليهم هم الثلاثة : إماماته الثلاثة ،

وجاء شخص بعيد يلعب دوره في العائلة : انه السكب ماساكر وكانت جان
قد اعملته في انصرافها السكبي الى بول . وغدا هذا السكب صديق بول لا يفارقه في
ليل أو نهار وكثيراً ما يرقد معه في فراش واحد . وشكت جان شدة تعلق ولدها
برقيقه وقد خشيت انتقال الحشرات من الحيوان اليه . اما الحالة ليزون فقد
اساءها ان يجرمها ماساكر من نصيبها الضئيل من اهتمام بول .

(١) تصغير لكلمة Paule يقصد منه التذليل (Paulet)

(٢) Poulet وتعني دجاجة صغيرة

وندرت الزيارات بينهم وبين جيرانهم . اما المختار والطبيب فلم ينفكا يكرران
صفو القصر القديم بزياراتهما الرتيبة . وقد انقطعت جان عن ارتياد الكنيسة منذ
مصرع السكبة تحت ركلات قدمي السكاهن السفاح . ثم جاءت تلك الاشاعات التي
لم يتورع الاب توليباك عن اثارها عن السكارة التي اودت بحياة العاشقين . ولشد
ما أحنق جان من الله اتخاذ مثل هذا الرجل الغشوم ممثلاً له على الارض !

و كثيراً ما كان الاب توليباك يلمح الى ان القصر قد غدا مسرحاً لارواح
شريرة تروود فيه ليل نهار .

وكانت كنيسته قد خوت من المصلين فقد نفرت الجميع أعماله المتناهية فظاظة
وقسوة . وكان اذا ماسار في الحقول حيث يجرت الفلاحون لووا عنه اعناقهم فلا
يحبيه احد ولا يابه له أحد . ولربما نظروا اليه نظرتهم الى ساحر نطيعه الارواح
الشريرة وتأثر بامرره قوى ابليس . لم يطرد الشياطين من قلب امرأة غاوية ؟
ولقد انصرف عقله المتعصب المتزمت فعلاً الى مطالعة كتب تبحث في السحر
واستهضار الأرواح ومناجاة الشياطين .

وطافت بالناس فكرة الخوف منه وتجنب رؤيته لما يكن فيه من قوى
سحرية شريرة ولم يقتصر ذلك على العوام من الناس بل تعداه الى زملائه من كهنة
الريف الذين باتوا يخشون فيه هذه الظاهرة الغريبة واذا كانوا يتظاهرون أمامه بشيء
من الاحترام فما ذلك الا لتمكن هذه الفكرة من نفوسهم .

وكان اذا ما التقى بجان ازور عنها فلا يحبها . ولقد اشاع هذا الوضع الشاذ
نحو السكاهن القلق في نفس الحالة ليزون التي لم تستطع ان تفهم ، بعقلية العانس الجامدة
كيف لا يذهب المرء الى الكنيسة كل احد او عيد .

وكانت اذا ما خلعت الى بول عمدت الى تلقينه شيئاً عن الدين فكانت لا يصغي
اليها باهتمام الا عندما تروي له قصصاً عجائبية عن الجنة والنار والقديسين المغامرين .
وبلغ الطفل عامه العاشر . وحيث امه الى الاربعين . كان قوياً ، شديد الجلبة
كثير الصخب ، شجاعاً يتسلق الاشجار غير حياء . الا ان عقله ظل فارغاً .

فالدروس تبعث فيه مللاً فلا يلبث ان ينصرف عنها . واذا ما احتجزه جده فترة امام كتاب تدخلت جان قائلة : - دعه يلعب الآن . ليس لنا ان نزهقه . انه ما يزال حدثاً .

انه ، بنظرها ، لم يتجاوز شهره السادس أو عامه الاول على أبعد تقدير ! وبرزت صعوبة كبرى اذ بلغ عامه الثاني عشر : قضية (مناولته الاولى) (١) وقد جاءت الحالة ليزون جان يوماً وافهمتها انه ليس من اصالة الرأي في شي ترك الغلام دون أية معارف دينية . واوشكت جان تقتنع بما قدمت لها خالتها من أدلة الا انها ارجأت البيت في الامر الى ما بعد .

وعاد بوليه ذات مساء وقد اصابه سعال من جراء وقوفه في مجرى الهواء اذ عاقبه الكاهن أثناء الدرس الديني ومنذ هذا اليوم رفضت جان ارساله الى هذه الدروس وشرعت تلقنه بنفسها مبادئ الدين فكان راد الاب توليبياك على هذا التدبير ان رفض قبوله في عداد المتناولين ، رغم رجاء ليزون ، محتجاً ان تعليمه الديني غير كاف .

ولم تكن النتيجة في السنة التالية افضل منها هذه السنة وثار البارون أثر ذلك وقرر ان حفيده ليس بحاجة الى معرفة هذه الحقائق ، هذا الرمز الصياني الذي يزعمونه في استحالة الخبز والخر الى جسد المسيح ودمه ! .

فليست مثل هذه الاشياء ، بنظره ، ضرورية كما يصبح الطفل رجلاً فاضلاً وعزم على تنشأته مسيحياً ولكن ليس كاثوليكياً متعيداً وسيترك له الحرية ، بعد بلوغه الرشد ، لاختيار المذهب الذي يحلو له .

وقامت جان بزيارة لآل بريسفيل الا انهم لم يردوا لها الزيارة الامر الذي أدهشها غير ان المراكيزة دي كوتيليه أعربت لها بكثير من الترفع عن السبب الذي حججهم عنها .

(١) ترجمة Première Communion وتعني تقديم الطفل الى الكنيسة ليتلقى أسرار الدين لأول مرة . - المترجم -

كانت هذه السيدة شديدة الاعتداد بامم زوجها ومركزه المالي ، تنظر الى نفسها كما لو كانت ملكة النبلاء النور منديين وكانت جان تزورها ذات يوم فوجهت اليها الكلام بالمهجة جافة متعالية قائلة :

- إن المجتمع يقسم إلى قسمين . قسم يؤمن بالله وآخر يشرك به . إن القسم الاول هم أصدقاءنا المساوون لنا أما الآخرون فليسوا منا وليسنا منهم . فاجابت جان وقد أدركت مرمى كلامها :- ولكن اليس بمقدور المرء ان يؤمن بالله دون ان يرتاد الكنائس ؟

- كلا ياسيديتي . ان المؤمنين يقصدون بيت الله للصلاة كما يفعل المرء اذا كان بحاجة الى انسان فيأتيه في بيته .

وجرحت قوائمها جان فاردفت تقول :- ان الله موجود في كل مكان ياسيديتي . فانا مثلاً اؤمن بالله ايماناً عميقاً ولشد ما يبدو لي بعيداً عندما يكون بعض الكهنة واسطة بيني وبينه !

ونفضت المر كيزة قائلة :- ان الكهنة يحملون لواء الكنيسة ياسيديتي وكل من لايسير تحت اللواء فهو حرب عليه وعلينا !

ونفضت جان بدورها راعشة الاوصال غضباً :

- انك ياسيديتي تؤمنين بالله متعيزاً لحرب دون آخر .

أما أنا فأؤمن بالله لجميع الناس على حد سواء .

وحيت وخرجت .

وجعل البارون شغله الشاغل تعليم بول فبدأ يدرسه اللاتينية وكانت جان لاتنفع توصي اباها :- المهم الا ترفقه . وهي لاتفتأ تطوف بالعرفة التي يجلس فيها تسأله تارة اثر اخرى :

- ألا تشعر يورد في قدميك ؟ - او - ألم يصبك صداع يا بوليه ؟ او توقف

الدرس لتقول :- لاندعه يتكلم بهذا المقدار فستتعب جنجورته .

وما ان يفرغ من الدرس حتى يهبط الى الحديقة مع امه وخالته فيبضي وقته

في غرس النباتات وحفر الاحواض فان له لميلاً خاصاً الى مثل هذه الاعمال وحباً شديداً لجني الازهار وتنظيم الاضاميم .

وكبر بوليه وبلغ الخامسة عشرة غير انه ظل طفلاً بتفكيره جاهلاً ، مائعاً ، محصور العقل بين هاتين المرأتين وهذا الرجل وليسو جميعاً من اولاد العصر .

وتحدث البارون ذات مساء عن ارساله الى الكلية وفاضت الدموع لهذه الفكرة من عيني جان كما هلمت الخالة ليزون فانتبذت مكاناً قصياً تشرق بدموعها .

وقالت جان :- ما حاجته الى كل هذه المعارف . سنجعل منه رجلاً ريفياً ،

نبيلاً مزارعاً . سيتم باروخ كما يفعل العديد من نبلاء الريف . سيعيش ويهرم سعيداً

في هذا البيت حيث عشنا قبله وحيث سنموت . وهل نطمع له في خير من ذلك ؟

وهز البارون رأسه منكرًا :- بم ستجيبينه اذا ما بلغ الخامسة والعشرين

وجاءك يقول : انا لست شيئاً مذكوراً لأنني لا اعرف شيئاً ! انها خطيبتك اخطيئة

امومتك الالفانية ! انا لست خليقاً باي عمل كما أصبح شيئاً مذكوراً ! ومع ذلك لم

اخلق لمثل هذه الحياة النافذة المظلمة ، الكثيبة حتى الموت التي اوصاني اليها حنانك

القصير النظر .

واستمرت تبكي شاكبة أمرها - فل يابوليه . انك لن تلومني لأنني محضتك

كل هذا الحب ! اليس كذلك ؟ ووعدنا الطفل الكبير مشدوها - كلا بالتأكيد

يا أميتي !

- أنقسم ؟

- أجل يا اماء !

- اتريد ان تبقى بالقرب من امك المسكينة ، أليس كذلك ؟

- أجل يا اماء !

وعندئذ تكلم البارون بصوت عال ولهجة صارمة .

- جان . ليس من حقك ان تتصرفي بحياته مثل هذا التصرف الاخرق . ان

ما تقدمين عليه الآن جبن واجرام . انك تضعين بولذك على مذبح سعادتك الشخصية !

واخفت براحتها وجهها معلقة زفرات حرى .

وعادت تقول : - أشد ما كنت تعيسة !.. والآن وقد عرفت السعادة بولدى ..
ياخذونه مني ، ماذا سيجعل بي .. وانا وحيدة .. مفردة ؟!
ومشى اليها أبوها وأخذها بين ذراعيه : - وانا يا جان ؟ وتناولته فجأة من
عنقه وقبلته بعنف : وعادت تقول والزفرات تقطع كلامها : - لك الحق .. ربما ..
يا ابتاه .. اني مجنونة .. لشد ما فاسيت فليذهب الى الكلية ..
وشرع بوليه يسكي دون ان يعرف ما يراد به تماماً .

وعانقته (امهاته الثلاث) وهددهنه وشجعنه وعندما أورا الى غرفهم كانت
قلوبهم معتصرة ونفوسهم منقصة وحتى البارون لم يكن أسعد سظاً من المراتين .
وحزموا امرهم على ادخال بول كلية الماهر في مطلع العام الدراسي وبدأوا
يدللونه مدة الصيف اكثر من المعتاد وكثيراً ما استسلمت جان الى البكاء اذ تفكر
بهذا الفراق المرتقب . وراحت تعد له احتياجهاته كالمولود كان راحلاً ليتغيب السنين الطوال .
وأخيراً ، بعد ليلة مؤرقة ، من اوائل تشرين الاول ، أقلتهم عربية انطلقت
صوب الماهر .

وبعد جولة في ارجاء المدينة اتجهوا نحو الكلية ، كان اطفال من كل الاسنان
وكافة الجهات يسير بهم آباءهم او بعض الخدم وكان اكثرهم يذرفون الدموع
فتجواب اصوات نشيجهم في الباحة الواسعة الضئيلة النور .

وعانقت جان بوليه طويلاً ، وجمدت الحاله ليزون وراهما وقد أخفت كل
وجهها في منديلها وما كان من البارون ، وقد اصابته عراطفه هو الآخر ، الا ان
عمد الى اختصار ساعة الوداع فحزم ابنه وخرج بها الى العربية التي عادت بهم الى القصر
وفد هبط الليل ، وكان الركب لا يفتأ يصعد الزفرات في الظلام الخيم في العربية .

وأضت جان يومها في بكاء لا ينقطع ، ولم تنطق صبراً فالتجهدت في اليوم الثالث
نحو الماهر ووجدت بوليه قد اعتاد حياته الجديدة بعيداً عن امه ، وللمرة الاولى في
حياته اتخذ لنفسه اصدقاء ، كانت شدة رغبته في اللهو تتركه مرتجفاً وهو بين اهله
في قاعة الانتظار .

ودأبت جان على الحضور الى المدينة كل يومين كما كانت لا تخلف ميعادها أيام
الاحاد لتخرج ببول من أسر الكلية ، وكانت تقيم بانتظاره وهو في قاعة الدرس
فلا تدري ما تعمل فتسكت في غرفة الانتظار لا تجرؤ على الابتعاد عن الكلية ،
ورجاها الناظر كي تقلل من زياراتها ، غير انها لم تأبه لهذا الرجاء . وأندرها أخيراً
بانه ، ان استمرت في الهام والها عن دروسه وألعابه ، فسيجد نفسه مضطراً الى اعادته
اليها كما وجه الى البارون رسالة بهذا المعنى ، فاضطر هذا الأخير الى حجبها في
القصر كأنها سجنينة .

كانت ترقب أيام العطل بشوق أقوى من شوق ابنها اليها وأشد ، واستبد بها
قلق لاهوادة فيه ، وكثيراً ما كانت تخرج مطوفة بالمقاطعة يرافقها السكب ماسا كر
فتميم تحلم في فراغ . . . وأحياناً كثيرة كانت تمضي كل بعد الظهر فوق صخور الشاطئ
عائقة الانتظار في اليم ببله . . او تقصد إيبور في زهات كفعلمها في ماضيات أيامها . .
فكانت ذكرياتها القديمة لا تنفك تلاحقها بضرارة . ما أبعد من عهد ! . . أيام كانت
تطوف بهذه الاما كن اذ كانت فتاة عذراء غضة الالهاب وبانة الصبا مفعمة الخيال
باحلام مذهبة الحوائثي فتانة الرؤى رائعة الخطرات ! . . كانت في كل مرة تشاهد ابنها
يخيل للناظر ان فرأفها عمر عشر سنين . اما هو فكان يزداد رجولة شهراً بعد شهر
بينما كانت هي تمشي الى الكهولة بخطى خفيفة . وبدأ ابوها الى قربها كأنه أخ لها كما
بدت الحالة ليزون اختاً لها هي الاخرى .

ولم يسجل بوليه أي تقدم في دراسته . واعاد الصف الرابع . اما الثالث فاجتازه
بين . . وبلغ الصف الثاني فكان عليه ان يعيده ايضاً . وكان في العشرين من عمره
عند ما بلغ صف البكالوريا .

وغدا شاباً طويل القوام أشقر البشرة وقد طر شارباه واخضل عذاراه وهو
الان يأتي الى القصر كل احد على جواد يستأجره فيقطع به المسافة في ساعتين .

كانت جان والحالة ليزون تذهبان منذ الصباح الباكر الى لقائه . . وربما
رافقها البارون محني الظهر قليلاً يسير كأنه شيخ هم وقد صالب ذراعيه ورائظهره

كأنه يعتمدهما في سيره فلا تتعثر قدماه وبالرغم من ان بول قد بلغ سن الرجال ما انفكت امه تنظر اليه كأنه مازال طفلاً يحبو ، و كثيراً ما كانت تقول له :
- الانحس برداً في قدميك ؟ .

وكانت اذا ما رآته يتنزه امام القصر مدخناً سيكاراته تفتح نافذتها وتهيب به :
- لا تخرج عاري الرأس يا صغيري بوليه فقد يصيبك رشح دماغي .
واذا ما رآته يركب جواده ليسافر ليلاً كانت تهتز فرقاً وتقول : - لا تسرع يا حبيبي . فكر بآهك المسكينة فاذا حدث لك مكدر مت يا ولدي .
وتلقت صباح يوم السبت رسالة من بول يعلن فيها انه لن يأتي يوم الاحد فتمت احتفال يقيم به بعض الرفاق وقد دعي اليه
وقضت يوم الاحد على اسوأ حال . ولم تقو على الصبر فقصدت يوم الخميس مدينة المافر .

ورأت تغيراً قد اعتري ولدها دون ان تعنى بمعرفة السبب . بدا لها اكثر حبيوية وقد غدا صوته اشد رجولة من السابق قال لها بلهجة جد عادية : - بما انك جئت اليوم يا اماء فلن اذهب الاحد القادم الى القصر لأنه سيكون لدينا حفلة اخرى . وخففتها الغصص فلم تخرج جواباً . واستطاعت ان تتكلم اخيراً : - آه ! ماذا بك يا بوليه ؟ قل لي . ماذا يحدث لك ؟ .

وانطلق يضحك قائلاً : - ولكن . . ليس ثمة شيء يا اماء . . كل ما في الامر اني اود الترويح عن النفس مع اترابي . اننا في سن اللهو كما ترى . .

ولم تجد ما تقول . وما ان انفردت بنفسها في المركبة حتى دهمتها ففكر سوداوية . لشد ما تغير ابنها حتى انها تكاد لا تعرفه . لقد لاحظت انه كبير كثيراً انه لم يعد لها وحدها . انه لن يتم بعد اليوم بشخص هرمين مثل اهله . لقد خيل اليها انه قد تغير في يوم واحد تغيراً كبيراً . ماذا ؟ هذا هو طفلها ؟ طفلها الصغير الضعيف الذي كان يلعب في الحديقة في الايام الخوالي ؟ . . اهذا هو ؟ هذا الشاب الملتحي ذو الارادة الصارمة ؟

ومرت أشهر ثلاثة لم يات خلالها بول لزيارة اهله الا لماماً . واذا ما جاء فكان يسرع بالعودة متعجلاً كي يكسب ساعة يقضيها في المدينة . وادرك جان خوف مقيم . وكان البارون لا ينفك يهون عليها قائلاً : - دعيه يفعل .. انه في العشرين ! هذا الغلام !

وجاء القصر ذات صباح رجل خلق الثياب يسأل بفرنسية المانية للمكينة عن السيدة الفيكونتس وبعد دفع من التبعيات الرسمية اخرج ورقة من محفظة قدرة بمزقة : - لدي ورقة صغيرة لك .

وقدم لها ورقة قدرة قرأتها واعدت قراءتها ثم نظرت الى اليهودي وسألته : - وماذا تعني هذه ؟

واوضح الرجل القدر : - كان بابنك حاجة الى قليل من المال . ولما كنت اعرفك اما طيبة لم اتردد في افراضه حاجته منه .

وارتجفت وقالت : - ولكن لم لم يطلب ذلك الي انا ؟

وعاد اليهودي يقدم ايضاحاته قائلاً ان الامر يتعلق بدين المقامرة ينبغي ان يسدد قبل ظهر اليوم الثاني ولما لم يكن بول قد بلغ سن الرشد لم يجد من يقرضه المبلغ وانه لولا هذه الخدمة التي اداها له لكان شرفه يتعرض لما لا يسر .

ودعت جان اباهما فما ان دخل حتى ادرك واقع الحال فوراً . وكان السند بالف وخمسة مائة فرانك . فدفع للرجل الفأ من اصلها وقال له : شرط الا تعود بعد هذا ابداً .

فحسب اليهودي وشكر وانصرف .

ومر عان ما سافر الجد والام الى الهافر . وبلغا الكلية فعلما ان بول قد غادرها منذ شهر ولم يعد اليها بعد ذلك وانت الادارة قد تلقت اربع رسائل من جان تعلن فيها ان ابنها مريض . كانت الرسائل الاربع مزورة طبعاً وغم ان كل واحدة كانت تنطوي على شهادة طبية .

وجدا . ومكثا وقد شغفت اعينهما .

وقادهما المدير الى مفتش الشرطة . وقضيا ليلتهما تلك في الفندق .

وفي اليوم التالي عثروا على الشاب مقيماً لدى فتاة من بنات الهوى في المدينة وصحبه جده وامه الى القصر دون ان ينبث احدهم بكلمة انتهاء الطريق . وكانت جان تبكي ووجهها في منديلها . اما بول فكانت عيناه تجولان في الريف بعدم اكتراث .

وعرفوا بعد ثمانية ايام انه قد استدان خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة خمسة عشر الفاً من الفرنكات ولم يكن المرابون قد تقدموا بطلب سداد ديونهم منتظرين بلوغه سن الرشد .

ولم يقدم عن ذلك اي ايصاح . وقد شاؤوا اصلاحه باللين . فكانت اطيب الاطعمة تقدم اليه والكل يحيطه بالتدليل والهدوء واستأجروا له زورقاً في ايبور رغم تخوف جان ليقوم بنزهات في البحر ذلك الربيع .

وكانوا قد عمدوا الى اخفاء الجياد عنه خشية ذهابه الى الهافر . واقام لا يعمل شيئاً . ضجرآ . يوماً سيء الخلق متوحشاً احياناً . وقد اقلق البارون انقطاعه عن دراسته . وكان اخشى ما تخشاه جان فراق جديدها ومع ذلك فقد شغلت تفكيرها بامر مستقبله .

وخرج ذات مساء ولم يعد . وعلموا انه ذهب في نزهة بحرية مع احد النوتية . وكادت امه تجن وخفت عارية الرأس الى ايبور وكان الليل قد ارخى سدوله .

واقامت مع بعض الرجال على الشاطي* بانتظار اوبة الزورق . وظهر في عرض البحر نور ضئيل راح يدنو متأرجحاً . الا ان بول لم يكن في الزورق العائد . لقد ذهب الى الهافر وبقي فيها .

وبحثت عنه الشرطة طويلاً دون طائل . وكذلك كانت الفتاة التي اخفته في المرة الاولى قد اختفت معه دون ان تترك اثرآ يدل عليها . وفي غرفة بول في القصر عثروا على رسالتين من هذه المخلوقة التي بدت مجنونة في حبه . كانت رسالتها

تشهدتان عن فكرة السفر الى انكثرا وقد تدبرت قضية المصاريف الضرورية . كما زعمت .

واقام سكان القصر الثلاثة غارقين في بحران من عذاب معنوي اليم . لقد ابيض شعر جان الذي كان اغبر حتى ذلك الوقت . وكانت تتساءل بسذاجة لماذا يوجه اليها القدر مثل هذه النوازل الفارقة .

ونلت من الاب توبليانك رسالة تقول : -

« سيدتي . ان يد الله قد حطت فوق كاهلك . لقد منعت ولدك عنه فأخذه منك بدوره ليلقي به الى امرأة بها روح نجس . هلاقتك عينيك على هذا الانذار توجيهه اليك السماء ؟ ان لطف الله واحسانه غير متناهين . فقد يغفر لك اذا جثوت امامه . واذا خادمه الحقير افتح لك بيته عند ما تاتين ضارعة تقرعين . »

واقامت طويلاً وهذه الرسالة فوق ركبتيها . لعل ما قاله هذا الكاهن هو الحق الصراح . وشرعت كل شكوكها الماضية تمزق ضميرها شرمزق . ولكن ايكون الله منتقياً غيوراً كاللشر . اذا لم يكن غيوراً فمن يخشاه ومن يعبداه ؟ ولا ريب في انه يظهر للناس ، كما يدر كوه جيداً ، من خلال افكارهم وعواطفهم وداخلها الشك الجبان الذي يدفع بالمؤمن الى الكنيسة ويقض مضجعه ، فانطلقت ذات ليلة حتى بلغت المذبح فسقطت فوق ركبتيها امام الكاهن الهزيل وانطلقت ترجو منه العفو والغفران .

غير انه لم عجبها الغفران الكامل فالله لا يستطيع ان يغفر بنعمته بيتاً يظل سقفه رجلاً كالبارون .

وقال لها مؤكداً : - ستستقرين قريباً بالسلام الذي سيفيض على حياتك بنعمة الله .

وتلقت بعد يومين رسالة من ولدها اعتبرتها بداية السلام الذي وعدها الكاهن به .

« امي العزيزة . لا تقلقي علي فانا في لندن . صحتي جيدة الا انني بحاجة ملحة

الى المال . لسنا نملك درهماً واحداً ولا نجد ما نأكله طوال يومنا . نبيت ليالينا على الطوى . ان المرأة التي ترافقتي والتي احبها بجماع نفسي قد انققت كل ما نملك في سبيل الاحتفاظ بي : خمسة آلاف فرنك . وانت تعرفين اني قد تعهدت لها بشرفي ان اعيد اليها هذا المبلغ قبل كل شيء . . انك تسدين الي يداً مشكورة لو ارسلتي الي حوالي خمسة عشر ألفاً من الفرنكات كسلفة على ميراث ابى اذ انى سأصبح عمماً قريب راشداً . وانك بملك هذا تجدينني مصاعب حمة وتخرجيني من مأزق لانحصى وداعاً يا امي العزيزة . اقبلك بجمرة مع جدي العزيز والحالة ليزون . آمل ان اراك قريباً .

ولذلك : الفيكونت بول لا مار .

لقد كتب اليها اذاً . انه لم يفهما . ولم تفكر ابدأ انه انما كتب ليطلب مالا اجل سترسل اليه لأنه لا يملك شيئاً . ما هي قيمة المال ؟ ! لقد كتب اليها وهذا حسبها !

وحملت هذه الرسالة وخفت الى البارون باكية . ودعيت الحسالة ليزوت . واعادوا قراتها كلمة كلمة . هذه الورقة التي تحدث عنه . وناقشوا كل عبارة من عباراتها .

وانتقلت جان من اليأس المطبق الى الأمل الباهم . وراحت تدافع عن بول : سيعود . لا بد ان يعود . فقد كتب .

وقال البارون بهدوء اكثر : - لا قيمة لهذا . لقد هجرنا من اجل هذه المخلوقة . انه يحبها اذاً اكثر مما يحبنا فهو لم يتردد في تفضيلها علينا .

وعبر روح جان الم مفاجي . هائل . وسرعان ما اشتعلت في نفسها كراهية لهذه الخلية التي سرقت منها ابنتها ، كراهية عنيفة ، وحشية ، كراهية ام غيور ! فحتى تلك اللحظة كانت كل افكارها منصرفة لبول . وقلما فكرت في الداعي الى هجر الى انه الغريب ذاك . ولكن قوله البارون ولدت فيها هذا الحقد السم وادركت ان صراعاً قد نشب بينها وبين هذه المرأة . وادركت ايضاً انها تفضل

فقدان ابنها على مقاسمة هذه المرأة لها في قلبه .

وانهار كل سرورها .

وارسلوا المال المطلوب . ومضت خمسة اشهر لم يصلهم فيها نبأ عنه .

ثم حضر رجل رسمي . لتصفية ميراث جوليان .

وبعد ان تمت التصفية وكان بول قد عاد الى باريس ، استلم نصيبه البالغ

عشرين الفا من الفرنكات . وكتب بعد ذلك اربع رسائل خلال ستة اشهر معلناً

انه يعمل في البورصة وانه يأمل ان يحضر يوماً لعناق اهله في القصر . ولم يذكر

كلمة واحدة عن خليلته . وكان هذا الصمت ابلغ من تحدته عنها ملء اربع صفحات .

وشعرت جان ، من خلال برود اقواله ، بقوة تلك المرأة وسلطانها عليه ..

وتناقش الثلاثة فيما يستطيعون عمله من اجل انقاذ بول غير انهم باءوا بالفشل

ايسافرون الى باريس ؟ ولماذا ؟ وقال البارون : ينبغي ان نتركه يشبع . سقيه

ولا بد من عودته الينا وحيداً .

وغدت حياته مفاجئة . وكانت جان وايزون تذهبان الى الكنيسة خفية

عن البارون .

ومضت مدة طويلة لا يتلقون من بول اي نبأ . وذات صباح بلغتهم هذه

الرسالة البائسة فكادت تسحقهم : « امي المسكينة : اني رجل مضيع ! لم يعد

امامي الا الهاب دماغى برصاصة ان لم تخفي الي نجدي . ان المحاولة التي كانت

مفروضاً ان تجلب الي الحظ والثروة قد آتت الي بخفي حنين وانا الآن مدين باربعة

وعشرين الف فرنك . فان لم اقصر هذا الدين فعنى ذلك الدمار وضياع الشرف

واحباط كل مشروع في المستقبل .

اني رجل مضيع ! اكرر لك . واني مستعد للانتحار فاخلص من هذا العيش

المهين الذي سأحييه . ولعل كنت اقدم على ما اقول لولا تشجيع امرأة فلما اتكلم

عنها وهي لي بمثابة « العناية »

افبلك من اعماق قلبي يا امي العزيزة وقد تكون هذه هي قلبي الاخيرة .
وداعاً ..
« بول »

وكان طي هذه الرسالة اوراق رسمية تفسر الكارثة المالية التي منى بها بول .
واعلن البارون دون مواربة ان لا بد لهم من مجابهة الموقف . وقصد الهافر
فرهن بعض الارض ليحصل على المال الكافي فيرسله الى بول .
وقرؤوا بعد ذلك ثلاث رسائل شكر من الشاب الطائش معلناً فيما عزمه
الاكيد على الحضور لمعاينة اهله الابرار . ولكنه لم يأت .
ومرت سنة كاملة .

وعزمت جان والبارون على السفر الى باريس لمقابلته والقيام بمحاولة اخيرة
لردعه عن غيه الا انها علما انه عاد ثانية الى لندن وقد اسس شركة تجارية تحت اسم
« بول دي لامار وشركاه » وكتب :

« لقد ضمنت الثروة لنفسي هذه المرة . وانا لا اخشى شيئاً . وعند ما سآتي
اليكم سيكون لي المركز الاجتماعي المرموق . ليس سوى العمل يخرج الانسان
من متاعبه في هذه الايام . »

ومضت ثلاثة اشهر فاذا بالشركة تعلن افلاسها وبالسلطات تطارد مديرها
لتلاعبه في القيود التجارية .

واذكرت جان نوبة عصبية حادة دامت ساعات طويلة طرحتها في الفراش اخيراً .
وقصد البارون الهافر واستقصى الاخبار . قابل محامين ورجال اعمال وغيرهم
من يعنين الامر . وقد علم ان الافلاس كان على مبلغ مائتين وثلاثين ألفاً من
الفرنكات . ورهن القصر ومزرعتين على مبلغ طائل .

وذات مساء بينما كان ينهي المعاملة في مكتب رجل من رجال الاعمال سقط
وتدحرج فوق الارض وقد دهمته السكتة القلبية .

وانفذوا فارساً يعلم جان ولما وصلت كان البارون قد لفظ آخر انفاسه
ونقلت الجثة الى القصر . وكان جان ، لغداحة الخطب ، قد تحجرت فيها

عواطفها فلم تظهر بأساً بقدر ما بدت في استغراق مؤلم .
ورفض توليهاك ادخال الجنان الى الكنيسة بالرغم من رجاء المرأتين الحار
واسترحامها الباكي . ودفن البارون لدى هبوط الليل دون اي احتفال .
وعلم بول بالفاجعة من قبل احد الرجال المهتمين بتصفية طابق افلاسه . وكان
ما يزال متخفياً في انكسار . وكذب يعتذر عن عدم مجيئه بتأخر معرفته بالنزلة .
ووعده بالعودة الى فرنسا والحضور لرؤيتها بعد ان انقذته من ورطته .
وعاشت جان في عدم ادراك فظيع بدت معه كأنها غائبة عن هذا العالم .
وحوالي اواخر الشتاء اصبحت الحالة ليزون بزبحه صدرية حادة وكانت قد
بلغت الثامنة والستين .

وانقلبت الذبحة الى الثياب رئوي . ولفظت انفاسها وهي تردد : - سأطلب الى
الله ، يا جان المسكين ، ان يشفق عليك »

تبعها جان الى القبر . ورأت التراب ينهال على نعشها ، وكمنمت لو ادركها
الموت هي الاخرى فلا تعود تحس ولا تتألم . وانهارت فوق القبر لا تستطيع حراكاً
ودنت منها فلاحه قوية وتناولتها من ذراعها ثم حملتها كما تحمل طفلاً صغيراً .
ولدى نقلها الى القصر تركت هذه الفلاحه المجهولة تضعها في سريرها . وكانت
البيالي الجنس التي قضتها تحت قدمي العانس الفقيدة قد انهكتها ايما انهاك . وامت
الفلاحه على خدمتها بالكثير من الرقة والتسلط .

واستفاقت جان وقد مضى من الليل هزيعه الاول . فرأت على نور الصباح
الليلي الضئيل المثبت فوق المدفأة امرأة تغط فوق مقعد . من هي هذه المرأة ؟ انها
لا تعرفها وراحت تبحث في اعماق ذاكرتها وقد انحفت فوق فراشها . وتفرست
فهما جيداً على نور القليل المضطرب فوق الزيت في اناء زجاجي .

وخيل اليها مع ذلك انها رأت هذا الوجه قبل الآن . ولكن اين ؟ وكيف ؟
كانت المرأة تغط بدعة . ان لها من العمر اربعين او خمساً واربعين . وهي قوية
البنية ماردة الحدين .

وامتدحرت جان تنظر اليها تلك النظرة الصائغة التي تعقب الاستفاقة من النوم
المحموم الذي يلي الآلام المبرحة والتعاسة الفصوى .
لاريب في انها قد رأت هذا الوجه . اهل ذلك في الماضي ؟ أم تراها رآته
حديثاً ؟ ونهضت ودنت من النائمة لتتحقق منها عن كسب . انها المرأة التي حملتها من
المقبرة ورقدت هنا . ولماذا هي في غرفتها الآن ؟
وفتحت المرأة عينيها ونظرت الى جان وهبت فجأة . وتمتمت المرأة المجهولة :
« كيف ! ها أنت واقفة ! سيصيبك سوء في هذه الساعة ! تريدان ان تعودى الى
سريرك ! »

وسألت جان : - من أنت ؟
غير ان المرأة فتحت ذراعيها واحتوتها بها واعادتها الى سريرها بقوة كفوة
الرجال . وبعد ان مددتها في فراشها بجوار الحنث فوقها واندفعت تقبلها باكية فوق
خديها وشعرها وعينيها باندفاع وحرارة متممة : - ياسيدي المسكينة ، ياآنسة جان
ياسيدي المسكينة . انك لم تعرفيني اذآ ؟
وهتفت جان : روزالي ! يابنيتي !

والقت بذراعيها حول عنقها وجذبتها اليها واندفعت تطبع على وجهها قبلها .
وامتزجت دموعها . وهدأت روزالي اولاً : -
هيا كوني عاقلة . حذار من البرد .

وسألها جان : - كيف عدت يابنيتي المسكينة ؟
فاجابت روزالي : - بالله ! او استطيع تركك هكذا وحيدة كئيبة .
وقالت جان : - اسملي شمة اذآ لاراك بوضوح .

وما ان غمر النور الغرفة حتى راحت تتأمل احداهما الاخرى مدة طويلة
لاتنبثان . واخيراً مدت جان يدها لحادتها القديمة وتمتمت : - لم اكن لاعرفك ابدآ
يابنيتي . كم تغيرت ! انعرفين هذا ؟ ولكن ليس بمقدار ما تغيرت انا .
وتأملت جان هذه المرأة البيضاء الشعر الهذيلة الذابلة والتي كانت قد غادرها

جميلة غضة شابة . واجابت :- صحيح . لشد ماتغيرت ياسيدة جان . اكثر مما
يجب . ولكن فكري ان اربعاً وعشرين سنة قد مرت على فراقنا .
وصمتنا واستغرقنا في التفكير مجدداً . وسألها جان :- وهل كنت سعيدة
على الاقل ؟

وترددت روزالي خشية ان تبعث بعض الذكريات الراقدة المؤلمة :- ولكن
اجل . . . اجل . . . ياسيديتي . ليس لي الحق في الشكوى . لقد كنت اسعد
منك . ولا ريب . . . ولم يكن لي ماأسف عليه سوى شي واحد . . . اني لم أبق هنا .
ثم لزمت الصمت فجأة .

وعادت جان تقول بلطف :- ماذا تريدن يا بنيتي ! لا يبلغ المرء دائماً
مشتهاه . انك أرملة انت الاخرى . اليس كذلك ؟
وحشرج صوتها بغضة وتابعت :-
- لك اولاد آخرون . . . غيره ؟
- كلا ياسيديتي !

- وهو ؟ . . . ولدك ؟ ماذا غدا ؟ أهو سعيد ؟
- أجل ياسيديتي . انه ولد طيب يعمل دون ملل . لقد تزوج منذ ستة أشهر
خلت وقد اعطيته الحقل لأني عدت اليك .
واضطربت جان بالتأثر وقالت :- اذاً فلن نتركبني ابداً يا بنيتي ؟
واجابت بلهجة قوية :- لك ان تثقي بي ياسيديتي وقد ربت كل شي في سبيل
هذه الغاية .

وهادتا الى صمتها بعض الوقت .
شرعت جان بالرغم عنها تقارن بين وجوديهما ، ولكن دون مرارة في القلب
وقد خضعت لهسوة القدر العشوم . وقالت :- وزوجك ؟ كيف كان معك ؟
- آه انه رجل شهم ياسيديتي . ولم يكن خاملاً وقد استطاع ان يجمع شيئاً .
وقد قضى بركة الصدر .

وجلس جان في سريرها وقد اجتاحتها حب الاستطلاع : - هيا . حدثيني بكل شيء يابنيتي . بكل حياتك ان هذا لما يجلب لي السرور .

ودنت روزالي بكرسيها منها وراحت تحدثها بتفاصيل حياتها الماضية وانتهت قائلة ان كل ما لقيت من خير وهناء يرجع الى سيدتها وانما ستخدمها حتى آخر نسمة من حياتها دون أي اجر .

وعادت جان تقول : - انك فتون خدمتي اذا دون أي اجر ؟
- آه . بكل تأكيد ياسيدي . مال ؟ ستعطيني مالا ؟ ولكني املك منه اكثر مما تملكين دون ريب .

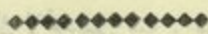
أعلمين ان كل ما تبقى لك من المال لا يتجاوز عشرة آلاف من الليرات ؟
غير اني سأنظم لك كل شيء . وبدأت تتكلم بصوت قوي متحمسة ، متأثرة لاهمال هذه الثروة ، لهذا الدمار الدائم . ولما طافت بوجه سيدتها ابتسامة شاحبة ثارت ثأرتها : - لا ينبغي لك ان تضعكي من هذا ياسيدي لأنه لا يضيع ماله هكذا سوى كل اخرق معنوه .

وتناولت جان يديها واحتفظت بهما في راحتيها . ثم قالت بهدوء مسيرة بالفكرة المسيطرة عليها : -

- آه . لم اكن مجدودة . كل شيء كان يسير بما لا اشتهي . لقد عاندتني الافكار وتحالفت علي اذلالني .

واستمرتا تتحدثان هكذا كأنهما صديقتان قديمتان .

وبزغت الشمس وهما مائز الان غارفتين في ذكرياتهما المبررة .



الفصل الخامس

لم تمض ثمانية ايام حتى كانت روزالي قد تسلمت دفة ادارة القصر بكل ما فيه وقد استسلمت اليها جان دون أدنى مقاومة . كانت ضعيفة منهوكة القوى تجر قدميها جرأ كما كانت تفعل امها في ماضيات الايام . واذا ما خرجت فتموكتة على ذراع وصفتها التي كانت تعني بها عنايتها بطفل مريض .

وكانت حديثها يدور دائماً حول الماضي . وكثيراً ما كانت الخادم العجوز تعود الى حديث الاقتصاديات بتألم وكانت تصر على ضرورة تسليمها الاوراق التي كانت جارت تحفيها خجلاً بابنها ، هي الجاهلة بالامور الادارية . وعندئذ بدأت روزالي تقوم بزيارات اسبوعية الى (فيكومب) لتستوضح بعض المعميات لدى كاتب عدل تعرفه .

وذات مساء ، بعد ان ارقدت سيدتها ، قالت فجأة :- الآن . وقد رفدت ياسيديتي سنتحدث قليلاً : وعرضت حقيقة وضعها المالي . فاذا تم دفع كل شيء فسبقي لهم سبعة او ثمانية آلاف فرنك دخلاً ثابتاً . لاشي . اكثر .

واجابت جان :- وماذا تريدن يا بيبتي ؟ اني اشعر شعوراً عميقاً بانني لست اهرم كثيراً وما تبقى يكفيني .

وغضبت جان :- لك انت ياسيديتي هذا معقول ؟

واما السيد بول ! ان تتركه له شيئاً ؟

وانتفضت جان :- ارجوك لاتحدثيني عنه . فكلمها فكرت فيه اعترفتي نوبة حزنت قائلة .

- اريد ، بالعكس ، ان احدثك عنه كثيراً ، انك لاتتخلين بالشجاعة ياسيدة

جان . لقد ارتكب حماقات . حسناً . انه لن يعود اليها دائماً . ومن ثم فسي تزوج
وسينجب اولاداً . وسيحتاج مالا لتربيتهم . اصغي الي جيداً . ستبيعين القصر ! ..
وجلست جان في سريرها بقفزة : - ابيع القصر ! او تنكرين بهذا ؟ آه !
مثلاً ! هذا لن يحدث ابداً ! غير ان روزالي لم تضطرب : - اقول لك انك ستبيعينه
ياسيدي . لأن هذا ضروري وواجب .

وشرحت لها الموقف بالارقم ووضحت مشروعاتها والدوافع اليه . واعلنت
لها انها هي التي ستأخذ بتقاليد الامور واذا طلب السيد بول شيئاً فلن يحصل على
دائقي واحد والا فسيجرحها من آخر فلس .

ونمت جان وهي تبكي بصمت : - ولكن .. اذا لم يكن له ما يبلغ به ؟
- سيعود ليأكل عندنا عندما يعرضه الجوع . وسيجد دائماً سريريه ومائدته .
او تعتقدين انه كان يقدم على ارتكاب كل حماقاته لو لم ترسل اليه المال اللازم عندما
طلبه للمرة الاولى ؟

- ولكنه كان مديناً وقد هدد بالتشهير .
- وعندما لا يعود لك شي . يمنع هذا من الاستدانة ؟ لقد دفعت . هذا حسن
غير انك لن تدفعي في المستقبل ابداً . أنا اقول لك ذلك . والآن عمي مساءً ياسيدي .
وانصرفت .

ولم يغمض جان جفن تلك الليلة فقد ارقنتها فكرة بيع القصر والانصراف
عنه .. عن هذا البيت الوثيق الارتباط بكل حياتها .
وما ان لحث روزالي تدخل غرفتها في صباح الغد حتى بادرتها : - لن استطيع
ابداً ان ابتعد عن هذا البيت يا بني المسكين .

وغضبت الوصيفة وقالت : - ولكن منطلق الاشياء يستدعي ذلك ياسيدي .
وسيجبر كاتب العدل مصحوباً بالراغب الشراء . وبدون ذلك فلن يبقى لك خلال
أربع سنوات قرش واحد .

وبعد ساعة تلقت رسالة من بول يطلب فيها عشرة آلاف فرنك . ماذا تفعل ؟ ..

واستشارت روزالي وقد أوشكت ان تفقد صوابها فرفعت هذه ذراعها : - ماذا قلت لك ؟ آه ! لو لم اكن هنا لغدونما انتما الاثنين خاويي الوفاض قريباً !
وانحنت جان امام ارادة خادمتها وكتبت الى بول : « يا ولدي العزيز . لم اعد
استطيع شيئاً في سبيلك . واني لاجد نفسي مضطرة لبيع القصر . ولكن لا تنسى
ابداً انه سيكون لدي دائماً سقفاً يظلك عندما تحب ان تلبأ الى امك العجوز التي
جرعتها الغصص أشكلاً » . « جان »

وحضر السكاتب العدل وتمت الصفقة وبعد شهر واحد وقعت اوراق البيع
واشتريت في نفس الوقت بيتاً صغيراً يطل على الطريق العامة المفضية الى (مونتفيليه) .
وامضت المساء الاخير سائرة في ممشى البارونة وقلتها مفعم بالغصص . وكأنها
تودع بانظارها الاشجار والمقاعد والتمائل وكل شيء يذكرها بأملها الذائبة وآلامها
المبرحة في ماضيها الخالي ..

وجاءت روزالي فقادت من ذراعها واضطرتها الى الدخول .
وكان فلاح طويل القامة في الخامسة والعشرين ينتظر بالباب فحيها بلهجة غير
متكلفة وقال . - جئت لآلقي نظرة على الاشياء التي تودون نقلها فانا لن استطيع
التفرغ الى هذا العمل مرة واحدة ولا بد من القيام به على دفعت .
انه ابن خادمتها . ابن جوليان زوجها . اخو بول ابنها .
وشعرت كأن قلبها يقف عن النبض ومع ذلك ودت لو تعانق هذا الشاب .
وتعمنت فيه محاولة ان تكتشف شيئاً بينه وبين جوليان . وادركت انه
بمجموع ملاحظه يذكر بابيه وان كانت تقاطيعها مختلفة .

ولشد ما شغلها انتقالها في الايام التالية فحمل الى حياتها الرتيبة الكثيرة نوعاً
من الترويع الحزين . فكانت تطوف في غرف القصر واحدة واحدة تجمع ما فيها
من الاشياء الصغيرة القديمة التي تحمل الكثير من الذكريات .

وحضر الفلاح الشاب ، دنيس ليكوك بن جوليان ، ذات صباح مصحوباً
بعمرته ليقوم بالنقلة الاولى . ورافقه روزالي اهتم بوضع الاثاث وترتيب المسكن

الجديد . وعادت روزالي شديدة الاغتراب بالانزول الصغير معلنة انه اشد بهجة من هذا البناء الهرم المقبض .

وبكت جان طوال السهرة .

وجاء اليوم الاخير وكانت جان قد قضت ليلتها في غرفة جوليان القديمة لان غرفتها كانت قد عريت من اثائها . ونهضت من فراشها لاهثة كأنها قامت بعدو شديد . وكانت المركبة بالانتظار لتقل السيدة والخدمة . واقام الاب سيمون ولوديفين حتى قدوم المالك الجديد . ثم انسجبا ليعيشا لدى بعض انسبائها وقد امتنعت عنها جان وخصصت لها دخلاً صغيراً يستعينان به على تضريم ماتبقى من حياتها بعد ان بلغا ارذل العمر واصبحا خادمين لافائدة منهما . اما ماريوس فكان قد غادر القصر منذ زمن غير قصير مصطحباً زوجته معه .

وبدأ المطر يتساقط حوالي الساعة الثامنة . مطر دقيق مثلج بحمله ريع البحر الخفيف . وكان عليهم ان يغطوا العربات كي لا يبتل الامتعة وكانت الاوراق تتطاير من الاشجار . . انه الخريف . . وما ابتعدت بهما المركبة حتى احست جان بمثل الاغماء يدهمها . ثم انتفضت وقالت : - اتذكرين يا بنيتي كم امطرت يوم غادرتا روان لنأتي الى القصر . .

وعاودها الاغماء فضغطت صدرها براحتيها ثم استلقت على ظهرها وفقدت الحس . وهضت ساعة وهي لاحراك بها كأنها قد قضت . واخيراً فتحت عينيها الغارقتين بالدوغم .

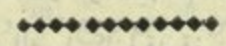
وعندما هدا روعها قليلاً ادركت انها من الضعف بحيث ان تستطيع حراكاً . ولدى مرورهما في طرف القرية بصرا بشخص يسير ذاهباً غادياً فوق الطريق . انه الاب توليبياك وكأنه يقرب هذا الزوج . ومرت به العربية فغضت جان من باصرتها كي لا تراها الا ان روزالي التي تعرف عنه كل شيء اهابت بابنها ان اضربه بسوطك وانت تعبر به . غير ان الشاب ما ان حاذى الكاهن حتى عبر بعربته

المندفعة بأقصى سرعتها في منخفض موحل فاثارت رشاشاً كثيفاً من الطين غطى
السكان من رأسه الى اخصيه .

واستدارت روزالي وقد استخفها الطرب ملوحة له بقبضتها بينما كان ينظف
نفسه بتنديله العريض وهتفت جان بعد خمس دقائق :- الكلب « ماساكر »
لقد نسيناه .

وكان عليهم ان يتوقفوا وهبط دنيس وعدا ليجلب الكلب بينما امسكت
روزالي بالاعنة .

وعاد الشاب اخيراً يحمل بين ذراعيه الحيوان الضخم المشلول فالتفاه بين
أقدام المراتين .



الفصل السابع

وتوقفت العربية بعد ساعتين امام بيت من القرميد يقوم وسط حديقة بسقت فيها اشجار الاجاص كأنها المغازل المائلة على اطراف الطريق .

واذا جال البصر حوله ابصر سهول منطقة (كو) وقد بشت فيها المزارع بين صفوف طويلة من الاشجار الباسقات المثمرة .

وشاءت جان فور وصولها ان تعتكف لتستريح الا ان زوزالي لم تسمح لها خشية ان تعود الى احلامها الحزينة .

وجاء التجارون لاصلاح ما يحتاج الى اصلاح من الاثاث .
وعند ما هبط المساء كان البيت في فوضى عظيمة فالرياش ملقاة هنا وهناك دون اي نظام ولم تلبث جان ان استسلمت للسبات ما ان اضطجعت في سريرها نتيجة لما اقيت يومها من عناء .

ولم تجد لديها وقتاً ، في الايام التالية ، لتستسلم الى احزانها ، لشدة ما كانت منشغلة باعمال الترتيب .

وشعرت بشيء من السرور في تجميل بيتها الجديد وتنسيقه . وكانت املمها بحضور ابنها اليه لا يفارقها .

وعنت عناية خاصة بترتيب احدى الغرفتين في الطابق الاول وقد اطلقت عليها بينها وبين نفسها اسم « شقة بول » .

وقد بدا المنزل الصغير لطيفاً بعد ان امتدت اليه يد التنسيق والترتيب وقد رضيت عنه جان في الايام الاول .

وثقلت ذات صباح مبلغ ثلاثة آلاف وستماية فرنكاً لقاء الاثاث المتروك في القصر وقد ابتاعه احد التجار . وسرت سروراً عظيماً بهذا المبلغ وسرعان ما ارتدت قبعتها ومشأت ان تذهب الى غودرفيل بأسرع ما يمكن كيما ترسل المبلغ الى بول . غير انها صادفت روزالي عائدة من السوق في الطريق العام . وشكت الخادم في امرها . ولما اكتشفت الحقيقة ، اذ ان جان لا تعرف كيف تخفي عنها امراً ، لقت بسلتها جانباً واندفعت في غضبة شعواء .

واخيراً تناولت ذراع جان بيدها اليمين وحملت سلتها باليسرى وعادت بها الى البيت والغضب يجيش في صدرها . وما ان ضمها البيت حتى اجبرت الخادم سيدتها على تسليمها كل المبلغ بعد ان حاولت اخفاء ستائمه فرنكاً الا ان حيلتها لم تنجح .

واقنعت روزالي بعد بضعة ايام بضرورة ارسال شيء الى الشاب . وكتب يشكر بعد ايام .

ولم تعتد جان على (بانفيل) وقد خيل اليها دون انقطاع انها لا تتنفس بالسهولة التي كانت تفعل بها هناك في (بول) والشيء الذي كان يضيقها فقد اكثرت بما عداه هو البحر ، هذا الجار الجبار الذي اقامت في جبروته خمساً وعشرين سنة البحر برائحته الملهمة ، وغضبه الجياش ، واصواته المريعة ، وانفاسه الجبارة .. البحر الذي كانت تشاهده كل صباح من نافذتها في القصر .. الذي كانت تنفسه ليلاً ونهاراً .. الذي كانت تحسه دانياً منها .. البحر الذي كانت تحبه كما تحب شخصاً جياً لا لبس فيه ولا ريب .

ونقدم الشتاء واحست جان بأسماً لا يقهر يغزو قلبها .. ولم تكن آلامها من النوع الحاد الذي يمزق النفس انما كانت كآبة عميقة وتعاسة بعيدة القرار . لم يكن لديها اي ترويح او تسلية . لا احد يأبه بها . والطريق العريضة تمتد امام بيتها يميناً ويساراً خالية معظم الوقت ..

كانت جان تحلم كل ليلة انها ما تزال تسكن القصر . وانها فيه كما في الماضي مع ابها وامها وحتى احياناً مع الحالة ليزون .

وهي تقوم باشياء منسوبة ماضية فتتصور انها تسند امها في زهااتها عبر ساشي البستان . . وما ان تستيقظ حتي تنخرط في بكاء مرير .

كانت تفكر دون انقطاع ببول وتتساءل : - ماذا يعمل ؟ كيف هو الآن او يفكر في احياناً ؟

كانت تنتزه في الحقول بينما تدور هذه الفكر في رأسها فتسبب لها آلاماً مبرحة الا ان ما كان يؤلمها فوق كل شيء هي تلك الغيرة التي تحسها من هذه المرأة التي سرقت منها وحيدها . ان هذا المقت هو الذي امسك بها فلا تذهب اليه لتأتي به اليها . فهي تتخيل عشيقته واقفة على الباب تسألها بجفاء : - ما ذا تبغين يا سيده ؟

فكانت كبرياؤها كأم تثور امام هذا التخيل . . . فهي لا ترتضي لكرامتها ان تداس هي المرأة التي عاشت شبابها انقى من ندى الصباح . . تحمل دائماً احتقاراً عميقاً لدناءة الرجال الذين يجتذبهم الحب القذر فيتردون في اسفل الدركات . . . ان البشرية تبدو في عينيها قذرة شديدة القذارة عند ما تفكر بسلطات الحواس هذا . . بتلك الملابس التي توقف في النفس والجسم احط الغرائز الحيوانية فينصاع اليها الرجال انصياعاً مجرداً من الكرامة والاباء والترفع !

ومضى الربيع وانقضى الصيف .

ودهم الحريف الكون بامطاره المتواصلة وسمائه الدكناء وغيومه العريضة الغائمة . . واحست الحياة تسترخي في جسمها المزهوك . . فعزمت على محاولة يائسة لاسترجاع وحيدها وضحه تحت جناحيها ، وبما لا ريب فيه ان وجد الشاب بخيلته قد خبت جذوته وبرد سعيه .

ووجهت اليه رسالة رجاء واستوحام .

« ولدي الحبيب . جئت ارجوك ان تعود الى . فكر اني هرمة مريضة .

وحيدة طوال السنة مع خادمي . وانا احسن بيتا صغيراً مطلقاً على الطريق . ان حياتي كثيفة كما تستطيع ان تتصور . فاذا جئت تغير كل شيء . بنظري . ليس لي سواك في هذا العالم وانا لم ارك منذ سنوات سبع ! انك لا تستطيع ان تدرك كم كنت تعبسة وكم سيربع قلبي نو كؤي عليك . كنت لي بمثابة الحياة والامل . انك حيي الوحيد . . . ولم يمنعك كل ذلك من هجراني . .

آه . عد الى يا بوليه الصغير . عد وعانقني . عد الى قرب امك العجوز التي تمد اليك ذراعها ببأس قاتل ! « جان »

واجابها بعد ايام قلائل : « امي العزيزة . ليس احب الي من القدوم اليك لعناقك . الا اني لا املك شروى نقيير . ارسلني الى بعض المال وسأتيتك . وفضلاً عن ذلك اني اود المجيء اليك لحدثك عن مشروع يتيح لي ان احصل كل ماترغبين به . ان حب وتعلق المرأة التي صحبتني في ابامي السود الماضية مازال يحيطني ويضفي على حياتي معاني السعادة والجدة .

وليس بمقدوري ان تغاضى طويلاً عن اقامة علاقة رسمية بيني وبين المرأة التي اخلصت الي في اسوء الاوقات والتي ثلك فضلاً عن ذلك كل الصفات الممتازة التي مستخبرينها بنفسك . انها ذات ثقافة عالية . وهي دائمة المطالعة . واخيراً ليس بمقدورك ادراك الدور الذي لعبته في حياتي . وانه لمن الظلم بل الوحشية الا اكافئها على احسانها الي . اني اطلب اليك السماح لنا بالزواج . وستغفرين لي طيشي الماضي وسنأتي لنسكن سوياً في بيتك الجديد .

واني لو ائق من انك ستوافقين على مشروعنا بمجرد معرفتك لهذه الفتاة . اؤكد لك انها كاملة الصفات . عالية التهذيب . وستجيبينها دون ريب . اما اننا فلنيس بمقدوري العيش بعيداً عنها ساعة واحدة .

انتظر جوابك بفراغ صبر . ونحن نقبلك يا امي العزيزة من اعماق قلوبنا .
ولذلك

« الفيكوفت بول دي لامار »

وذعرت جان . فاقامت لاجراك بها ، والرسالة فوق ركبته ، وقد حدثت تلك الحيلة التي اتبعتها الفتاة للاحتفاظ بولدها الى ما لانهاية له . فهي لم تنوكه يأتي مرة واحدة لرؤية امه منتظرة ساعة معينة . الساعة التي لا تعود تقوي فيها هي المرأة الشيخة على احتمال فراق وحيدها فتوافق في ضعفها على كل شيء .

ان تفضيل هذه المرأة عليها هي امه قد مزق قلبها بألم هائل لا يطاق ورددت : انه لا يحبني انه لا يحبني !

ودخلت روزالي فتمتت جان : - انه ينبغي الزواج منها الآن . وانتفضت الخادم : آه ! يا سيدي . انك لا تسمحين بذلك طبعاً . ان السيد بول لن يلتقط هذه القاذورة

واجابت جان محطمة ولكنها ثائرة : - ابدأ . ابدأ يا بني . وبما انه لا يريد المجيء فسأذهب بنفسني للعودة به وسرى من منا نحن الاثنتين تكون لها الغلبة اخيراً . وكتبت لبول راساً انها آتية لتراه ولكن في مكان غير البيت الذي تسكنه تلك البغي .

وبانتظار جوابه اخذت تعد امتعتها .

وقالت روزالي : - ولكن ليس لديك ما ترتدين . وانا ان اسمح لك بالسفر هكذا . انه لأمر مخجل وستنظر اليك سيدات باريس نظراً الى خادمة .

وتركتها جان تفعل ما تشاء . وذهبت المراتان الى (كودرفيل) فاختارتا فاشاً ذا مربعات خضراء سلمته الى خياطة القرية . ثم مررتا بالكاتب العدل السيد (روسيل) الذي يقوم كل سنة برحلة الى العاصمة تستغرق اسبوعين . وطلبتا اليه التعليمات اللازمة ذلك ان جان منذ ثمانية وعشرين عاماً لم تر العاصمة .

واعطاهما كل ما تحتاجانه من تعليمات . وقد اشار عليها بنزول فندق ينزل به هو وباستطاعتها ان تعلم انها قادمة من قبل الكاتب بالعدل .

منذ ست سنوات وهذا القطار الذي يتحدثون عنه في كل مكان يسير بين

باريس والمافر : الا ان جان الغارقة في آلامها لم تكن قد رأت تلك المركبات البخارية التي احدثت ثورة في طول البلاد وعرضها . ولم يكن بول قد اجابها .

وانظرت ثمانية ايام . ثم اسبوعين . فكانت كل يوم تسير على الطريق بلاقاة الموزع موجهة اليه سؤالا الخالد : - اليس لديك شيء لي ايها الاب (مالاندان) فكان جوابه دائماً : - لا شيء يا سيدتي الطيبه .

انها تلك المرأة ولا ريب التي تمنع بول عن الاجابة .

وعزمت جان على السفر فوراً . وشأت اصطحاب روزالي معها . الا ان الخادم رفضت اجابتها الى طلبها كيلا تضاعف تكاليف السفر . وذات صباح من كانون الاول صعدتا في عربة دنيس ليكوك فقاوماهما الى المحطة .

واستدارتا برأسيهما لدى سماعهما صفيراً حاداً آنياً من بعيد . ولحقنا آلة سوداء آخذة بالتضخم . ووصلت بضجيج هائل ومرت امامها تجر وراءها سلسلة من البيوت الصغيرة المتحركة وفتح موظف باباً وعانقت جان روزالي باكية وصعدت الى المركبة .

وصرخت روزالي متأثرة : - الى اللقاء يا سيدتي . سفرأ سعيداً . الى الى اللقاء الفريب .

- الى اللقاء يا بنتي .

وبصفرة ثانية عادت سلسلة العربات الى الحركة ببطء . اول الامر ثم اسرع فاسرع .. واخيراً بسرعة هائلة خاطفة .

واستمرت في جلوسها وعيناها عالقتان في الريف والاشجار والحقول والقرى وقد اخافتها هذه السرعة واحست انها اندفعت في مضار حياة جديدة ، محمولة الى عالم جديد لا يمت الى عالمها بنسب .. عالم شبابها الهاديء وحياتها الرتيبة .

وبلغ القطار باريس مع هبوط الليل .
وسارت الى الفندق نوا . وسألت مملوقة : - اني قادمة من قبل السيد روسيل .
وسألتها صاحبة الفندق وهي امرأة ضخمة جدبة السمات جالسة الى مكتبها : -
من هو السيد روسيل ؟

ودهمت جان واجابت : انه كاتب العدل في كود ريفيل وهو ينزل فندقكم
كل سنة .

واعلنت المرأة الضخمة : - ممكن . انا لا اعرفه . او تريدن غرفة ؟
- اجل يا سيدتي .

وحمل خادم متاعها وصعد الدرج امامها .
وادركتها غصة . وجلست الى مائدة صغيرة وطلبت شيئاً من الحساء الساخن
فلم تكن حتى تلك الساعة قد طعمت شيئاً .

واكلت بكآبة على نور شمعة مفككة بالف شيء . تذكرت مرورها بهذه
المدينة لذي عودتها من شهر العسل واول اشارة فتحت عينيها على طباع جوليان . الا
انها كانت شابة واثقة به مستسلمة اليه . وهي الآن نحس الهرم يتمشي في كيانها .
انها مرتبكته ، وقد تكون خائفة ، ضعيفة حتى ان اقل شيء يعكر صفوها . وما
فرغت من طعامها حتى جلست الى نافذتها وراحت تنظر الى الشارع الغاص بالناس
كانت نحس ميلاً الى الخروج دون ان تجرؤ على ذلك . انها ستضل الطريق دون
شك . واضطجعت واطفأت النور .

ولم تنم ليلتها الا غراراً . وما تنفس الفجر حتى ارتدت ثيابها .
انه يسكن شارع (سوفاج) في (السيتي) وشاءت الذهاب ماشية انصاعاً
منها لتعليمات روزالي الاقتصادية كان الجو جميلاً والهواء البارد يحز الجلد . وسارت
باسرع ما تطيق . وانعلقت يميناً ثم شمالاً وبلغت ساحة وكان عليها ان تستفسر
من جديد . وسألت خبازاً فاعطاها معلومات مختلفة . وعادت تنطلق . وضلت

السبيل ، وطوفت في الشوارع طويلاً . . . وذهرت فهي الآن تسير دون وجه
معيبة . وعزمت على دعوة عربية عند ما لحقت السيخ فسارت على محازاته .
ودخلت شارع (سوفاج) بعد ساعة من تطواف حثيث . وتوقفت امام الباب
شديدة التأثر عاجزة عن الاتيان بحركة واحدة .

انه هنا . في هذا البيت . بوليه !

واحست ركبتيها ويدبها ترتجف . وأخيراً ولجت . وسارت في ممشى .
ورأت غرفة البواب وسأت وهي تقدم قطعة نفود له : - تستطيع ان تصعد فتقول
لبول لآمار ان سيدة عجوراً ، صديقة لآمه ، تنتظره في الاسفل .

واجاب البواب : - انه لا يسكن هنا يا سيدتي .

ونمت فيها راحة عفيفة . وتمتمت : - آه ! اين . . . يسكن الآن ؟

لست ادري .

واحست بنفسها زائفة المبتدئين توشك على السقوط وظلت وقتاً ما عاجزة عن
الكلام . واخيراً ، وبجهد عفيف ، استعادت ادراكها وغفمت : - منذ متى ذهب ؟
واستفاض الرجل في شرحه : - منذ اسبوعين . لقد ذهبنا بغتة ذات مساء ولم
يعودا . انهما مدينان في كل مكان بهذا الحى . وتذكر كين من هذا انهما لم يتركا
عنسونهما .

ورأت جان كأن شرارات من نار تلتصع امام عينها كما لو كانت طلقات من
نار قد دوت في اتجاهها الا ان فكرة ثابتة امسكتها . فهي تريد ان تعرف كيف
نجد بول .

- اذاً انهما لم يقولوا شيئاً عند ما ذهبوا !

- آه . لا شيء . مطلقاً لقد فرأ فراراً كيلا يدفعوا ما عليها من ديون

ولكن الا يرسلان احداً لياخذ رسائلها ؟

- كنت اغلب الاحيان اسلمها لهما . ومن ثم فهم لا يستلمان اكثر من عشر
رسائل في السنة - وقد اعطينتها واحدة قبل ذهابها بيومين .

انما رسالتها ولا شك . وقالت بغتة : - اصنع الي . انا امه . وقد حثت لاجت
عنه . هذه عشر فريزكات لك . اذا كان لديك خبر او معلومات عنها اجملها الي الى
فندق نورمندي بشارع المافر وسأ كافئك بمبلغ رجيح .
واجاب : - اعتمدي علي يا سيدتي .

وانطلقت . وسارت دون ان تعنى بالوجهة التي اليها تسير وكانت تسرع
كانها في سباق هام . كانت تسير على محاذاة الجدران فتصدم السابلة وتعبو بالشوارع
دون ان تأبه بالعربات فيشتتها الخوذيون وكانت تتعثر بدرجات الارصفة دون ان
تنقبه اليها .

انها تعدو الى الامام مضغضة الحواس .
ووجدت نفسها بغتة في احدي الحداثق . وكان التعب قد هدد ركنها
فاقتعدت مقعداً وجدته امامها . واستمرت في جلوسها وقتاً لا تدري اطال بها ام
فصر . كانت تبكي بدون دموع . وشعرت اخيراً ان برداً ينفذ الى عظامها فنهضت
لتمضي لطيتها . وكانت ساقاها لا تكاد ان تحملاها لشدة ما كانت مسجوعة محطمة
النفس والجسد .

واحسست جوعاً نفاراً فشأت دخول احد المطاعم لتسبب شيئاً من حساء .
غير انها لم تدخل . واخيراً وقد عانقتها الجوع بانبابه الحداد لم تجد مناصاً عن دخول
احد المخابز وشراء رغيف هلاكي الشكل راحت تقضه وهي تسير . واحسست
عطشاً محرقاً . ولم تدر من اين تستقي فصرفت النظر عن ذلك .
وبلغت حديقة ثانية . وكان السير والشمس قد بعثا في جسمها دفئاً . فجلست
ساعة او ساعتين

ورأت جمعاً من المتأنقين بين رجال ونساء يدخل الحديقة . وخيل اليها ان
ولدها لا بد داخل بين هؤلاء الناس . وعيناً تفرست في الوجوه . ونهضت اخيراً
لتمضي فكانت لا تجرؤ على طلب اقاصح الطريق لها فتصطدم بالسابلة . وانتهى بها
الامر فعثرت على فندقها .

وامضت ما تبقى من يومها فوق كرسي تحت اقدام سريرها . وتعثت كشأنها بالامس ونامت اخيراً . وكانت تقوم بهذه الاعمال آلياً وبقوة العادة والاستمرار . وفي صباح اليوم التالي قصدت مديرية الشرطة فطلبت اليهم ان يبحثوا لها عن ولدها . وعيناً فعلوا .

واستمرت بعد ذلك تطوف في الشوارع يحدوها دائماً الامل بالالتقاء به على غير ميعاد .

وعندما عادت في المساء الى الفندق قيل لها ان رجلاً سأل عنها وهو آت من قبل السيد بول . وانه سيعود غداً اليوم التالي . وشعرت بموجة من الهما . تغزو قلبها ولم يغمض لها جفن طوال الليل . اتراه هو ؟ اجل انه هو ولا ريب بالرغم من انها لم تعرفه من الاوصاف التي اعطيت لها .

وحوالي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي فرع بابها . وهتفت : - ادخل . وتقدم منها رجل غريب وبعد ان اعتذر لازعاجها اخبرها ان له في ذمة ولدها بول ديناً وقد جاء ليشقها . وشعرت بحاجتها الى البكاء بدمع غدير ، وكان بواب شارع (سوفاج) قد اعلمه بقدوم امه فتوجه اليها . وناولها ورقة ودون ان تنظر اليها قرأت الرقم (٩٠) فرنكاً . وتناولت حافظة نقودها وناولت المبلغ للرجل . ولم تخرج يومها ذاك .

وجاءها في اليوم التالي داثون آخرون . ودفعت كل ما كان معها من نقود وابتقت لنفسها عشرين فرنكاً فقط . وكتبت الى روزالي تشرح لها ما آلت اليه امورها .

وامضت اياماً اخرى في التطواف دون وجهة معينة او هدف مرسوم . وبما ارهقها ان ليس لديها من تشكو اليه مما المقيم . وادركتها رغبة في الانصراف وفي العودة الى هناك . . الى بيتها حيث تمكنت جذور عاداتها الكثيرة من الارض . وذات مساء وجدت رسالة انطوت على مئين من الفرنكات جاء فيها

« سيدتي جان . عودي سريعاً لأنني لن ارسل لك بعد الآن قرشاً . اما السيد بول فانا التي ستذهب للعودة به عند ما نتلقى خبراً عنه . . احملك .

ورجعت جان الى بانفيل ذات صباح قارس البرد والثلج يتساقط . . .

الفصل الثامن

أقامت جان في بيتها لانبرحه وقلما تتحرك او تخرج . كانت تستفيق كل صباح في ساعة معينة فتتطلع الى الجو عبر زجاج نافذتها ثم تنزل الى الردهة فتجلس بالقرب من الموقد .

وكثيراً ما كانت تقضي اياماً بطولها ، عيناها والعنان باللهب المتراقص واعضاؤها في سكون واسترخاء تاركة لافكارها المقبضة العنان على غاربه ، متابعة تسلسل ذكرياتها الحزينة المؤلمة .. ثم يهبط الظلام فيجلبب القاعة رويداً رويداً دون ان تختلج في جان جارحة او تبدر منها حركة ما خلا القاؤها بعض الحطب الى النار اذا ما أوشكت تحبؤ . وتدخل روزالي فتجدها على مثل هذه الحال فيهب بها : - هيا باسيدة جان ينبغي لك ان تتحركي قليلاً كيما تشعرى جوعاً هذا المساء ! ..

كانت أفكار ثابتة ملحة تلاحقها اغلب الاحيان ، افكار تفرق قواها العاقلة بمحنة في تعذيبها مر العذاب ، وغدت اتفه الاشياء تبعث فيها انقباضاً وتورثها غصة . انها تحبب معظم وقتها في الماضي ، الماضي الممعن في القدم . فتلازمها ذكرى حياتها الاولى ورحلة عرسها الى هنالك .. الى كورسيكا ملازمة الظل . فكانت مناظر تلك الجزيرة ، وقد احت من ذاكرتها منذ أمد بعيد ، تعاودها تباعاً فتراها مرتسمة في صدر الموقد ، في اطار وهاج من السنة اللهب المتطاولة ..

ثم تصل في تتبع شريط حياتها الى سنوات طفولة بول الحلوة عندما كان يزرع لها البقول في الحديقة جانباً فوق الارض الكثيفة بالقرب منه الخلة المسكينة ليزون ترعاه بعينها وقلها !

وندت عن صدرها المقروح قهقهة كاوية : - بوليه ! يا صغيري بوليه ! قالتها
كما لو كان يصغي الى تدليلها هذا . . ويتجسد اسم طفلها الحبيب فتخال احرف ذلك
الاسم منقوشة في فراغ الغرفة فتعلق انظارها باحب اسم الى قلبها في الوجود .
لقد سيطر عليها كل هوس الانطوائين في وحدة صارمة . فكانت انفة الاشياء
توفر اعصابها وتحرك عواطفها .

اما روزالي فكثيراً ما كانت تفسرها على السير فتقودها الى الطريق فماتلبث
بعد عشر دقائق ان تتذمر وتعجز عن متابعة المشي فتجالس على حافة الطريق .
وكثيراً ما ابدت نفوراً من كل حركة فتمكث يومها في سريرها .
ولم يبق لها من عادات شبابها سوى واحدة تلازمها فلا تطيق لما تبديلا الا
وهي نهوضها فجأة من سريرها بعد تناول القهوة في الصباح .

الا انها في المدة الاخيرة بدأت ، شيئاً فشيئاً ، تعناد المكوث حاملة لحظات
بعد ارتشاف كأس القهوة واعادته الى مكانه من منصدة الليل ثم تعود فتتمدد في
غراشها . . وازدادت فترة هذا الاسترخاء يوماً اثريوم . . فكانت روزالي تلج
غرفتها غضبي فتلبسها ثيابها باقوة تقريباً .

كانت كل افعالها خالية من المظاهر الارادية . فاذا استمزجت وصيفتها رأيتها
حول قضية ما كان جواها الخالد :
- افعلني مايجلو لك يا بنيقي .

كانت تؤمن ايماناً وطيداً انها ملاحقة بقضاء وقدر لايرحمان حق ام . . غدت
« قدرية » كالشرفيين . وقد اعتادت ان ترى احلامها دائماً تسير الى الانهيار وآمالها
تمشي الى الاضمحلال بشكل لم تعد تجرؤ معه على التعلل بامنية او الاستسلام الى حلم
بل غدت تتورع عن القيام بانفه الاعمال ثقة منها ان الامور لن تعم ان تغلب الى
عكس ما تشتهي وتمنى .

كانت تردد في كل مناسبة : « انا التي لم تعرف مخالفة الحظ السعيد طول حياتها ،
فتصرخ روزالي : - ماذا كنت تقولين اذا لو اضطرت الى كسب لقبك

بنفسك ، لو كنت مرغمة على النهوض الساعة السادسة لتنتقلني الى العمل سعادة
يومك ؟ ثمة كثيرات مجبرات على مثل هذا . فاذا مابلغن من العمر عتياً متن من
الفاقة والعوز والبأساء !

فتجيب جان : - فكري فيما انا فيه من وحدة .. ولدي وجبسيدي ..
بوليه .. هجرني ..

فتندفع روزالي في غضبة كاسحة : - يا لها من قضية ! حسناً ! ثمة اولاد في
خدمة العلم ! ومنهم من هجر الى العالم الجديد ! لا بد من وقت يأتي فيفرق بين المرء
واحباؤه . ان الشبان والشيوخ لم يخلقوا ليمدشوا متلازمين ابد الدهر !

ثم تخلص الى القول بلهجة صارمة : - حسناً مارأيك لو انه .. مات ؟!
وتلزم جان الصمت لا تنبث .

وعاودها شيء من نشاط عندما بدأ الهواء يلطف عنددو الربيع الا ان
مغريات الطبيعة وتبرجها الفتان لم تكن الا لتزيدها في أفسكارها القائمة استغراقاً وعلى
ذكرياتها الماضية غوصاً وتنقيباً ...

صعدت جان يوماً الى بيت المؤونة لاحضار حاجة عارضة فعمرت في احد
الصناديق المهمة على عدد من التقاويم القديمة فجهدت في مكانها كأنها عادت بالسنين
الفقرى ... كأنها استعادت في لحظة كل ايام شبابها الحوالي .. فأقامت فترة
طويلة جامدة امام هذه القطع المربعة من الورق المقوى الحاملة اسماء السنين الحوالي
والتي اعناد أهل الريف الاحتفاظ بها أمداً طويلاً .

وحملت التقاويم الى غرفتها وشرعت ترتبها حسب السنين ووجدت ، بغتة ،
اول واحد منها . ذاك الذي حملته معها الى بوبل .. تأملته طويلاً ... كانت
اشارات القلم مازال واضحة فوق الايام التي تلت خروجها من مدرسة الدير واقامتها
في القصر . وبكت . بكت بدموع غدار سخينة وثيدة . دموع عجوز امام حياتها
الصاخبة المكومة امامها فوق منضدة !

ونبتت في رأسها فكرة واضحة ثابتة مسيطرة قوية : ستراجع تلك الايام يوماً
فيوماً فتتذكر كل ما فعلته في كل واحد منها .

ونهبضت الى الجدار فعلقت فوق الطنافس هذه الاوراق المصفرة فكانت تغطي
الساعات الطوال امام الواحدة والاخرى متسائلة :

— ماذا حدث لي هذا اليوم او ذاك ؟

وأشارت الى الايام التذكارية الفاصلة من حياتها بخطوط . وتوصلت ، بقوة
ارادتها واجهاد مخيلتها الى استعادة حوادث ايام السفين الاوليتين من حياتها في
بابل يوماً فيوماً فكانت الذكريات تنقاد اليها بسهولة منقطعة النظير ووضوح
بارز المعالم .

اما السنوات التالية فتد اختلط عليها امرها فبدت في عينيها متداخلة مغلقة
بضباب الماضي الكثيف وكثيراً ما تلبث مخنية الرأس وقتاً طويلاً فوق احد النقاوم
وقد علقت كل قواها العقلية في الماضي فلا تتوصل الى تحديد ما اذا كانت تلك
الحادثة او هذه وقعت في تلك الفترة او هذه .

واحست نشاطاً عظيماً عندما تحرك النسغ في عروق الشجر تحت وهج الشمس
وبدأت المزروعات تنبت في الحقول والاعصان تكتسي حلتها الخضراء الرطبية
واشجار التفاح في الحديقة تتجلبب بثوبها الوردى الفواح الاربيع يعطر الهواء
وينعش الجو .

انها عين الانتفاضة التي اعترتها يوم كانت شابة ترقب المستقبل مطمئنة الى
تحقيق آمالها الزاهرة بازدهار أرض الحقول .

كانت لا تستقر في مكان ولا تسكن على حال فلا ترى الا غادية ذاهبة تطوف
في الحقول فتتوغل بعيداً . . بعيداً منتشية بنفح الربيع المغناج .

لقد حمل الربيع الى قلبها السرور الا انها كانت لا تفتأ تتألم مرير الالم من
ذكرياتها فكان هذا الزهو الخالد في الطبيعة المستيقظة وهو يلامس بشرتها الجافة

ويدخل دماغها المتنبدة لا يحمل اليها الا ألماً وسوداوية تغارة .

وخيل اليها ان اشياء عديدة قد تغيرت من حولها . فالشمس أقل حرارة بما كانت عليه في صباها ، والسماء اكثر شعوباً والاعشاب حائلة الخضرة والازاهير أميل الى الاصفرار واضعف نشرأ . كل شيء لا يبعث النشوة في الانفس كما كان يفعل . الا انها لم تعدم ، من حين لآخر ، شعوراً بشيء من الراحة والسعادة فالمرء لا يستطيع ، عندما يكون الجو صافياً ، الا ان يحلم ويتأمل ويشرد . .
لماذا لم تكن محبوبة كسواها من النساء ؟ لماذا لم تنعم على الافل بعيش هادئ راض ؟

ربما غاب عن فكرها احياناً انها عبوز هرمة ليس لها ان تحمل بشيء او تتبني امراً . . فكانت ترمم الخطط المحببة وتهيم مع امان مذهبة الحواشي عباقرة الاربيع شأنها يوم كانت في السادسة عشرة بيد ان الحقيقة المرة ما كانت تمهلها طويلاً فتساورها وتنبغ بكسلها عليها بضراوة وقسوة . . . فتنهض بحنية الظهر كأن ثقلًا رجيحاً يهبط كاهليها ويعد أركانها وتعود الى السير الوئيد في الطريق المفضية الى مسكنها متمتعة :
- يا لي من عبوز حمقاء ! يا لي من عبوز بلهاء !

أما روزالي فكانت تردد لها دائماً : - احتفظي بهدوءك ياسيدي لست افهم ما الذي يدفعك الى كل هذه الحركة !

وعادت الى مسكنها ، مساء ذات يوم ، بعد نزعة في الحقول فلهجتا تحت الباب شيئاً ابيض . انها رسالة القى بها الموزع اثناء غيابها . وادر كذا فوراً انها من بول . وفضت جان الرسالة والتأثر يرفجف كل اطرافها . كان يقول فيها : هامي العزيزة . لم اكتب اليك قبل الان كيلا ادفعك الى القيام برحلة لاجدوى منها الى باريس وكنت اتوق ابدآ الى السير اليك لرؤيتك . اني في هذه الساعة رازح تحت ثقل شقاء باهظ . ان زوجتي في نزعة الاخير بعد ان وضعت الى النور طفلة منذ ثلاثة ايام . انا لا أملك فلساً . لست ادري ما أنا فاعله بهذه الطفلة التي تعهدتها البوابة تغذيتها بالمصاصة ولم أخشى ان افقدها هي الاخرى . الا تستطيعين تعيدها ؟ لست

ادري ما افعل وليس لدي المال لأخذ لها مريضاً . انتظر جوابك بعودة البريد ،
ولذلك الهب - بول
والخط جان فوق مقعد تسكك تفقد الوعي . وغرقت وروزالي في صمت
عميق مطبق .

وتسككت روزالي أخيراً : سأذهب بنفسني فأعود بالطفلة ياسيدي . لن
نمطلي عنها .

واجابت جان كأنها تخاطب نفسها : - لك ذلك يا بني .

وصمت . وعادت الحصادمة بعد فترة نقول : - ضعي قبعتك ياسيدي .
سندهب الى كودرفيل لاستشارة الكاتب العدل اعتقد انه ينبغي عقد قران بول
والآنم قبل ان تقضي . . من اجل الصغيرة على الأقل .

وصدعت جان بالامر لاتنبت ، لقد غمر فؤادها سرور عميق طاغ . . . سرور
عنيف شات كتمان امره باي ثمن . . . ان عشيقه ابنها ، المرأة التي سرقت وحيدها
تلفظ النفس الاخير . . .

واعطى الكاتب العدل المعلومات اللازمة فاستعادتها روزالي مراراً كي لاتنسى
منها حرفاً . قالت : - لاتحشى ياسيدي شيئاً فسأتم بذلك جهد طاقتي .
وسافرت ذلك الليل الى باريس .

امضت جان يومين في اصطخاب من الافكار تركها اعجز من ان تحصر في
شيء افكارها . وفي الصباح الثالث تلقت من روزالي كلمة مقتضبة تعلن عن عودتها
في قطار المساء . ولا شيء سوى ذلك .

واستحضرت عربة احد الجيران وسارت ، حول الثالثة ، الى المحطة في (بورفيل ،
للقاء وصيفتها .

واقامت واقفة فوق الرصيف وعيناها عالقتان بالخط الحديدي الغائب في
الافق البعيد . وكانت ، من وقت لآخر ، تنو الى الساعة : عشر دقائق . خمس .
ها قد ازف الوقت . لم يظهر شيء في الافق ! ولحمت بغتة بقعة بيضاء . دخان ! ثم

نقطة سوداء آخذة بالتضخم ، منطلقة باقصى سرعتها . الفطار ! وخفت الآلة الضخمة
اللاهثة . من سرعتها أخيراً ثم توقفت والابخرة تفح من كل جزء منها وفتحت منها
أبواب . كانت عينا جان معلقين بالنواذ مستطلعة بتشوق ونهم . وهبط الركاب
فكانت تنغرس في وجوههم بنفاد صبر ..

ولحت روزالي أخيراً .. كانت تحمل فوق ذراعها لفائف من قماش ...
وهمت بالاسراع الى لفائفها الا انها خشيت ان تتخاذل بها ساقاها فتسقط . ورأتها
روزالي بدورها فمشت اليها بطلعتها الهادئة المعتادة :

— مساء الخير ياسيدي .. ها قد عدت .. ولكن بعد عنا . ونصب ...

سألت جان مضغضة الحواس : — حسناً ؟

وجاءها جواب روزالي كأنه من عالم سحيق : — حسناً .. لقد تزوجا ...
ثم ماتت هذه الليلة .. وهامي الصغيرة .

وقدمت اليها الطفلة الفارقة في اللفائف .

وتلقته جان بمرحة آلية وخرجتا من المحطة ثم صعدتا الى المركبة ...
وعادت روزالي تقول : — سيصل السيد بول فور فراغه من الدفن . سيكون
هنا غداً في مثل هذه الساعة ، دون ريب .

ونمت جان : — بول ...

ولم تزد .

وهبطت الشمس نحو الافق الانور تذرذر على السهل المخضوضر فيضاً من
نورها القاني . وبدت فوق قوس الافق غمام بيض مموهة بلون النجيع كأنها تنف
من ريش بجعة مزقتها النسور .. وطافت بالارض سكبينة هادئة وسلام عظيم ...
كانت العربة مندفعة باقصى مانطيق والفلاح السائق يلهب ظهر الجوادين
بسوطه الطويل ...

وجمدت انظار جان على لاشيء في الفضاء .. واجست حرارة . تتسرب الى

دار اليفظ العربى للنألف والترجمة والنشر

تقدم

الكاتب البولونى

كونستانتان فيرجيل جيورجيؤ

الاسم

الخامسة والعشرون

قصة الفرد إذا جرد من قيمه وغدا رقماً في إحصاء جماعى ، والجماعة التي
هضرت في بوقتتها الافراد وتحولات الى كتلة ذات حضارة آلية

قصة إباحة الرق في عصر تحريم الرقيق ، واستعباد الشعبين الغالب والمغلوب
في بوليتارية إنسانية يسوسها مجتمع آلى ...

قصة الحضارة التي ابتدعها الغرب وتبناها الشرق
فاصبحت وبالاً عليها معاً

دار اليقظة العربية
للطباعة والنشر

نقدم شاعر الحب والجمال وسيد المدرسة الوجدانية

لامرئيين

في قصته المبدعة

سقوط طلال

يقع الكتاب في زهاء ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير
وعلى ورق أبيض صقيل

من
سلسلة عيون الأدب العالمي

دار اليفطة العربية للنأليف والترجمة والنشر بـسورية

تقدم

الكولونيل لورنس

في كتابه

أعمدة الحكمة السبعة

يتناول البحث ثورة العرب ضد الاتراك وتمكن
الانكليز من السيطرة على البلاد العربية بعد
أن استحصلوا على أصدقاء لهم أقوياء
وأعداء أقوياء

يقع الكتاب في زهاء ألف وخمسمائة صفحة من القطع
الكبير وعلى ورق أبيض صقيل

في

سلسلة عيون التاريخ العالمي

٤

دار اليفطة العربية للنألف والترجمة والنشر بوسريه

نقدم
الى العالم العربي

مذكرات

فيافي في الجزيرة العربية

وهي الحلقة الثانية التي بدأ فيها الكولونيل لورنس

في الجزيرة العربية

يقع الكتاب في زهاء الخمسمائة صفحة من القطع

الكبير وعلى ورق ابيض صقيل

بقلم

ش . ث . ل و ش ن

فيافي

في

سلسلة عيون التاريخ العالمي

٥

دار البقطة العربية
للتأليف والنشر

تقدم

الجنرال اينزنهاور

في كتابه

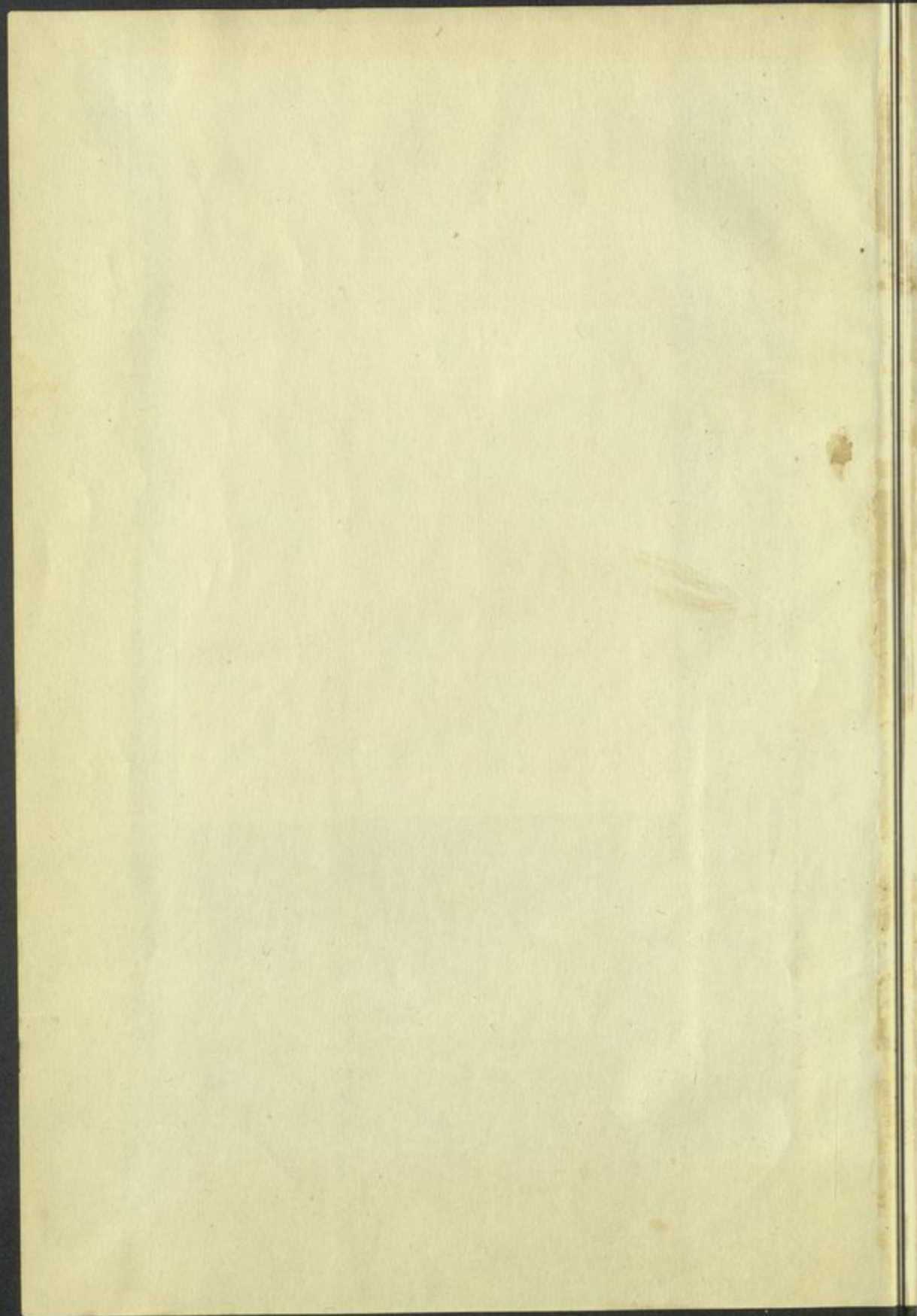
حرب صليبية في أوروبا

من أسرار الحرب العالمية الثانية

في

سلسلة عبون التاريخ العالمي

٧



DATE DUE



الحلو، إبراهيم

حياة صاخبة

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01032117



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

